الفصل السادس

عمل الحلم

إن كل المحاولات التى بذلت حتى اليوم فى حل مشكلات الحلم قد انصبت من غير وساطة على محتواه الظاهر كما يمثل فى ذاكرتنا ؛ فمن هذا المحتوى جهدت هذه المحاولات فى الوصول إلى تفسير الحلم ، أو عليه أقامت حكمها فى طبيعته — حين تركت مشكلة تفسره . نحن وحدنا نواجه وضعاً مختلفاً ؛ فهناك مادة جديدة تقوم من وجهة نظرنا بين محتوى الحلم الظاهر وبين النتائج التى انتهى إليها بحثنا : تلك هى محتوى الحلم الكامن أو أفكار الحلم التى بلغناها بمنهجنا . ونحن إنما نفك معنى الحلم من محتواه الكامن لا من محتواه الظاهر . وعلى ذلك تواجهنا مهمة جديدة لم يكن لها وجود من قبل : أن نبحث العلاقة بين محتوى الحلم الظاهر وبين أفكاره الكامنة ، وأن نتأثر العمليات التى تستحيل بها هذه الأفكار إلى ذلك المحتوى .

إن أفكار الحلم ومحتوى الحلم يمثلان أمامنا كترجمتين تؤديان فى لغتين مختلفتين معنى بعينه ، أو بعبارة أصح : إن محتوى الحلم يبدو لنا كأنه نقل لأفكار الحلم فى نمط مختلف من التعبير ، نمط يحق علينا أن نعرف رسم حروفه وقواعد نحوه ، وذلك بالمقارنة بينه وبين الأصل . إننا نفهم أفكار الحلم من غير وساطة فور العلم بها . وأما محتوى الحلم فيأتينا فيما يشبه الكتابة المصورة ، كتابة يجب علينا أن ننقل رسومها رسما فرسماً إلى لغة أفكار الحلم . فمن الجلى أننا ننساق إلى الخطأ حين نقرأ هذه الرسوم بحسب دلالتها المصورة لا على حسب علاقتها الرمزية . هب أمامى لغزاً من الألغاز المصورة : منزل أرى على سطحه مركباً ، ثم حرف واحد من الحروف الأبجدية ، ثم شخص يجرى منزوع الرأس ، الخ . لقد أنزلق إلى النقد معلنا أن هذه الصورة غير معقولة فى كلها وفى أجزائها : فما شأن المركب بسطح المنزل ؟ وكيف لرجل أن يجرى منزوع الرأس ؟ ثم إن الرجل أكبر حجماً من المنزل وإذا كان المراد بكل هذا هو أن يصور منظراً طبيعياً فليس هذا محل الحرف الأبجدى ، فالطبيعة لا تعرف الحروف الأبجدية . ولكن من الواضح أننا إنما نوفق

إلى الحكم على هذا اللغز حكماً صحيحاً حين ندع جانباً أمثال هذه الانتقادات الموجهة إلى الصورة فى مجموعها وفى أجزائها ، وحاولنا بدل ذلك أن نبدل بكل عنصر من عناصر الرسم مقطعاً أو كلمة يمكن تمثيلها بهذا العنصر على نحو من الأنحاء . فإن فعلنا ، فقد لا تخرج لنا منه كلمات خالية كذلك من المعنى ، بل قول من أجمل ما جاء به الشعر وأفصحه . والحلم لغز مصور من هذا القبيل ، ولقد أخطأ المتقدمون علينا فى مجال تفسير الحلم فنظروا إلى اللغز نظرتهم إلى لوحة مصورة . وكان أن بدا لهم — من حيث هو كذلك — خالياً من المعنى ، مجرداً من القيمة .

أ

التكثيف

إن أول ما يتبين للباحث عند المقارنة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم هو أن ثمت عملية تكثيف قد أجريت على نطاق واسع : فالحلم مقتضب ، هزيل ، ملىء بالثغرات ، إن هو قورن بسعة أفكار الحلم وغناها . فهو إذا كتبته قد يستغرق نصف الصفحة ، فلو سطرت التحليل الذى ينشر أفكار الحلم المتضمنة فيه لملأت ضعف ذلك ست مرات أو ثمانى مرات أو اثنتى عشرة مرة . وتختلف هذه العلاقة باختلاف الأحلام . ولكنها بقدر ما تذهب إليه تجربتى — لا تغير اتجاهها أبداً . ونحن فى العادة نقدر مقدار الإدغام الذى يقع تقديراً دون الحقيقة ؛ إذ يغلب علينا أن ننظر إلى أفكار الحلم التى خرجت إلى الضوء كما لو كانت تؤلف كل المادة الممكنة ، على حين أننا إذا تابعنا التفسير فقد تتكشف لنا أفكار أخرى مستترة وراء الحلم . ولقد سنحت لى الإشارة من قبل [ص ٢٣٨] إلى كوننا لا نستطيع أن نستيقن أبداً من أن هذا الحلم أو ذاك قد فسر تفسيراً كاملا . فاحتمال أن يكون للحلم معنى آخر غير الذى كشف احتمال يظل قائماً دائماً حتى ولو بدا الحل مقنعاً لا خلل فيه . أو بعبارة أدق : إن من المستحيل أن نحدد

مقدار التكثيف . غير أن هناك ردا يبدو للوهلة الأولى مقبولا فى الغاية على قولنا : إن النقص العظيم فى التناسب بين محتوى الحلم وأفكار الحلم دليل على أن المادة النفسية قد احتملت فى أثناء تكوين الحلم عملية تكثيف واسعة النطاق . ذلك أننا نشعر فى أحيان كثيرة بأننا قد حلمنا بالشىء الكثير طيلة الليل كله ونسينا معظم ما حلمنا به ؛ فالحلم الذى نذكره قد لا يكون — بحسب هذا الرأى — سوى نبذة متبقية من مجموع عمل الحلم ، ولو قد تذكرنا هذا كله لكان من الجائز أن نجد له من الشمول مثل مالأفكار الحلم . وما من شك فى أن هذا الرأى لا يخلو من بعض الصدق ؛ فلا جدال فى أننا نستحضر الأحلام على أدق وجه إذ حاولنا أن نتذكرها فور استيقاظنا وأن ما نذكره منها يتناقص شيئاً فشيئاً حتى المساء . غير أننـــا نستطيع أن نبين — من ناحية أخرى — أن شعورنا هذا بكوننا قد حلمنا بأحلام تربو كثيراً على ما نذكره هو شعور قائم فى أحيان كثيرة على وهم سوف أناقش مصدره فيما بعد [ص ٤٨٦ — ٤٨٧ ثم ص ٥٠٧] . أضف إلى ذلك أن فرضنا القائل بأن ثمت تكثيفاً يقع فى خلال عمل الحلم هو فرض لا تغير منه فى شىء إمكانية نسيان الأحلام ؛ لأن هذا الفرض إنما تثبته كمية الأفكار المتصلة بكل جزء مفرد من أجزاء الحلم المحفوظة فى الذاكرة. فإن كنا نسينا حقيقة شطراً كبيراً من أحلامنا ، فمعنى ذلك فى الراجح هو أننا قد حرمنا من الوصول إلى طائفة جديدة من أفكار الحلم . وأما أن نتوقع أن أجزاء الحلم المفقودة ربما تعلقت بهذه الأفكار عينها التى توصلنا إليها بتحليل الأجزاء المتبقية ، فذلك ما لا مبرر له على الإطلاق[1] .

ولكن من شأن غزارة المستدعيات التى تخطر عند التحليل بخصوص كل عنصر مفرد من محتوى الحلم أن تثير فى أذهان الكثيرين من القراء هذ الشك المبدئى : هل يحق لنا أن نعد كل هذه المستدعيات التى تظهر من بعد ، فى خلال التحليل ، جزءاً من أفكار الحلم ؟ أى : هل يحق أن نعتقد أن هذه الخواطر كانت حاضرة بالفعل ناشطة فى خلال حالة النوم وأنها قد شاركت فى تكوين الحلم ؟ أليس الأرجح أن مستدعيات

---

(١) إن وقوع التكثيف فى الأحلام ظاهرة أشار إليها مؤلفون كثيرون من قبل . فنحن نجد عند دوبرل (١٨٨٥ ، ٨٥) فقرة يقول فيها : إن من الأمور المستيقنة استيقانا مطلقا أن هناك عملية تكثيف تصيب طوائف الأفكار فى الحلم .

فكرية جديدة تنشأ فى سياق التحليل دون أن يكون لها فى تكوين الحلم نصيب ؟ إننى لا أستطيع أن أوافق على هذا الشك سوى موافقة مشروطة . نعم ، إن من الحق ولا شك أن بعض حلقات المستدعيات تظهر فى سياق التحليل للمرة الأولى ، ولكن فى وسع المرء أن يقتنع فى مثل هذه الحالات جميعها بأن هذه الروابط الجديدة إنما تقوم بين فكرتين كانتا موصولتين بالفعل فى أفكار الحلم على نحو آخر من الأنحاء. فهذه الروابط الجديدة هى بمثابة حودات أو مسالك مختصرة صارت ممكنة لأن ثمت طرقاً رابطة أخرى أعمق غوراً. ولا بد لنا من أن نسلم بأن الغالبية العظمى من الأفكار التى تنكشف فى أثناء التحليل كانت حاضرة بالفعل ناشطة عند تكوين الحلم ؛ لأننا كثيراً ما نتابع خيطاً من الأفكار تبدو منقطعة الصلة بتكوين الحلم، ثم إذا نحن نعثر فجأة على فكرة مُثّلت فى الحلم، ولا يستغنى عنها فى تفسيره ، وما كنا مع ذلك لنتهى إليها بغير متابعة هذا الخيط الفكرى. ويحق لى هنا أن أذكر بحلم المبحث النباتى ، هذا الحلم الذى يبدو نتيجة لعملية تكثيف مدهشة وإن لم أرو تحليله كاملا .

ولكن إذا كان ذلك كذلك ، فعلى أى نحو نتصور الوضع النفسى فى خلال فترة النوم التى تسبق الحلم ؟ هل تتراص أفكار الحلم جميعاً ، الواحدة بجانب الأخرى ، أو هى تتعاقب تترى ، أو أن عمليات نفسية متعددة تبدأ فى وقت واحد من مراكز مختلفة ثم تلتقى ؟ أعتقد أننا لا نحتاج فى الوقت الحاضر إلى تكوين فكرة منظورة عن الوضع النفسى القائم فى خلال حالة النوم . يكفى ألا ننسى أن الأمر يتعلق بفكر لا شعورى من السهل أن يجىء سيره مختلفاً مما نلحظه فى أنفسنا عند التفكير الهادف المصحوب بالشعور .

وأيا كان الأمر فالحقيقة الثابتة تبقى : أن تكوين الحلم يقوم على عملية تكثيف . فكيف يقع هذا التكثيف ؟

إن المرء إذ يرى أن أقلية ضئيلة من أفكار الحلم هى التى تمثل وحدها فى الحلم بوساطة أحد عناصرها الفكرية المشتركة — قد يتجه ظنه إلى أن هذا التكثيف يتم من طريق الحذف ، أى أن الحلم ليس ترجمة صادقة لأفكار الحلم أو إسقاطاً لها نقطة فنقطة ، بل هو نسخ ناقص، ملىء بالثغرات إلى أبعد مدى . هذا الرأى — كما سنراه عاجلا —

بعيد غاية البعد عن مطابقة الواقع . إلا أننا سنتكئ الآن عليه اتكاء موقوتا ثم نمضى منه فنسأل : إذا كانت قلة قليلة من أفكار الحلم هى التى تنفذ وحدها إلى محتواه ، فما هى الشروط التى تحدد اختيارها ؟

لا بد لكى نجيب عن هذا السؤال من أن نوجه الآن اهتمامنا إلى هذه العناصر من محتوى الحلم التى لا بد أن تكون قد حققت تلك الشروط التى نبحث عنها . وأحسن ما يعين بالطبع على هذا البحث حلم شاركت فى تكوينه عملية تكثيف ذات شدة تفوق المألوف . ولهذ أختار بادئ ذى بدء حلماً ذكرته من قبل فى ص ١٩١ .

١

حلم المبحث النباتى

محتوى الحلم : كتبت مبحثاً خاصاً بنوع (غير محدد) من النبات . الكتاب ماثل أمامى وأنا أدير فى تلك اللحظة على التحديد لوحة ملونة مطوية . أرفق بالنسخة نموذج مجفف من النبات .

إن العنصر الذى يظهر على غيره فى هذ الحلم هو المبحث النباتى . وقد نشأ هذا العنصر من انطباع تخلف من اليوم الذى سبق الحلم ؛ فقد رأيت فى واجهة إحدى المكتبات بحثاً فى فصيلة السيكلامين ولم يرد لهذه الفصيلة ذكر فى الحلم ، بل كل ما تبقى كان المبحث وصلته بعلم النبات . ولم يلبث «المبحث النباتى» دون أن ينكشف رباطه بمقال عن الكوكايين كتبته مرة . ومن الكوكايين ذهبت المستدعيات — من جهة — إلى الكتاب التذكارى وإلى أحداث معينة وقعت فى معمل الجامعة ، وذهبت — من جهة أخرى — إلى الدكتور كونجشتاين طبيب العيون الذى كان له سهم فى التعريف بالكوكايين . وذكرنى شخص الدكتور كونجشتاين بمحادثة قطع حبلها ، جرت بيننا فى مساء الحلم وبخواطرى المتعددة فيما يتعلق بسداد أجر الخدمات الطبية بين الزملاء . وكانت هذه المحادثة هى الحافز الحقيقى إلى الحلم ، حافزه الحاضر الناشط ، وأما المبحث الخاص بفصيلة السيكلامين فكان انطباعاً حاضراً ناشطاً كذلك ولكنه كان خالياً من القيمة .

وتبين لى أن « المبحث النباتى » فى الحلم كان بمثابة عنصر مشترك أوسط بين خبرتى اليوم السابق ؛ فهو قد أخذ كما هو من الانطباع المجرد من القيمة ثم ربط بالانطباع ذى القيمة النفسية الكبيرة بوساطة روابط استدعائية غزيرة .

ولكن الأمر لم يقتصر على هذه الفكرة المركبة ، فكرة « المبحث النباتى » ، بل إن كل عنصر من عنصريها ، « نباتى » و « مبحث » ، قد أدى منفصلا إلى رزمة أفكار الحلم المختلطة من خلال روابط متعددة تزيد عمقاً بعد عمق . فإلى « نباتى » رجعت ذكرى الأستاذ جارتنر [البستانى] وذكرى زوجته المزدهرة ، ثم ذكرى مريضتى فلورا [أزهار] وذكرى السيدة التى رويت فى صددها قصة الأزهار المنسية . وأدى جارتنر بدوره إلى المعمل وإلى حديثى مع كونجتشاين ، ولقد كنا أشرنا فى خلال هذا الحديث عينه إلى هاتين المريضتين [فلورا والسيدة ل.]. ومن السيدة بأزهارها تشعب الفكر إلى أزهار زوجتى المفضلة ثم إلى عنوان البحث الذى كنت ألقيت عليه فى النهار نظرة عابرة . و « نباتى » قد ذكرنى — عدا ذلك — بقصة وقعت فى المدرسة الثانوية وبامتحان فى الجامعة ، ثم جاء موضوع جديد كان الحديث مع كونجتشاين قد تطرق إليه — وأعنى به هواياتى المفضلة — فارتبط من طريق ما سميته مازحا زهرتى المفضلة — وأعنى الخرشوف — بسلسلة الخواطر المنبعثة من الأزهار المنسية . ومن وراء « الخرشوف » كمنت — من جهة — ذكرى إيطاليا[1] وكمن — من جهة أخرى — مشهد من طفولتى كان فاتحة ما أصبح من بعد علاقتى الحميمة بالكتب . وهكذا كان هذا العنصر « نباتى » معقد الحلم حقيقة : ففيه التقت خيوط من الفكر كانت قد دخلت فى سياق تلك المحادثة دخولا مناسباً — كما يسعنى توكيده . فنحن نجد أنفسنا هنا فى مصنع للأفكار يصدق عليه قول الشاعر عن عمل النساج :

فى دفعة القدم يموج ألف خيط
وينتفض البكر فى كر وفر
والخيوط تنساب لا تنظرها
كل ضربة تحزم ألف شكل [2] .

---

(١) [لم يرد ذكر إيطاليا فى المستدعيات التى أوردها فرويد فى صدد هذا الحلم ، وأغلب الظن أنه يشير هنا إلى مستدعيات لم يذكرها .]

(٢) [فاوست ، الجزء الأول ، المشهد الرابع " فى مكتب فاوست " سطر ١٩٢٤ وما بعده .]

وكذلك « مبحث » : فهى تلمس موضوعين : اقتصار دراساتى على جانب واحد ثم التكاليف التى تجر إليها هواياتى .

هذه النظرة الأولى تشعر المرء بأن هذين العنصرين ، « نباتى » و « مبحث » ، قد وجدا موضعاً فى محتوى الحلم لأنهما كانا يملكان أوفر العلائق بمعظم أفكار الحلم ، وكانا لذلك بمثابة معقدين تجتمع فيهما أفكار حلمية غزيرة غاية الغزارة ، أى لأن لهما فيما يتصل بتفسير الحلم معانى متعددة . وفى وسعنا أيضاً أن نعبر عن الظاهرة الأساسية التى يقوم عليها هذا التعليل تعبيراً مختلفاً فنقول : إن كل عنصر من عناصر محتوى الحلم لا يلبث أن يتبين أنه محتوم حتما مضاعفا ، أى أنه ممثل فى أفكار الحلم أكثر من مرة .

وإنا لنعلم ما هو أكثر من ذلك إذا فحصنا سائر مقومات الحلم من حيث ورودها بين أفكاره . فاللوحة الملونة التى كنت أديرها قد أدت (أنظر تحليل الحلم فى ص١٩٧) إلى موضوع جديد هو النقد الذى وجهه الزميل إلى أعمالى ، ثم إلى موضوع آخر سبق أن رياه ممثلا فى الحلم ، هو هواياتى المفضلة ، وهذا بالإضافة إلى ذكرى مشهر الطفولة الذى كنت أمزق فيه — ورقة فورقة — كتاباً حوى لوحات ملونة . وأما نموذج النبات المجفف فكان يرجع إلى قصة معشب المدرسة الثانوية ويؤكد هذه الذكرى توكيدا خاصاً . وهكذا يتضح لنا نوع العلاقة بين محتوى الحلم وأفكاره : فعناصر الحلم قد حتمتها أفكار الحلم المرة بعد المرة ، ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن أفكار الحلم المتفرقة قد تمثل فى الحلم بأكثر من عنصر واحد فطريق التداعى يمتد من أحد عناصر الحلم إلى أفكار كثيرة للحلم ، ثم من فكرة واحدة من أفكار الحلم إلى أكثر من عنصر من عناصره . وهكذا لا يتم تكوين الحلم بحيث تسلم كل فكرة من أفكاره أو كل طائفة من هذه الأفكار إلى عنصر مختزل يمثلها فى محتوى الحلم تمثيلا مستقلا على نحو ما تنتخب الدوائر الانتخابية نوابها ، بل الأصح أن تقليبا يتناول أفكار الحلم فى مجموعها بحيث لا يكتسب حق الدخول فى الحلم إلا العناصر المؤيَّدَة أكثر التأييد وأقواه على نحو يماثل نظام الانتخاب بالقائمة . وما من حلم حللته مثل هذا التحليل إلا اكتشفت فيه هذا المبدأ الثابت : أن عناصر الحلم تبنى من أفكار الحلم مأخوذة فى مجموعها وأن كل

عنصر من هذه العناصر محتوم فى علاقته بهذه الأفكار أكثر من حتم .

ومن المؤكد أنه لن يكون من نافلة الكلام أن نصور العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم بمثال جديد يمتاز بتشابك العلائق المتبادلة بين هذين الطرفين تشابكا فذا فى مهارته . والحلم حلم مريض كنت أعالجه من مخافة الأماكن المغلقة وسيتبين للقارئ سريعاً لم اخترت لهذا النتاج الحلمى الفريد فى ألمعيته اسم :

٢

« حلم جميل »

كان يركب مع صحبة كبيرة فى شارع س . حيث يوجد نزل متواضع (وهو ما ليس صحيحاً) . بداخل النزل مسرحية تمثل . إنه متفرج تارة ، ممثل تارة أخرى . كان على الجميع بعد أن انتهت المسرحية أن يغيروا ملابسهم لكى يذهبوا إلى المدينة . نزل فريق من المجموعة فى الطابق الأرضى ونزل فريق آخر فى الطابق الأول . شب حينئذ نزاع : الأعلون غاضبون لأن الأسفلين يتباطئون بحيث يحولون بينهم وبين النزول . كان أخوه بالطابق الأعلى وكان هو بالطابق الأسفل وكان ساخطا على أخيه لأنه وفريقه يحتونهم حثا لا يطاق . (هذا الجزء غير واضح) كانت القسمة بين من يحتلون الطابق الأعلى وبين من يحتلون الطابق الأسفل أمراً مقرراً منذ اللحظة التى وصلوا فيها . يذهب بعد ذلك وحده مصعداً فى شارع س . فى اتجاه المدنية . يلاقى فى الصعود صعوبة ويلاقى عناء حتى أنه لا يكاد يبارح مكانه . يقبل عليه سيد متقدم فى السن ويعرض بملك إيطاليا . عند ما يبلغ قمة المرتقى يسهل سيره كثيراً .

وكانت صعوبة الصعود متميزة حتى أنه ظل يشك بعد اليقظة برهة فيما إذا كان الأمر حلماً أم حقيقة .

إن هذا الحلم لن يلقى منا كلمة طيبة لو حكمنا عليه من محتواه الظاهر . وسأبدأ تفسيره على عكس القاعدة — بهذا الجزء الذى نص الحلم على أنه كان أشد أجزائه تميزاً .

إن الصعوبة التى حلم الحالم بها وأحسها فعلا فى حلمه على الراجح — الصعود الشاق مع عسر التنفس — هى إحدى الأعراض التى كانت قد بدت بالفعل على المريض منذ سنوات وعزيت إذ ذاك — مع غيرها — إلى السل (ويرجح أنه كان محاكاة هستيرية .)

ولقد عرفتنا أحلام الاستعراض من قبل بهذا الإحساس الخاص الذى يرد فى الحلم ، إحساس الكف ، وإنا لنرى مرة أخرى أن هذا الإحساس مادة سهلة المنال فى كل وقت ، تستغل فى كل غرض تصويرى آخر . ولقد ذكرتنى تلك الفقرة من الحلم التى يبدأ فيها الصعود صعباً ثم يسهل عند نهاية المرتقى — ذكرتنى والحالم يروى حلمه بالمقدمة الذائعة المنقطعة النظير التى يستهل بها الفونس دوديه رواية « سافو » : هناك نرى شاباً فى مقتبل العمر يصعد السلم حاملا خليلته خفيفة كالريشة أول الأمر ، ولكنه كلما صعد أثقلت ذراعيه . والمشهد كله ينبىء بمصير العلاقة بينهما ، أراد دوديه بتصويره أن يحذر الشباب من الإغراق فى كلف جاد بفتيات لا يعرف لهن أصل ولا يسلم ماضيهن من بعض الظن[1] . وكنت أعلم أن مريضى قد اشتبك فى صلة غرامية بسيدة تعمل فى المسرح وأنه قد قطع هذه الصلة أخيراً ، ومع هذا لم أكن أتوقع أن يتأيد تفسيرى . أضف إلى ذلك أن الموقف فى سافو كان عكسه فى الحلم : ففى الحلم يبدأ السير صعباً ثم يسهل من بعد ، بينما يقوم كل مغزى الرمز الروائى فى كون ما كان سهلا فى البداية قد صار فى النهاية عبئاً ثقيلا . فلشد ما كان دهشى حين أجاب المريض أن تفسيرى يتسق غاية الاتساق ومسرحية رآها فى مساء الحلم : كان اسم المسرحية « جولة فى ڤيينا » وكانت تعالج سيرة فتاة بدأت حياتها فتاة محترمة ثم صارت بين بين ، وتعددت لها صلات برجال من ذوى المكانة وبذلك « بلغت القمة » ، ولكنها عادت فى النهاية « فهبطت بأسرع مما صعدت » . وذكرته هذه المسرحية بمسرحية أخرى رآها منذ سنوات ، كان عنوانها « درجة فدرجة » وكان لها إعلان يصور سلما متعدد الدرجات .

لنمضين فى التفسير . إن الممثلة التى اتصل بها اتصاله الأخير الحافل هذا كانت تقطن شارع س . وليس بهذا الشارع نُزُل . بيد أنه قد قضى جزءاً من الصيف فى ڤيينا من أجل هذه السيدة ، ونَزَل إذ ذاك فى فندق صغير قريب منها . وهو يذكر أنه قد قال لسائق العربة إذ غادر الفندق : « إننى لسعيد ؛ فقد سلمت على الأقل من الحشرات ! » (وأذكر عرضاً أن تلك كانت إحدى مخافاته) وكان جواب السائق : « وكيف ينزل

(١) إن ما كتبته فى القسم الخاص بالرمزية من هذا الكتاب عن معنى أحلام الصعود يلقى الضوء على تصوير الكاتب . [القسم هـ من هذا الفصل .]

المرء بمثل هذا المكان ! إنه ليس فندقاً بالمعنى الصحيح ، إن هو فى الحقيقة إلا نُزُل . »

ولا تلبث فكرة النزل أن تذكره بهذين البيتين :

« قد حللت أخيراً فى نزل
وكان المضيف أرق مضيف . »

والمضيف فى قصيدة أولاند [التى استشهد منها المريض بهذين البيتين] كان شجرة تفاح . والآن ترد على خاطره آية أخرى من الشعر :

فاوست (وهو يرقص مع الساحر الصغيرة) :

أتانى مرة حلم جميل
رأيت فيه شجرة تفاح
وعلى الشجرة أشرقت تفاحتان جميلتان
سلبتانى اللب فصعدت صوبهما .

الساحرة الجميلة :

لقد تقت للتفاح توقا جما
منذ أن خلته فى الجنة
كم يستحفنى الطرب وأنا أجد
حديقتى تؤتى هذه الأكل (١) .

إن الشك محال فيما يعنيه الشاعر بشجرة التفاح وبالتفاحتين . والصدر الناهد كان بعدُ بين السحر الذى شد حالمى إلى صاحبته .

وكان سياق التحليل يخول لنا كل الحق فى أن نفترض أن الحلم يرجع إلى انطباع من الطفولة . فإذا كان الأمر كذلك ، لزم أن الحلم يتعلق بمرضع الحالم البالغ الآن ثلاثين عاماً . وما صدر المرضع فى الحقيقة إلا نُزُل بالنسبة إلى الطفل . والمرضع إذن — مثل سافو دودويه — تبدو تومئ إلى الحبيبة المهجورة منذ زمن غير بعيد .

وأخو الحالم (وهو أخوه الأكبر) يظهر كذلك فى محتوى الحلم ، ويظهر فى الطابق

(١) [فاوست ، الجزء الأول ، المشهد ٢١ .]

الأعلى بينما الحالم نفسه فى الطابق الأسفل . وهذا أيضاً قلب للوضع الحقيقى : فالأخ — كما أعرف — قد فقد مكانته الاجتماعية بينما ظل المريض محتفظاً بها . ولقد تجنب الحالم حين سألته أن يعيد رواية الحلم — تجنب أن يقول : إن أخاه كان فى الطابق الأعلى وكان هو فى « الطابق الأرضى » . وما تجنب هذا التعبير إلا لأنه كان يكون تعبيراً واضح المعنى أكثر مما ينبغى ؛ فنحن حين نقول [فى ڤينا] عن رجل ما : إنه « فى الطابق الأرضى » نعنى بذلك أنه قد فقد ثروته ومكانته ، أى نعنى — بعبارة أخرى — أنه قد هبط . ولأن يصور أمر ما فى هذا الموضع من الحلم تصويراً مقلوباً — ذلك ماله بالضرورة معناه . ولا بد أن القلب قد تناول فوق ذلك علاقة أخرى بين أفكار الحلم ومحتواه . وإنا لنملك إشارة بينة ترينا أين نجد هذا القلب : من الجلى أنه قد ورد فى نهاية الحلم حيث يجرى الصعود على نسبة معكوسة منها فى سافو . وهنا يسهل علينا أن نرى أى قلب هو المقصود : فى سافو يحمل الرجل المرأة التى تعقد بينها وبينه صلات جنسية ، فأما فى أفكار الحلم فيتصل الأمر على العكس بامرأة تحمل الرجل. وإذ كانت هذه الحالة لا تتحقق إلا فى الطفولة ، فالأمر يتعلق من جديد بالمرضع التى تحمل الرضيع بما وزن. وهكذا وفقت نهاية الحلم إلى أن تصور فى إشارة واحدة كلا سافو والمرضع .

وكما أن المؤلف لم يختر اسم سافو دون أن يلمح به إلى العادات الجنسية المثلية بين النساء، كذلك فقرات الحلم التى تتحدث عن « الأعلين» و « الأسفلين » : فهى تلمح إلى تخييلات من نوع جنسى شغلت الحالم ولم تكن تخلو من بعض الصلة بعصابه من حيث هى شهوات مكبوتة . ولا يرينا تفسير الحلم فى ذاته هل الأمور المصورة هذا التصوير تخييلات وليست ذكريات عن أحداث وقعت حقيقة ؛ فالتحليل إنما يسلمنا محتوى فكرياً بعينه ويترك لنا تقدير مدى حظه من الحقيقة . وذلك لأن الأحداث سواء أكانت حقيقية أم متخيلة تبدو هنا للوهلة الأولى متساوية القيمة — وليس هنا ، أى فى الحلم ، وحسب ، بل كذلك فى خلق الأبنية النفسية التى تفوق الحلم خطراً . والصحبة الكبيرة تعنى « السر » — كما نعلم من قبل [ص٢٦٣] . وأما الأخ فإن هو إلا ممثل جميع مزاحميه اللاحقين فى حب المرأة ، ممثل أدرج فى مشهد الطفولة بفعل « تخييل راجع ». وأما قصة السيد الذى يُعَرِّض بملك إيطاليا فتتصل مرة أخرى — من طريق خبرة حديثة العهد خالية فى ذاتها من القيمة — بتكالب الأشخاص الذين لا مكانة لهم على الاندساس

بين الطبقات العليا للمجتمع . والأمر يبدو كما لو كان التحذير الموجه من دوديه إلى الشباب قد ضم إليه تحذير يناظره ، متجه إلى الطفل الرضيع (١) .

ولكى آتى بمثال ثالث يعين على دراسة التكثيف فى تكوين الحلم أروى تحليلا جزئياً لحلم آخر أدين به لسيدة متقدمة فى السن أعالجها علاجاً تحليليا نفسيا . وكانت هذه المريضة تشكو حالات من الهيلة شديدة الوطأة ، فلا غرو أن حفلت أحلامها بأفكار جنسية أثارت معرفتها دهش المريضة وتخوفها على السواء . وإذ كنت لا أستطيع أن أسوق تحليل هذا الحلم حتى نهايته ، فسوف تبدو مادته منقسمة طوائف متعددة لا يربط بينها رباط ظاهر .

٣

« حلم الخنفساوين »

محتوى الحلم : تتذكر أن لديها خنفساوين وضعتا فى صندوق وأن عليها أن تطلق لهما الحرية وإلا اختنقتا . تفتح الصندوق فتجد الخنفساوين فى حالة من الاعياء الشديد . تطير إحدى الخنفساوين من النافذة المفتوحة ، وأما أخراهما فيسحقها مصراع النافذة بينما كانت المريضة تغلقها — على ما طلب إليها (علامات على الاشمئزاز) .

التحليل : كان زوجها غائباً عن المنزل فى سفر ، وكانت ابنتها البالغة من العمر أربعة عشر ربيعاً تنام فى السرير إلى جوارها . لقد نبهتها الصغيرة إلى أن عثة قد سقطت فى كوب مائها . ولكنها لم تفكر فى إخراجها ثم إذا طلع الصباح أسفت للمخلوقة المسكينة . إنها كانت قد قرأت فى المساء قصة روت كيف ألقى بعض الصبية بقطة فى ماء مغلى وأعقب ذلك وصف تقلصات الحيوان : ذانك هما مناسبتا الحلم وهما يخلوان من الأهمية فى ذاتيهما . إنها تفكر بعد ذلك فى موضوع القسوة على الحيوان . إن ابنتها قد كانت منذ بضع سنوات — وكانوا يقضون الصيف إذ ذاك فى مكان ما — شديدة القسوة على الحيوان . فهى — أعنى الابنة — كانت تجمع الفراشات وكانت تسأل أمها بعض الزرنيخ لكى تقتل به الفراشات . وكان من صنعها أن يراعة ظلت تحوم فى أرجاء

(١) لقد ثبت أن الموقف المتصل بمرضع الحالم إنما كان وليد التخييل ، أثبتته تلك الواقعة الموضوعية : وهى أن مرضع الحالم كانت فى هذه الحالة أم الحالم نفسه . وأذكر هنا بحكاية الشاب الذى أسف على أنه لم يستغل موقفه من مرضعه استغلالا أحسن (ص ٢٢٤) ، فلا شك فى أن حلمنا هذا يصدر عن أسف من هذا القبيل .

الغرفة برهة وقد اخترق دبوس جسمها . وفى مرة أخرى ماتت يرقات كانت البنت قد احتفظت بها لكى تشهد انسلاخها . وكان من دأب هذه الطفلة أيضاً — وهى بعد أصغر سناً — أن تمزق أجنحة الخنافس والفراشات . إنها — أعنى الابنة — ترتاع اليوم من هذه القساوة كلها ؛ لكم رق قلبها من بعد !

إن المريضة تفكر فى هذا التناقض ، وهذا التناقض يذكرها بآخر — وأعنى به التناقض بين المظهر والمخبر كما تصوره [جورج] إليوت فى رواية « آدم بيد » : فتاة جميلة لكنها مغرورة ، غبية إلى آخر درجات الغباء ، وأخرى دميمة لكنها على خلق كريم ، ورجل نبيل الطبقة يستغوى الرعناء وآخر من الطبقة العاملة ولكنه النبيل حقيقة فى حسه وصنيعه على السواء . لكم يغرك البصر عن البصر بالناس ! أكان الناظر إليها — هى — يحذر تلك الرغبات الحسية التى تؤرقها ؟

إنه فى السنة التى أخذت فيها ابنتها تجمع الفراشات أصيبت منطقتهم بوباء خطير من خنفس - مايو [١] . كان الأطفال يجنون لمرأى الخنفس ويسحقونه من غير رحمة . لقد رأت فى ذلك الحين رجلا كان ينزع أجنحة خنفساء — مايو ثم يلتهم الجسد . إنها قد ولدت فى شهر مايو ، وفى مايو كان أيضاً زواجها . ولما انقضت ثلاثة أيام من شهر العسل كتبت خطاباً إلى أهلها تتحدث فيه عن سعادتها — وكان ذلك أبعد الأمور عن الحقيقة .

إنها فى الأمسية التى جاءها الحلم فى أعقابها كانت تنبش فى رسائلها القديمة ، وقرأت على ذويها بعضاً كان منه الجدى وكان منه ما يضحك . وكان بين ما قرأته خطاب مُسل جدا جدا ، كتبه إليها مدرس بيانو غازلها أيام عذرها ورسالة أخرى كتبها معجب نبيل الطبقة [٢] .

إنها تؤنب نفسها لأن إحدى بناتها قد عثرت على كتاب لا يليق من كتب موباسان [٣] .

---

(١) [Maikäfer ، نوع من الخنفس ، ترجمته الصحيحة هى الجعل أو الخنفس الأوروبى . ولكننا آثرنا التزام الترجمة الحرفية فى هذا الموضع تسهيلا لمتابعة المستدعيات .]

(٢) ذلك كان الباعث الحقيقى على الحلم .

(٣) ونذكر على سبيل التكلة : هذه الكتب سم للفتيات . والحالمة أيضاً قد انغمست فى هذه الكتب وهى فتاة .

إن الزرنيخ الذى سألتها إياه فتاتها يذكرها بحبوب الزرنيخ التى أعادت إلى الدوق دى مورا قوة الشباب فى « النابات »[١] .

وأما « إطلاق الحرية » فيذكرها بتلك الفقرة من الناى الساحر :

« الحب لا أدرى كيف أرغمك عليه ،

وأما الحرية فلن أعطيك إياها . »[٢]

و « خنفس — مايو » يذكرها أيضاً بقول كاتخن[٣] :

« لأنت تهيم بى مثل هيام الخنفساء . »[٤]

وبين هذا كله يجىء تانهويزر [لقاجنر] : « أما وقد حركتك هذه اللذة الخبيثة . »[٥]

إنها تعيش فى هيلة وشغل دائمين من أجل زوجها الغائب . والخوف من أن يصيبه مكروه فى ترحاله يعرب عن نفسه فيما يأتيها فى خلال النهار من شتى التخييلات . وقد كانت رأت منذ زمن قريب — فى خلال التحليل — فكرة من أفكارها اللاشعورية فحواها الشكوى من « شيخوخة » زوجها . وربما كنا نحذر على أحسن وجه فكرة الرغبة التى يخفيها هذا الحلم لو ذكرت أن الحالمة قد روعت منذ بضعة أيام إذ جاءتها وسط مشاغلها جملة وضعت فى صيغة الأمر ووجهت إلى زوجها ، وهى « اشنق نفسك ! » ثم تبين أنها قد قرأت فى موضع ما — قبل ذلك بساعات — أن الشنق يحدث انتصاباً شديدا . فالرغبة فى هذا الانتصاب هى التى بثقت من خلال الكف متقنعة بهذا القناع

(١) [لقب هندى دخل اللغة الفرنسية ، أطلقه ألفونس دوديه على أحد أشخاص رواية له معروفة بهذا الإسم : Le Nabab . وقد جاء فى هذه الرواية أن الدوق دى مورا كانت له فى شيخوخته علاقة غرامية مستترة وأن طبيبه الإرلندى الدكتور جنكنز كان يعطيه حبوبا مسماة " لآلئ جنكنز " بقصد تقوية الباه ، ثم عرف الطبيب أن معشوقة الدوق هى المرأة التى يحبها هو ، فجن جنونه ودس السم للدوق فى هذه الحبوب .]

(٢) [من سارا ستورو إلى پامينا فى ختام الفصل الأول من " الناى الساحر " لموزار .]

(٣) [فى المشهد الثانى من الفصل الرابع من مسرحية Katche von Heilbronn : المعنونة von Kleist] واتجه خاطر الحالمة بعد ذلك إلى Penthesilea الشاعر عينه ، وإلى فكرة القسوة على العاشق .

(٤) [أى هياما شديدا .]

(٥) [فى الفصل الثالث حين يروى تانهويزر لڤولفرام كيف ذهب إلى روما ليسأل الغفران لأنه — وهو الفارس المسيحى — كان قد شاطر ڤينوس الآلهة الوثنية الملذات ، وكيف أجابه البابا أنه وقد شارك فى هذه اللذة الخبيثة فلن يكون له غفران . والبيت يرد هنا محرفا عن الأصل تحريفا خفيفا .]

المروع . وقولها : « اشنق نفسك ! » يعدل قولها : « أحصل على أن تنتصب أيا كان الثمن ! » وهنا تجد موضعها المناسب حبوب الدكتور جنكنز — حبوب الزرنيخ فى النابات . ولكن مريضتى كانت تعلم أيضاً أن أشد مقويات الباه — وهى الذراريح (وتعرف عادة باسم الذباب الأسبانى [1]) — تصنع من الجعل المسحوق فإلى . هذا المعنى يهدف الجزء الرئيس من محتوى الحلم .

فأما فتح النوافذ وإغلاقها فكان من أسباب الخلاف الدائمة بينها وبين زوجها ؛ فهى تحب النوم والهواء طلق ولكن زوجها يخشاه . وأما الإعياء فهو العرض الرئيس الذى تشكو منه هذه الأيام .

لقد أبرزت وأنا أسرد هذه الأحلام الثلاثة المواضع التى يعاود فيها أحد عناصر الحلم الظهور بين أفكاره لكى أبين بذلك تعدد العلائق التى تتشعب من هذا العنصر . ولكن ليس بين هذه الأحلام حلم مضينا فى تفسيره حتى النهاية ، ولذلك ربما كان من الأفيد أن نتناول حلماً أوردنا تحليله مفصلا لكى نوضح به كيف يحتم محتوى الحلم تحتيما مضاعفاً . ولهذا الغرض اختار حلم حقنة إرما . وسيسهل علينا أن نرى فى هذا المثال أن التكثيف يستخدم أكثر من وسيلة فى تكوين الحلم .

إن الشخص الرئيس فى محتوى الحلم هو مريضتى إرما التى تظهر فى الحلم بالملامح التى أعرفها لها فى حياة اليقظة والتى تمثل بذلك شخصها ذاته . ولكن الوضع الذى كنت أفحصها فيه بجانب النافذة كان متخذا من ذكرى شخص آخر ، وأعنى به تلك السيدة التى كنت أود استبدالها بمريضتى — كما تبين من أفكار الحلم . وإرما من حيث ما يظهر عندها من غشاء دفترى يذكرنى بقلق من أجل ابنتى الكبرى تمثل هذه الابنة ، وهذه بنوبتها تخفى وراءها — بجامع الاشتراك فى الاسم — شخص المريضة التى ماتت من جراء التسمم . ولا ينى شخص إرما عن أن يتغير مدلوله فى مستأنف سياق الحلم (دون أن تتغير مع ذلك صورتها المرئية فى الحلم) . فهى تصير الطفل الذى نفحصه فى قسم الأمراض العصبية بمستشفى أمراض الأطفال فحصا تجلى فى خلاله ما بين صديقى [أوتو وليوبولد] من التباين فى المواهب . وكان من البين أن طفلتى الصغيرة قد كانت حلقه الوصل فى هذه الصيرورة . وإرما أيضاً تومئ بممانعتها فى أن تفتح فمها إلى مريضة

(١) [ويقال بالعربية : الذباب الهندى .]

أخرى قمت بفحصها مرة ، وتومئ كذلك — لذات العلاقة — إلى زوجى . وأنا بعد هذا كله قد ضمنت التغييرات المرضية التى اكتشفتها فى حلقها إشارات تذهب إلى فريق بأكمله من أشخاص آخرين .

كل هؤلاء الأشخاص الذين ألتقى بهم وأنا أتابع « إرما » لا يظهرون فى الحلم بأشكالهم الجسمية ، بل يختبئون وراء شخص الحلم « إرما » التى تستحيل بذلك إلى صورة جمعية اجتمعت فيها — والحق يقال — شتى الملامح المتناقضة . أى أن إرما قد صارت تنوب عن هؤلاء الأشخاص الآخرين الذين ضُحى بهم من أجل التكثيف لأننى مررت إليها — لمحة فلمحة — كل ما يذكرنى بهؤلاء الأشخاص .

وهناك طريقة أخرى أستطيع بوساطتها أن أركب شخصاً جَمْعِيا من أجل أغراض التكثيف الحلمى ، وذلك حين أمزج الملامح الحقيقية لشخصين أو أكثر فى صورة موحدة : على هذا النحو ركب شخص الدكتور م . فى حلم إرما ، فهو يحمل اسم الدكتور م . ويتحدث مثله ويعمل مثله ولكن خصائصه الجسمية ونوع مرضه كانت لشخص آخر هو أخى . ولم يكن الحتم مضاعفاً سوى فى لمحة واحدة فى سيماهما — وأعنى بها شحوب الوجه ؛ فهذا الشحوب كان فى الحقيقة مشتركاً بينهما . ونجد مثل هذا الشخص المزيج فى حلم « الدكتور ر . هو عمى »، غير أن صورة الحلم قد ركبت هنا بطريقة مختلفة : فأنا لم أمزج ملامح لأحدهما بملامح من الآخر مختزلا فى أثناء ذلك الصورة المنطبعة فى الذاكرة عن كل منهما بأن أحرف سائر ملامحه ، بل قد اتبعت طريقة جالتون فى إحداث الصور العائلية ، أى أننى أسقطت صورتين كلا على الأخرى بحيث تبرز الملامح المشتركة بينهما بروزا قوياً فى حين تبطل الملامح غير المتوائمة بعضها بعضاً ويغمض ظهورها فى الصورة . وهكذا تبرز اللحية الشقراء فى حلم عمى مثل سمة مقواة فى وجه ينتسب إلى شخصين ، ولهذا جاء ممسوحاً . هذا كما انطوت اللحية على إشارة إلى والدى وإلى من طريق فكرة المشيب .

إن تكوين أشخاص الجمع والأشخاص المزيجة أحد الوسائل الرئيسة التى يتبعها الحلم فى التكثيف . وستسنح لى عاجلا فرصة التحدث عن ذلك فى سياق مختلف .

وكانت فكرة « الدستاريا » فى حلم حقنة إرما محتمة أيضاً حتما مضاعفاً : أولا من حيث التجانس فى الجرس بينها وبين « دفتريا » ، وثانياً من حيث صلتها بالمريض الذى

أرسلته إلى الشرق والذى لم يعرف أحد وجود الهستريا عنده .

ومثال آخر حرى بالاهتمام من أمثلة التكثيف فى هذا الحلم هو ذكر « البروپيلين ». فنحن لا نجد بين أفكار الحلم « پروپيلين » بل « آميل » . وقد يظن المرء أن ما وقع فى هذا الموضع من تكوين الحلم إنما هو نقل وحسب . وذلك حق ، بيد أن هذا النقل كان يخدم أغراض التكثيف ، كما يثبت من تلك التكملة التى أضيفها إلى تحليل الحلم : عندما تمهلت عند كلمة « پروپيلين » برهة انتبهت إلى الجناس بينها وبين كلمة « پروپيلاين » . ولكن أثينا ليست البلد الوحيد الذى ينفرد بوجود « پروپيلاين » فيه ، بل قد حوت ميونيخ نظيره [1] . ولقد ذهبت إلى ميونيخ قبل هذا الحلم بعام أزور هناك صديقاً ألم به إذ ذاك مرض خطير — وهو هذا الصديق الذى لمح إليه الحلم تلميحاً لا لبس فيه بوساطة كلمة « تريمتيلامين » التى أعقبت « پروپيلين » مباشرة .

إننى لن ألح على هذا الوضع العجيب ، وأعنى به ما نجده هنا — كما فى عدا ذلك من المواضع فى تحليل الأحلام — من أن مستدعيات متفاوتة القيمة أشد التفاوت تستخدم فى إقامة الروابط بين الأفكار كما لم يكن بينها مثل هذا التفاوت ، وسأسلم نفسى لهذا الإغراء الذى يدعونى إلى أن أصور فيما يشبه الرسم البيانى تلك العملية التى استبدل بها البروپيلين فى محتوى الحلم بالآميل الذى فى أفكاره .

إننا نجد — من جانب — طائفة الأفكار المتصلة بصديقى أوتو الذى لا يفهمنى ولا يقرنى والذى أهدى إلى شراباً له نكهة الآميل ، ونجد — من جانب آخر — طائفة أخرى ارتبطت بالأولى من طريق التضاد ، تلك هى طائفة صديقى البرلينى [ڤيلهلم فليس] الذى يفهمنى ويقرنى والذى أدين له بمعلومات جمة القيمة تتصل — بين ما تتصل به — بكيمياء العمليات الجنسية .

ولقد حددت المناسبات التى بعثت على الحلم حديثاً وكانت حوافزه الحقيقية أى أفكار من مجموعة أوتو كان ينبغى أن تجذب انتباهى بنوع خاص ، وكان الآميل بين هذه العناصر المختارة التى كان مقدراً أن تظهر فى محتوى الحلم . وأما المجموعة الحافلة الأخرى ، مجموعة « ڤيلهلم » فقد بعث فيها الحياة على التحديد من أجل التضاد الذى بينها وبين مجموعة أوتو ومنها أبرزت تلك العناصر التى تتناغم مع العناصر المستثارة من مجموعة أوتو . نعم ، فأنا

(١) [بهو للاحتفالات فى ميونخ على غرار بهو الآكروبول فى أثينا .]

فى خلال هذا الحلم بأسره أستعيذ من شخص يسخطنى بآخر أقابله به وفق مشتهاى ، وأنا أستدعى من الصديق كل ما يظهرنى على الخصم — نقطة فنقطة . وهكذا كان أن أثار الآميل الذى ينتمى إلى مجموعة أوتو ذكريات من مجال الكيمياء من المجموعة الثانية وكان أن نجح التريميلاين الذى كان يلقى التأييد من جهات متعددة فى أن يصل إلى محتوى الحلم. ولقد كان من الممكن أن ترد آميل فى الحلم من غير تغيير لولا تأثير مجموعة « ڤيلهلم » ؛ فقبضة الذكريات التى يصدق عليها هذا الاسم قد جرى استكشافها جميعاً من أجل العثور على عنصر يضاعف تحتم « آميل »، وكانت « پروپيلين » سهلة الاستدعاء من آميل ، ثم جاءت ميونيخ بمبناها — البروپيلاين — جاءت من مجموعة « ڤيلهلم » تلاقى پروپيلين هذه . فهاتان الدائرتان الفكريتان قد التقيتا جميعاً فى « پروپيلين — پروپيلاين » ، وهكذا استطاع هذا العنصر الأوسط أن ينفذ إلى محتوى الحلم كأنما كان ذلك بفعل من أفعال المساومة. فههنا قد صكت وحدة مشتركة متوسطة تقبل أكثر من حتم . وهكذا نلمس لمس اليد أن الحتم المضاعف يسهل النفاذ إلى محتوى الحلم. فمن أجل خلق مثل هذه الوحدة الوسطى نقل الانتباه دون ما تردد من الفكرة المستهدفة حقيقة إلى مستدعى آخر قريب منها .

لقد مكنتنا دراسة حلم حقنة إرما من أن ننفذ ببصرنا بعض الشىء إلى عمليات التكثيف التى تقع عند تكوين الحلم واستطعنا أن نرى بعض تفاصيل التكثيف مثل اختيار العناصر التى يتكرر ورودها فى أفكار الحلم وخلق الوحدات الجديدة (كالأشخاص الجمعية والصور المزيجة) وتكوين الحدود المتوسطة المشتركة . وأما الغاية التى يخدمها التكثيف والعوامل التى تستلزمه فأسئلة لن نثيرها إلا حين نعرض للعمليات النفسية التى تعمل فى تكوين الحلم لكى ندرسها فى جملتها [القسم هـ من الفصل السابع] . ويكفينا الآن أن نلحظ أن التكثيف الحلمى خاصة ملحوظة من خصائص العلاقة بين أفكار الحلم ومحتواه .

ولكن عمل التكثيف الذى يقوم به الحلم إنما يتجلى فى أوضح صوره حين يتناول الألفاظ والأسماء . فالحلم بوجه عام كثيراً ما يعالج الألفاظ كما لو كانت أشياء عيانية، وهو إذن يجرى بينها من المزج مثل ما يجريه بين صور الأشياء العيانية . وتطالعنا الأحلام التى من هذا القبيل بأطرف المبتكرات اللغوية وأغربها[1] .

---

(١) [وهنا يتوقع القارئ بالطبع أن تكون الأمثلة على ذلك غير قابلة للترجمة ، كما سيرى .]

١) أرسل إلى أحد الزملاء مقالا كتبه ، وكان من رأيي أنه غالى فى تقدير أهمية كشف فيزيولوجى حديث وأنه — على الأخص — قد عالج الموضوع بعبارات طنانة . فحلمت فى الليلة التالية بجملة كان من الجلى أنها تشير إلى هذه المعالجة : « يا له من أسلوب نوركدالى ! » لقد واجهت بادئ الأمر صعوبة فى حل هذه الكلمة . صحيح أنه لم يكن ثمت شك فى أنها قد ركبت بوساطة تحريف ماجن لنعتين [ألمانيين] من النعوت المطلقة : كولوسال [جسيم] وپيراميدال [هرمى] ، بيد أنه لم يكن من السهل أن أقول ما مصدرها . وأخيراً تبينت أن المسخ قد ركب من هذين الاسمين : نورا وإكدال — وهما شخصيتان فى مسرحيتين معروفتين من مسرحيات إبسن[1] ، وقد كنت قرأت فى إحدى الصحف مقالا عن إبسن كتبه هذا المؤلف الذى كنت أنقد عمله الأخير .

٢) وروت لى إحدى مريضاتى حلماً قصيراً ورد فيه مركب لفظى لا معنى له : كانت فى حفل رينى مع زوجها ثم قالت : سوف ينتهى ذلك إلى "Maistollmütz" شامل . وكانت الحالمة تشعر فى الحلم شعوراً مبهما بأن ذلك صنف من الحلوى يصنع من دقيق الذرة ، نوع من الولائق . وقد قسم التحليل الكلمة إلى : Mais [ذرة] — toll [مجنون] mannstoll [مجنونة بالرجال] Olmütz [مدينة فى موراڤيا] ، وكلها أجزاء تبين أنها كانت آثاراً تبقت من حديث جرى حول المائدة بينها وبين أقاربها . وكانت كلمة Mais تتضمن — عدا الإشارة إلى المعرض اليوبيلى الذى افتتح أخيراً[2] — الكلمات الآتية : Meissen (شكل من الصينى المصنوع بمدينة مايسن [فى ساكس] على صورة الطائر) ، Miss [وكانت المربية الإنجليزية التى تعمل عند أقربائها قد سافرت إذ ذاك إلى أولوتس] ، mies (وهى كلمة يهودية عامية تستخدم على سبيل المزاح بمعنى « مقرف ») . وكانت تتشعب من كل مقطع من هذا المخلوط اللغوى سلسلة طويلة من الخواطر والمستدعيات .

٣) شاب قرع أحد معارفه جرس بابه فى ساعة متأخرة من الليل ليترك له بطاقة زيارة فحلم فى تلك الليلة بالحلم الآتى : ظل رجل يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل لكى

---

(١) [" نورا " فى " بيت الدمية " و " إكدال " فى " البطة البرية ".]

(٢) [احتفالا بيوبيل الإمبراطور فرانسو جوزيف عام ١٨٩٨ .]

يصلح تليفون المنزل . وظل الرنين مستمراً بعد أن انصرف الرجل ولكنه لم يكن رنيناً موصولا بل دقات منفصلة . يذهب الخادم لكى يبحث عن الرجل مرة ثانية ، فيقول له هذا الرجل : إن لمن العجيب أن يقف فى أمر كهذا أناس هم فى العادة tutelrein .

إننا نرى أن المناسبة غير الهامة التى بعثت على هذا الحلم لا تفسر سوى عنصر واحد من عناصره . وإنما اكتسبت هذه المناسبة بعض الأهمية حين وصل الحالم بينها وبين خبرة سابقة من خبراته تخلو هى الأخرى من الخطر ولكن خيال الحالم قد خلع عليها معنى بديلا : ذلك أن الحالم حين كان صبياً يعيش مع والده قد قلب مرة كوبا من الماء على الأرض وهو نصف نائم . وكان من أثر ذلك أن ابتل سلك التليفون المنزلى وأزعج رنينه المتصل نوم والده. وإذ كان الرنين المتصل يوافق البلل فالدقات المنفصلة قد استخدمت فى تصوير قطرات تسقط . وأما كلمة "tutelrein" فقد أمكن تحليلها على أنحاء ثلاثة ، فأدت بذلك إلى ثلاثة موضوعات متمثلة فى أفكار الحلم : "tutel" — وهو لفظ قانونى بمعنى الوصاية ، ثم "tutel" (وربما كتب "Tuttell" —) وهو اسم يطلقه العوام على صدر المرأة ، وأما الجزء الأخير من الكلمة ، "rein" ، فإنه إذا ركب مع الجزء الأول من الكلمة المركبة "Zimmertelegraph" [التليفون المنزلى] كون "Zimmerrein" [النظافة المنزلية] — وهو ما يذكر تذكيراً قوياً ببلل أرض الغرفة ثم هو فوق ذلك لفظ يجانس فى الجرمن اسم أحد أقرباء الحالم[1] .

---

(١) إننا نستخدم فى اليقظة هذه الطريقة فى تحليل المقاطع وتركيبها (وهى كيمياء مقطعية بمعنى الكلمة) ، وذلك فى تكوين عدد كبير من النكات . وهاك مثالا على ذلك : « كيف تحصل على الفضة بأرخص طريقة ؟ تذهب فى طريق اصطفت على جانبيه Silberpappeln [أى أشجار الحور ، ولكن الكلمة الألمانية قد ركبت من لفظين الأول معناه الفضة والثانى له معنيان : الحور والحفيف] ثم تأمر بالصمت ، فينقطع الحفيف وتبقى الفضة ». ولقد اعترض على أول قارئ قرأ كتابى ونقده [المقصود هنا هو فيلهلم فليس ، أنظر الخطاب ١١٨ فى فرويد ١٩٥٠أ] اعتراضا أرجح أن القراء اللاحقين سوف يرددونه ، وهو " أن الحلم يبدو بارع النكتة فى كثير من الأحايين". وهذا القول صحيح ما دام المقصود هو الحالم ، ولا يصبح نقدا إلا إذا مد إلى مفسر الحلم . وما أظن أن « نكات » من المحمولات التى أملك كبير حق فى الاتصاف بها فى حياة اليقظة ، فإذا كانت أحلامى تبدو « نكاتة » فالسر فى ذلك لا يعود إلى شخصى بل إلى الشروط السيكولوجية الخاصة التى يخضع لها تكوين الحلم — وهو أمر يتصل أوثق اتصال بنظرية النكتة والمضحك. فالحلم إنما يصير نكاتا لأن الطريق المباشر والأسهل إلى الإعراب عن أفكاره قد سد فى وجهه ، أى أنه مكره على أن يكون كذلك . وفى وسع القارئ أن يقتنع بأن أحلام مرضاى تحوى مثل ما تحويه أحلامى من النكات ، بل تزيد عليها . ومع هذا فقد دعانى هذا الاعتراض إلى المقارنة بين طرائق النكتة وعمل الحلم ، مقارنة يجد القارئ حاصلها فى كتاب نشرته عن النكتة وعلاقتها باللاشعور (١٩٠٥ج) .

٤) حلمت حلماً طويلا بعض الشيء مشوشاً كان يدور — فيما يبدو — حول رحلة بحرية، وتراءى لى فيه أننا سنرسو أولا فى ميناء اسمه Hearsing ثم فى آخر يليه اسمه Fliess وهذا الاسم الأخير هو اسم صديق القاطن فى مدينة ب . [برلين] ، والذى كان هدفاً لأسفارى مراراً . وأما Hearsing فمركب اشتق جزء منه من أسماء الأماكن الواقعة فى ضواحى ڤيينا ، وهى أسماء كثيرة ما تنتهى بالمقطع ing : Hietzing، Liesing، Mödling، (والاسم القديم لهذه المدينة هو Medelitz من [اللاتينى] mea deliciae أى "meine Freud" [أى « سرورى » ، و « سرور » هو اسم فرويد فى الألمانية]) . وأما الجزء الآخر فمشتق من الكلمة الإنجليزية Hearsay بمعنى شائعة ، وهو ما يشير إلى النم ويثبت علاقة الحلم بالمنبه غير الهام المتخلف من النهار ، وأعنى به قصيدة قرأتها فى مجلة "Fliegenden Blättern" [« الصحائف الطائرة »] عن قزم نمام يدعى "Sagter Hatergesagt" [« قيل وقال »] . فإذا أضفنا المقطع "ing" إلى الاسم Fliess ، خرج لنا "Vlissingen"[1] — وهو حقيقة اسم الميناء الذى يرسو فيه أخى حين يقبل من إنجلترا لزيارتنا . ولكن المرادف الإنجليزى لكلمة Vlissingen هو Flushing ، وهو ما يعنى حمرة الخجل ويذكرنى بالمرضى الذين أعالجهم من « مخافة الخجل » ويذكرنى كذلك بمقال حديث — أثار بعض السخط فى نفسى — نشره بشترف عن هذا العصاب .

٥) وحلمت فى مرة أخرى حلماً تركب من جزئين منفصلين : الجزء الأول كلمة علقت واضحة فى ذاكرتى هى كلمة "Autodidasker" ، وأما الجزء الثانى فكان يعيد — إعادة أمنية — تخييلا قصيراً ، لا ضرر فيه ، طاف بذهنى منذ بضعة أيام . وكان مؤدى هذا التخييل أننى سأقول للأستاذ ن . فى أول فرصة أراه فيها : « إن المريض الذى كنت استشرتك فى أمره أخيراً يعانى بالفعل عصاباً ، على ما خمنته أنت » . ولا بد إذن لهذه الطرفة اللفظية "Autodidasker" من أن تحقق شرطين : الأول هو أن تحمل — أو أن تصور — معنى مضغوطاً ، والثانى هو أن يكون لهذا المعنى رباط مقبول يربط بينه وبين تلك النية المكررة فى الحلم بعد اليقظة، وأعنى بها نية تقديم هاته الترضية للأستاذ ن .

لننظر إذن فى كلمة "Autodidasker" هذه : إن من السهل أن نقسمها إلى

---

(١) [الحرف V ينطق فى الألمانية فاء .]

Autor [مؤلف] و Autodidact [متعلم عصامى] و Lasker — وهو اسم يرتبط فى الذهن باسم Lasalle[1] . وتسوقنى أولى هذه الكلمات إلى مناسبة الحلم — وهى مناسبة لها مغزاها فى هذه المرة —: فقد كنت أعطيت زوجى عدة من المجلدات لمؤلف معروف كان صديقاً لأخى وكان — على ما علمت — من أبناء البلد الذى ولدت فيه (ى. ى . دافيد) . وفى ذات مساء حدثتنى زوجى عن الأثر العميق الذى تركته فى نفسها قصة فاجعة قرأتها فى أحد مجلدات دافيد عن رجل موهوب ساء مآله. وعرج بنا الحديث إلى المواهب التى نرى آماراتها فى أطفالنا. وهنا أعربت زوجى — وهى ما تزال متأثرة بما قرأت — عن تخوفها فيما يتصل بالأطفال، فرفهت عنها ملاحظاً أن تلك على التحقيق هى المخاطر التى يمكن أن نتلافاها بالتنشئة الحسنة. ولكننى واصلت تلك الخواطر فى خلال الليل ، فأخذت عن زوجى مخاوفها ونسجت حول هذه المخاوف أشياء أخرى من كل صنف . وكان لهذا المؤلف رأى فى الزواج أفضى به إلى أخى ، ولقد ساق هذا الرأى خواطرى فى طريق جانبى يمكن أن تبلغ منه إلى التصور فى الحلم : هذا الطريق قد أدى إلى برسلاو حيث تزوجت — وأقامت — سيدة كان تعقد بينها وبيننا صداقة متينة . ووجد الخوف من أن تضيع الحياة من أجل امرأة — هذا الخوف الذى كان مدار أفكارى فى ذلك الحلم — مثالين فى برسلاو مكنانى من أن أصور فى وقت واحد كلتا الطريقتين اللتين ينفذ بهما هذا التأثير المنحوس : لاسكر ولاسال[2] . هذه الخواطر تتخلص جميعها فى : « ابحث عن المرأة » ، وهذه العبارة تقودنى بدورها — وقد أخذتها بمعنى مختلف — إلى أخى الذى لم يتزوج بعد ، واسمه الكساندر . إنى الحظ الآن أن Alex يكاد يجانس لاسكر مقلوباً وأن هذا العامل لا بد قد شارك فى التعريج بأفكارى جهة برسلاو .

ولكن هذا اللعب بالأسماء والمقاطع الذى كنت أسترسل فيه ههنا كان يضمر بعد ذلك معنى آخر ؛ فهو يعرب عن رغبتى فى أن أرى أخى ينعم بحياة عائلية سعيدة ، وكان ذلك من الطريق الآتية : نعلم أن زولا قد وصف نفسه ووصف حياته العائلية فى بعض

---

(١) [ولد فرديناند لاسال مؤسس الحركة الاشتراكية الديمقراطية فى ألمانيا بمدينة برسلاو عام ١٨٢٥ ومات عام ١٨٦٤ . وولد إدوارد لاسكر (١٨٢٩ — ١٨٨٤) فى ياروتشين على مقربة من برسلاو ، وكان أحد مؤسسى حزب الوطنيين الأحرار فى ألمانيا . وكلاهما كان من أصل يهودى .]

(٢) مات لاسكر من شلل تدريجى ، أى من جراء عدوى نقلتها إليه امرأة (السفلس) ، وأما لاسال فقد مات — كما نعلم — فى مبارزة من أجل امرأة .

مشاهد الرواية التى ألفها عن حياة فنان "L'oeuvre" — وهى رواية لا بد أن محتواها قد قرب بينها وبين أفكار هذا الحلم . وهو يظهر فى هذه الرواية باسم ساندوز ، وأغلب الظن أنه قد توصل إلى تعديل اسمه على هذا النحو من الطريق الآتية : إذا كتبنا اسم زولا معكوساً (وهو الشىء الذى يصنعه الأطفال عادة فى ولع كبير) خرج لنا آلوز . ولكن لا شك فى أن ذلك كان يكون تنكراً غير كاف . وعلى ذلك رفع زولا آل — وهو المقطع الأول من آلكساندر — ووضع مكانه ساند — وهو المقطع الثالث من هذا الاسم عينه — وبذلك خرج ساندوز . وعلى نحو جد شبيه بذلك أنشأت أيضاً كلمتى « أوتوديداسكر » .

فأما التخييل الذى كان مؤداه أنى أقول للدكتور ن : إن المريض الذى اشتركنا فى فحصه إنما كان يعانى عصاباً — فقد جاء فى الحلم على هذا النحو : أخذت قبل أن يحين موعد أجازتى السنوية بوقت قصير فى العناية بمريض حارت فى أمره قدرتى على التشخيص ؛ فقد كانت حاله توحى أن ثمت مرضا عضويا خطيرا — قد يكون فساداً فى النخاع الشوكى — ولكن لم يكن فى المستطاع التثبت من ذلك . وكان القول بأن الحالة حالة عصاب مغريا وكان ذلك كفيلا أن ينهى كل صعوبة ، لولا أن المريض قد أنكر التاريخ الجنسى الذى لا أسلم بدونه بوجود العصاب أشد الإنكار . ولم أجد — وأنا فى هذه الربكة — إلا أن أستعين بالطبيب الذى أجله رجلا كما لا أجل رجلا سواه (يشاركنى فى ذلك الكثيرون عداى) وأذعن لرأيه طبيباً أسرع إذعان . واستمع الأستاذ إلى شكوكى وأقرنى عليها ثم ذكر رأيه : « امض فى ملاحظة الرجل ، فلا بد أن الأمر عصاب . » وكنت أعلم أنه لا يشاركنى آرائى فى علية الأعصبة ، فلم أفاتحه بالحجة التى تدعونى إلى رأى مخالف ، بيد أننى لم أخف عنه تشككى . ثم بعد ذلك ببضعة أيام أبلغت المريض أننى لا أعرف ماذا أصنع معه ونصحت له بالتوجه إلى طبيب آخر . ولشد ما دهشت عندئذ إذ طفق الرجل يرجو منى معذرته لكذبه على ، قائلا : إنه كان خجلا من نفسه خجلا شديداً ، ثم كاشفنى بهذا الطرف من العلية الجنسية الذى كنت أتوقعه على التحديد والذى لم أستطع بدونه القول بوجود العصاب . لقد فرج ذلك عنى ولكنه فى الوقت عينه قد أذلنى ؛ فقد وجب على أن أسلم بأن ناصحى — إذ لم يضلله اعتبار التاريخ الجنسى — قد أصاب فى رأيه أكثر مما أصبت . وكان أنى عقدت العزم على أن

أخبره بذلك حين أراه مرة ثانية : أن أخبره بأنه كان على صواب وأنى كنت على خطأ .

وهذا على التحقيق هو ما أصنع فى الحلم . ولكن ما هى هذه الرغبة التى تتحقق حين أعترف بأنى كنت على خطأ ؟ إنها الرغبة فى هذا الخطأ بالذات : لقد كنت أود لو أخطأت فى مخاوفى ، أو — بعبارة أصح — لوقد أخطأت زوجى فى هاته المخاوف التى صارت فى الحلم مخاوفى . ثم إن الموضوع الذى يدور من حوله الصواب والخطأ فى الحلم لم يكن بعيداً كل البعد عن المسائل التى كانت تشغلنى فى أفكار الحلم حقيقة ؛ فالأذى الذى تسببه امرأة أو تسببه — بعبارة أصح — الحياة الجنسية قد يكون كذلك عضوياً وقد يكون وظيفياً : شلل زهرى أو عصاب ، وفى هذه المقولة الأخيرة نستطيع أن ندرج من طريق غير مباشر نوع الموت الذى لاقاه لاسال .

ولكن الأستاذ ن . لم يأخذ بنصيب فى هذا الحلم المتماسك التركيب والذى يصبح شفافاً كل الشفافية حين نعنى بتفسيره من أجل تلك المماثلة ومن أجل رغبتى فى أن أكون مخطئاً ، ولا من أجل الروابط العارضة التى تربطه بمدينة برسلاو وبأسرة الصديقة التى تزوجت هناك ، بل قد جاءت مشاركته — فوق ذلك — من أجل هذه الواقعة الصغيرة التى اختتم بها تشاورنا : فهو بعد أن أدلى برأيه الذى ذكرته وفرغ بذلك من مهمته الطبية تحول باهتمامه إلى الأمور الشخصية فسألنى : « ما عدد أطفالك الآن ؟ » — « ستة » — وهنا أتى بحركة تنم عن الإعجاب والقلق ثم قال : « بنات أم صبية » ؟ — « ثلاثة وثلاث ، وهم فخرى وغناى » — « حسنا ، ولكن خذ حذرك ! إن الأمور تجرى على ما يرام فيما يتعلق بالبنات ، وأما الصبية فتجلب تربيتهم المتاعب فيما بعد » ، فاحتججت بأن أبنائى قد ظلوا حتى اليوم طيعين على أحسن وجه . ومن الواضح أن هذا التشخيص الثانى فيما يتصل بمستقبل أبنائى لم يرقنى إلا بقدر ما راقنى سابقه عن المريض الذى لا يشكو إلا عصاباً . فهذان الانطباعان قد ارتبطا من طريق التلازم ، أى لأننى خبرتهما الواحد عقب الآخر ، وأنا حين أتناول قصة العصاب فأدرجها فى حلمى أحلها محل حديثنا عن عن التربية — هذا الحديث الذى كان لا شك مرتبطاً أوثق الارتباط بأفكار الحلم من حيث يقرب كل هذا القرب من المخاوف التى أعربت عنها زوجى أخيراً . وهكذا نرى أنه حتى خوفى من أن يكون ن. محقاً فيما تحدث به من صعوبة تنشئة الصبيان قد وجد منفذا إلى محتوى الحلم ، من حيث كان يستتر وراء الصورة التى صورت رغبتى فى أن أكون

مخطئاً فى مجاراة أمثال هذه المخاوف . وذات التخييل قد أفاد — كما هو — فى تصوير كلا الاحتمالين المتقابلين .

٦) نقلا عن مارسينوفسكى [١٩١١] : « خبرت اليوم وأنا بين الحلم واليقظة مثالا بديعاً غاية الإبداع على التكثيف الحلمى : فقد استوقفتنى وسط أشتات حلمية لا أكاد أذكرها كلمة رأيتها وقد كتب نصفها وطبع النصف الآخر . كانت الكلمة : 'erzefilisch' [كلمة لا معنى لها] ، وهى قد جاءت فى جملة انزلقت فى ذاكرتى الشعورية مفصولة من كل سياق ومعزولة عزلا تاماً. هذه الجملة هى : « إن ذلك يؤثر فى المشاعر الجنسية تأثيراً 'erzefilisch' . لقد عرفت للوهلة الأولى أن هذه الكلمة لا بد أن تكون فى الحقيقة : 'erzieherisch' [تربوى] ولهذا ظللت أتشكك برهة فيما إذا لم يكن الأجدر أن تكون الكلمة غير المفهومة 'erzifilisch' [بحيث يكون المقطعان الأولان متفقين نطقاً والمقطعين الأولين من الكلمة الدالة على « تربوى » ، وهى الكلمة التى خمن الحالم أن الكلمة المخترعة قد أخذت منها] . وفى هذه الأثناء خطرت لى كلمة 'Syphilis' ، وأخذت أعصر ذهنى — وقد بدأت فى تفسير الحلم وأنا مازلت نصف نائم — سائلا كيف تسنى لهذه الكلمة أن تعرض فى الحلم ، إذ ليست هناك أى علاقة تربط بينى وبين هذا المرض لا من وجهة شخصية ولا من وجهة مهنية. وعندئذ خطرت لى كلمة 'erzehlerisch' [كلمة أخرى لا معنى لها] ففسرت السر فى وجود حرف e الثانى [فى الكلمة المخترعة فى الحلم] ، وذلك بأن ذكرتنى بأن المربية 'Erzieherin' كانت قد سألتنى فى المساء أن أحدثها برأيى فى مشكلة البغاء ، فأعطيتها كتاب هس (عن البغاء) قاصدا من ذلك إلى التأثير فى حياتها الانفعالية — ولم تكن قد نمت نمواً سوياً تماماً — تأثيراً 'erzieherisch' [تربوياً] ، ثم حدثتها بعد ذلك حديثاً طويلا فى هذه المشكلة . وعندئذ اتضح أن كلمة 'Syphilis' لا يجب أخذها بمعناها الحرفى ، بل هى تنوب عن « سم » — فيما يتصل بأمور الحياة الجنسية بالطبع . وهكذا نجد أننا نخرج من ترجمة هذه الكلمة غير المفهومة بجملة منطقية تماماً : لقد كنت أبتغى من هذا الحديث ['Erzählung' ، e = â نطقاً] أن أؤثر فى الحياة الانفعالية لمربيتنا ['Erzieherin'] تأثيراً تربوياً ['erzieherisch'] ولكنى أخشى أن يكون لذلك فعل السم . أى أن 'erzefilisch' قد ركبت من 'erzāh — ثم 'erzieh'.» (١)

(١) [أى أن الكلمة المخترعة فى هذا الحلم erzefilisch قد تضمنت تكثيفا حاذقا ، فهى قد

هذه التركيبات اللغوية الفاسدة للحلم تشبه غاية الشبه تلك التى نعرفها فى البارانويا وإن كانت لا تغيب أيضاً من الهستريا والأفكار القهرية . وإن الألاعيب اللغوية للأطفال الذين يعاملون الكلمات أحياناً معاملة الموضوعات ويبتدعون فوق ذلك لغات جديدة وصوراً نحوية مصطنعة لهى المنبع الذى يصدر عنه هذا كله ، سواء أفى الحلم أم فى الأعصبة النفسية .

إن تحليل الألفاظ التى لا معنى لها يصلح صلاحية خاصة لإظهارنا على ما يحققه عمل الحلم فى مجال التكثيف. وليس للقارئ أن يستنتج من قلة الأمثلة التى ذكرتها أن هذا الضرب من المادة نادر أو لا يعرض للملاحظة إلا نادرا . بل الأصدق هو أن هذه الأمثلة كثيرة الوقوع إلى مدى كبير ولكن توقف تحليل الحلم على العلاج النفسى كان من نتيجته أن أمثلة قليلة العدد جداً هى التى قد لوحظت ورويت وأن التحليلات المروية لهذه الأمثلة لا يدنو فهمها فى العادة إلا للمتخصصين فى دراسة مرضية الأعصبة. ولقد روى الدكتور فون كارپينسكا (١٩١٤) مثالا من هذا النوع احتوى على هذا المركب اللفظى غير المفهوم « svingnum elvi » . وإنه لجدير بنا أن نذكر هذه الحالات التى فيها تظهر فى الحلم كلمة لا تخلو فى ذاتها من المعنى ولكنها قد جردت مع ذلك من معناها الخاص وضمنت معانى متعددة يكون شأن هذه الكلمة منها شأن الكلمة التى « لا معنى لها » . مثال ذلك حلم رواه تاوسك (١٩١٣) عن طفل فى العاشرة من عمره وردت فيه الكلمة "Kategorie" [مقولة] ،وكانت تعنى هنا أعضاء المرأة التناسلية ، كما كان الفعل الذى اشتق من هذه الكلمة "Kategoriereen" يعنى التبول .

وإذا وردت فى الحلم جمل منطوقة متميزة صراحة — من حيث هى كذلك — من الأفكار ، فالقاعدة التى لا تتخلف هى أن الكلمة المنطوقة فى الحلم إنما تستمد من كلمات منطوقة متذكرة فى مادة الحلم. ومنطوق الكلام إما أن يحفظ كما هو أو يصدر معدلا بنقل طفيف. وكثيراً ما يؤلف الكلام فى الحلم من أقوال متنوعة مستمدة من ذاكرة الحالم ، وفى هذه الأثناء يبقى النص هو هو ، ولكن تخلع عليه — إذا أمكن ذلك —

ركبت من الكلمات الآتية (١) erzieherisch: (تربوى) + (٢) Erzieherin (مربية) + (٣) Erzählung (محادثة) + (٤) Syphilis — وهى أهم الكلمات الداخلة فى تكوين الجملة المتضمنة فى أفكار الحلم .]

معان متعددة ، أو معنى يختلف من معناه الأصلى . ولا يندر أن يستخدم الكلام الوارد فى الحلم على سبيل الإشارة إلى الموقف الذى ورد فيه هذا الكلام لا أكثر [١] .

ب

عمل النقل

لا بد أن علاقة ثانية لا تقل فى الراجح أهمية عن التكثيف قد تجلت لنا بينما كنا نجمع الشواهد على هذا الأخير . لقد وسعنا أن نلحظ أن العناصر التى تبرز فى محتوى الحلم باعتبارها مقومات جوهرية له بعيدة كل البعد عن أن يكون لها مثل هذا الشأن فى أفكار الحلم . ونستطيع أن نعكس هذه القضية فنخرج منها بنتيجة تتبعها : إن ما يتضح جلياً أنه المحتوى الجوهرى فى أفكار الحلم لا يتمثل فى الحلم بالضرورة . فللحلم — إن شئت — محور مختلف ، أى أن محتواه ينتظم حول عناصر غير التى تشغل فى أفكاره نقطة المركز . خذ مثلا حلم المبحث النباتى : من الواضح أن مداره كان العنصر « نباتى » وأما فى أفكار الحلم فيتعلق الأمر بالتعقد والنزاع اللذين ينشآن بين الزملاء من جراء التزاماتهم المهنية ، ثم يتعلق بعد ذلك بما ألام عليه من أننى أبذل فى سبيل هواياتى تضحيات تفوق كل ما ينبغى ، ولم يكن العنصر « نباتى » يشغل أدنى محل فى نواة أفكار الحلم هذه ، اللهم إلا أن يكون قد ارتبط بها ارتباطا واهياً على سبيل التضاد من حيث أن علم النبات لم يكن يوماً بين العلوم التى أوثرها . ثم حلم سافو الذى أتاه أحد مرضاى : النقطة الرئيسية فى هذا الحلم هى الصعود والهبوط ، الأعلى والأسفل ، ولكن الحلم يعالج مخاطر العلاقات الجنسية بأشخاص محطوطى القدر ، بحيث يبدو أن عنصراً واحداً من

(١) [١٩٠٩ :] لقد وجدت منذ زمن غير بعيد الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة ، وكان ذلك فى حالة شاب كان يشكو أفكارا قهرية مع احتفاظه بكل وظائفه العقلية — وكانت بعد على نمو كبير — كاملة غير منقوصة : لم تكن الأقوال التى ترد فى أحلام هذا الشاب أقوالا سمعها أو قالها ، بل كانت توافق النص غير المحرف لأفكاره القهرية التى لم تكن تستطيع أن تنفذ إلى شعوره فى اليقظة إلا فى صورة محرفة . [الشاب المعنى هنا هو الذى عرفت حالته بين الحالات الخمس التى نشرها فرويد باسم " الرجل الفأر " (فرويد ١٩٠٩ د) .]

أفكار الحلم هو الذى قد نفذ إلى محتواه ، وإن يكن هذا العنصر قد مُطَّ مطاً لا تناسب فيه . والحال كذلك فى حلم الخنفساوين : فموضوعه هو العلاقة بين الحياة الجنسية والقسوة ، وعامل القسوة يظهر يقينا فى محتوى الحلم ، ولكنه يظهر فى سياق مختلف دون أن يذكر للحياة الجنسية ذكر ، أى منزوعاً من محيطه ، مصوراً — من ثم — فى صورة تنأى به عن الموضوع . كذلك فى حلم عمى حيث كانت اللحية الصفراء هى النقطة الرئيسة : لقد بدت هذه اللحية مجردة من كل معنى يربط بينها وبين رغبة العظمة التى عرفنا فيها لب أفكار الحلم . إن أمثال هذه الأحلام توحى إلى المرء بحق أن « نقلا » قد وقع . وحلم حقنة إرما يبدو إذن مخالفاً لهذه الأمثلة تمام المخالفة ؛ إذ فيه أمكن العناصر المختلفة أن تحتفظ فى خلال تكوين الحلم بالمحل الذى كانت تشغله فى أفكار الحلم . وإن الكشف عن هذه العلاقة الجديدة بين أفكار الحلم ومحتواه — تلك العلاقة المتقلبة غاية التقلب فى اتجاهها أو معناها — لأمر يثير عجبنا للوهلة الأولى . فنحن إذا نظرنا فى عملية نفسية من عمليات الحياة السوية فوجدنا أن فكرة بعينها قد انتخبت من بين الكثيرات غيرها ثم اكتسبت حدة خاصة بالنسبة إلى الشعور ، رأينا فى ذلك عادة دليلا على أن لهذه الفكرة قيمة نفسية عالية بنوع خاص — على أنها تلقى درجة معينة من الاهتمام. ولكننا نرى الآن أن هذه القيمة التى لمختلف العناصر المتضمنة فى أفكار الحلم لا تُسْتَبْقَى فى خلال تكوينه أو لا يحسب لها حساب . فنحن لا نشك أقل شك فى أى عناصر أفكار الحلم تفوق ما عداها قيمة : فحكمنا ينبئنا بذلك إنباء مباشراً . وهذه العناصر الجوهرية المحملة باهتمام شديد قد تعامل عند تكوين الحلم كما لو لم تكن تملك سوى قيمة ضئيلة ، وتحل محلها فى الحلم عناصر أخرى لا نشك فى أنها كانت ذات قيمة ضئيلة فى أفكار الحلم . وفى ذلك ما يوحى للوهلة الأولى أن الشدة النفسية[1] التى لمختلف الأفكار لا يحسب لها حساب على الإطلاق حين يختار الحلم من هذه الأفكار ما يختار ، وإنما الشىء الوحيد الذى يحسب حسابه هو تعدد حتمها تعددا ينقص أو يزيد ، أى أن المرء قد يظن أن ما يظهر فى الحلم من أفكار الحلم ليس خطيرها ، بل مكررها . بيد أن هذا الفرض لن يعيننا كثيراً على فهم تكوين الحلم ؛ فنحن لن نعقل أن عامل الحتم المضاعف

---

(١) علينا أن نفرق بالطبع بين الشدة النفسية أو القيمة أو درجة الأهمية التى لفكرة من الأفكار ، وبين الشدة الحسية ، أى شدة الصورة الماثلة أمامنا .

وعامل القيمة النفسية الخاصة يمكن أن يعملا فى اتجاهين متباينين على اختيار العناصر التى تظهر فى الحلم ، بل الأفكار التى هى أشد أفكار الحلم أهمية سوف تكون يقينا أكثرها أيضاً ترددا ، فمنها — كما من بؤرة — تشع أفكار الحلم المتفرقة . ومع هذا يستطيع الحلم أن يترك تلك العناصر المؤكدة توكيداً شديداً فى ذاتها المؤيدة من جوانب متعددة بغيرها ، وأن يلتقط لمحتواه عناصر أخرى لا تتحقق فيها سوى ثانية هاتين الخاصتين .

ولكى نصل إلى حل هذه الصعوبة سوف نسترشد بانطباع آخر يوحيه أيضاً بحثنا فى الحتم المضاعف لمحتوى الحلم : ربما كان الكثيرون من القراء قد حكموا من تلقاء أنفسهم بأن الحتم المضاعف لعناصر الحلم ليس بالمكتشف الهام لأنه أمر واضح بذاته ؛ فنحن نأخذ فى التحليل ابتداء من عناصر الحلم ثم ندون كل الخواطر التى تستدعيها هذه العناصر ، ولا عجب إذن حين نجد أن هذه العناصر على التحديد قد تكرر ورودها فى المادة الفكرية المكتسبة من هذا الطريق تكراراً خاصاً . ولست أستطيع أن أقبل هذا الاعتراض ، ولكننى أسوق مع ذلك قولا يلوح مشابها له : إن بين الأفكار التى يخرجها التحليل إلى الضوء أفكاراً كثيرة بعيدة بعداً نسبياً عن لب الحلم وتبدو مثل وسائط مصطنعة جعلت لهدف بعينه . وهذا الهدف يسهل تخمينه : فهذه الأفكار على التحقيق هى التى تعقد الصلة بين محتوى الحلم وأفكاره ، صلة كثيراً ما تكون مفروضة ، مفتعلة . ونحن إذا أسقطنا هذه العناصر من التحليل كانت النتيجة فى كثير من الأحايين أن مقومات المحتوى الحلمى لا تفقد حتمها المضاعف وحسب ، بل هى قد تفقد كل حتم كاف بجيئها من أفكار الحلم . وهكذا نساق إلى تلك النتيجة : أن الحتم المتكثر الذى يفصل فى اختيار ما يدخل الحلم ليس عاملا أولياً فى تكوين الحلم بل هو فى الكثير من الأحيان نتاج ثانوى لقوة نفسية لا نزال نجهلها . ومع هذا فلا بد أن تكون لهذا الحتم أهمية خاصة فى اختيار أى العناصر يدخل الحلم ، ما دمنا نلحظ أن هذا الحتم يُجلب جلباً بجهد خاص حين لا ينبعث من أفكار الحلم بغير عون .

وهكذا نصبح قاب قوسين من تلك الفكرة : أن هناك قوة نفسية تفصح عن نفسها فى أثناء عمل الحلم ، قوة تجرد العناصر ذات القيمة النفسية العالية من شدتها — هذا من جهة ، وهى — من جهة أخرى — تخلق بوساطة الحتم المضاعف من العناصر ذات القيمة النفسية المنخفضة قيما جديدة ، تلج بعد ذلك محتوى الحلم . وإذا كان الأمر كذلك ،

كان معناه أن تحويلا ونقلا فى الشدات النفسية التى لمختلف العناصر يقعان فى أثناء تكوين الحلم ، وأن التباين بين نص محتوى الحلم ونص أفكار الحلم يأتى نتيجة لهذا التحويل وهذا النقل . والعملية التى نفترض وجودها على هذا النحو هى على التحقيق الجزء الجوهرى فى عمل الحلم ، وهى تستحق اسم « النقل الحلمى » . فالنقل الحلمى والتكثيف الحلمى هما سيدا العمل اللذان يحق لنا أن نعزو تشكيل الحلم إلى نشاطهما هما فى المقام الأول .

وأعتقد أن من السهل علينا أيضاً أن نعرف ما هى تلك القوة النفسية التى تفصح عن نفسها فى وقائع النقل الحلمى ؛ فنتيجة هذا النقل هى أن محتوى الحلم يفقد شبه بلب أفكار الحلم ، وأن الحلم لا يعطينا بعد ذلك سوى صورة مشوهة من رغبة الحلم اللاشعورية . وتشويه الحلم ظاهرة عرفناها من قبل ، وقد كنا أرجعناها إلى الرقابة التى يمارسها أحد نظامين يعملان فى الحياة الفكرية بإزاء النظام الآخر . والنقل الحلمى — على ذلك — وسيلة من الوسائل الرئيسة التى يتحقق بها هذا التشويه ؛ فإن « فاعل الفعل هو من انتفع منه » .(١) ومن حقنا إذن أن نفترض أن النقل الحلمى يقع بتأثير من هاته الرقابة ، رقابة الدفاع الصادر عن داخل النفس (٢) .

---

(١) [Is fecit, cui profuit.]

(٢) إننى أستطيع القول بأن رد تشويه الحلم إلى الرقابة هو جوهر نظريتى عن الأحلام ، ولهذا أورد هنا الجزء الأخير من قصة بعنوان "الحلم على غرار اليقظة" من كتاب " أحلام واقعى" تأليف لينكويس (ڤيينا ، الطبعة الثانية ، ١٩٠٠) — وهو كتاب التقيت فيه بهذه السمة الرئيسة التى تتميز بها نظريتى . [أنظر الملحق المكتوب بتاريخ ١٩٠٩ بآخر الفصل الأول] :

" حول رجل له تلك الخاصة العجيبة ، وهى أنه لا يحلم أبدا أحلاما تنافى المعقول . . . "

" إن تلك الموهبة الماجدة التى خصصت بها : أن تحلم كما لو كنت مستيقظا — هى ثمرة فضائلك وطيبتك وإنصافك ومحبتك الحقيقة . والصفاء الخلقى الذى فى طبيعتك هو الذى يجعلنى أفهم كل ما اتصل بك . "

" فأجاب الآخر : ولكننى — حين أمعن النظر . أعتقد أن جميع الناس قد خلقوا على هذا الغرار ، وأنه ما من أحد تخلو أحلامه أبداً من المعنى ! فكل حلم يتذكره المرء تذكرا متميزا بحيث يستطيع روايته من بعد ، أى كل حلم لم تلده الحمى ، هو دائماً حلم ذو معنى ، ومحال أن تكون الأشياء على خلاف ذلك ! فما يفرق بينه التناقض لا يمكن أن يجتمع فى كل واحد . فأما أن الزمان والمكان كثيراً ما يختلطان فذلك ما لا ينال من محتوى الحلم الحقيقى فى شىء ؛ فكلاهما — ولا شك — عديم الخطر فيما يتعلق بجوهر الحلم . ثم نحن كثيراً ما نفعل مثل ذلك فى اليقظة ذاتها : انظر إلى القصص وإلى تآليف الخيال المليئة بالجرأة الزاخرة بالحكمة والتى لا يستطيع أن يقول عنها : ذلك هراء لأنه مستحيل ، إلا رجل لا عقل له ! "

" فقال الصديق : لو قد استطاع المرء فقط أن يفسر الأحلام دائماً تفسيراً صحيحا مثلما فعلت بحلمى ! "

" تلك على التأكيد ليست بالمهمة السهلة . ولكن لا مرية فى أن النجاح فيها ميسور بقليل من الانتباه من =

وأما السؤال : كيف تعمل معاً فى تكوين الحلم عوامل النقل والتكثيف والحتم المضاعف أيها المسيطر وأيها الثانوى؟ فذلك ما ندخره لبحث مقبل . [أنظر مثلا القسم ومن هذا الفصل .] ولكننا نستطيع أن نكشف فى الوقت الحاضر عن شرط ثان لا بد من أن تستوفيه العناصر التى تشق طريقها إلى الحلم : أن تفلت هذه العناصر من الرقابة التى تفرضها المقاومة . ومن الآن فصاعداً سنحسب للنقل الحلمى حسابه باعتباره واقعة لا يتطرق إليها الشك .

ج

وسائل الحلم فى التصوير

إذا تركنا عاملى التكثيف والنقل اللذين رأينا نشاطهما فى تحويل الأفكار الكامنة إلى محتوى الحلم الظاهر ، أوقفتنا متابعة البحث على شرطين آخرين يؤثران فى اختيار المادة التى تنفذ إلى الحلم تأثيراً لاشك فيه . ولكننى أود أولا أن ألقى نظرة على العمليات التى تقع فى أثناء القيام بتفسير الحلم ، مهما كان فى ذلك من خطر الظهور بمظهر من لا يتقدم فى طريقه . إننى لا أخفى على نفسى أن أقرب الطرق إلى إيضاح هذه العمليات وإلى الذود عن جدارتها بالثقة فى وجه النقد هو أن آخذ حلماً بعينه على سبيل المثال وأن أفصل تفسيره كما فعلت من قبل بحلم حقنة إرما فى الفصل الثانى ، وأن أجمع بعدئذ ما يتكشف لى من أفكار الحلم ، ثم آخذ فى بناء الحلم من جديد ابتداء من هذه الأفكار ، أى أن أردف تحليل الحلم بتركيب يكمله . ولقد قمت بهذا العمل فى أمثلة متعددة طلباً لفائدتى الخاصة ، ولكننى لا أستطيع أن أورد هنا هذه الأمثلة ، إذ تمنعنى من سوق هذا البرهان اعتبارات تتعلق بطبيعة المادة النفسية المضمنة — وهى اعتبارات متنوعة ويسلم بوجاهتها كل امرئ منصف فى التفكير . هذه الاعتبارات قد تدخلت فى تحليل الأحلام إلى حد أقل ؛ فإن التحليل قد يظل ناقصاً ويستبقى مع ذلك قيمته ، بل هو قد يستبقيها

سجانب الحالم . إنك تسألنى : ولم الفشل فى معظم الأحايين ؟ ذلك أنكم تبدون دائماً يا معشر البشر كأنما كان ثمت شىء خبيث فى أحلامكم ، شىء غير عف بمعنى أخص وأعمق ، خاصة مستترة ركبت فى طبيعتكم ويصعب عليكم تأمها ، ولهذا غلب أن تجىء أحلامكم مجردة من المعقولية ، إن لم تناقضها . بيد أنها تخالف ذلك تمام المخالفة فى حقيقتها العميقة ، لا بل ذلك فى الحق ما لا يمكن أن يكون ؛ لأن الإنسان يظل دائماً هو هو سواء أفى الحلم أم فى اليقظة . "

وإن لم ينفذ إلا فى رقعة صغيرة من نسيج الحلم . فأما تركيب الحلم فلست أدرى كيف يُصْنَعُ إلا إذا كان كاملا . وما أستطيع أن أورد تركيباً كاملا لبعض الأحلام إلا إذا كانت هذه الأحلام لأناس تجهلهم جمهرة القراء . ولكن إذا كان هذا الشرط لايتحقق إلا فى مرضاى — وهم عصابيون — فقد وجب على أن أرجئ هذا الجزء من الكلام عن الحلم إلى أن أتمكن — فى موضع آخر غير هذا الكتاب — من المضى بتفسير سيكولوجية الأعصبة إلى الحد الذى يتم عنده الوصل بينها وبين موضوعنا الحاضر [١] .

وقد علمتنى محاولاتى فى بناء الأحلام بتركيبها من أفكار الحلم أن المادة التى تنبعث فى خلال التفسير تتفاوت فى القيمة : فهناك جزء يتكون من أفكار الحلم الجوهرية ، أى تلك التى تحل محل الحلم تماماً وكانت كفيلة أن تجىء بدله لولا وجود الرقابة على الحلم ، وأما الجزء الآخر فهو فى العادة خليق بأن يوصف بكونه ذا أهمية ضئيلة . ولسنا نأخذ بالقضية القائلة إن جميع الأفكار التى من هذا النوع الثانى قد اشتركت فى تكوين الحلم [أنظر ص ٢٩٤] ، بل لقد توجد بينها على العكس مستدعيات تتعلق بخبرات وقعت بعد الحلم ، بين لحظتى الحلم والتفسير . هذا الجزء يشمل جميع الطرق الرابطة التى أدت من المحتوى الظاهر إلى الأفكار الكامنة ، كما يشتمل على المستدعيات المتوسطة المتدرجة التى توصلنا من خلالها — ونحن نقوم بالتفسير — إلى معرفة تلك الطرق الرابطة .

ولسنا نوجه اهتمامنا فى هذا الموضع إلا إلى أفكار الحلم الجوهرية وحدها . هذه الأفكار تتكشف فى معظم الأحايين فى صورة مجموعة من الأفكار والذكريات ذات بنية متشابكة أقصى التشابك ، حاصلة على كل الخواص التى نعرفها لعملياتنا الفكرية فى حياة اليقظة . وهى قد تكون فى أحيان ليست بالنادرة سلسلات من الفكر تصدر عن أكثر من مركز واحد ، وإن تماست فى بعض المواضع . وتكاد كل سلسلة من هذه أن تقترن دائماً بمقابلها المناقض لها : يرتبط بها من طريق التداعى بالتباين .

والأجزاء المختلفة من هذا البناء المعقد تتداخل بالطبع فى علاقات منطقية أو لغوية تتنوع غاية التنوع : ففيها المتقدم والمتأخر وفيها الاستطراد والإيضاح ، فيها الشرط

---

(١) لقد نشرت منذ ذلك الحين فى " طرف من تحليل حالة هستريا " (فرويد ١٩٠٥ م) تحليلا وتركيبا كاملين لحلمين . ومن الواجب أن نشير هنا إلى التحليل الذى نشره أوتو رانك بعنوان : " حلم يفسر نفسه بنفسه " [رانك ١٩١٠] باعتباره أتم تفسير نعرفه لحلم ذى طول يعتد به .

والتدليل والمناقضة . فإذا ما خضعت كتلة أفكار الحلم هذه للضغط المتولد عن عمل الحلم ، يدير أجزاءها ويفتتها ثم يلحمها فيما يشبه الثلج المندفع ، ثار فى أنفسنا السؤال عما آلت إليه هاته العلاقات التى كانت حتى الساعة هيكل البناء . أى تصوير تلقاه فى الحلم « إذا » و « لأن » أو « مثل » و « رغم » و « إما — أو » وسائر الأحرف التى لا تفهم بغيرها عبارة أو خطاب ؟

لا مفر من أن نجيب فى بادئ الأمر بأن الحلم لا يملك أى وسيلة يصور بها هذه العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم . فهو فى معظم الأحايين يغفل كل هذه الحروف ولا يستبقى من الأفكار سوى محتواها الشئ يصوغ منه صوغه . وعلى التفسير أن يسترجع ما أعدمه عمل الحلم من الروابط المنطقية .

وإذا كانت هذه القدرة على التعبير تعوز الحلم ، فهى لا بد راجعة إلى طبيعة المادة النفسية التى تصنع منها الأحلام . ويعرف هذان الفنان التشكيليان : التصوير والنحت — مثل هذا التقييد ، بالقياس إلى الشعر الذى يسعه استعمال الكلم . وعلة العجز هنا أيضاً طبيعة المادة التى يجهد هذان الفنان فى الإعراب عن شىء ما بتشكيلها . ولقد جهد فن التصوير — قبل أن يصل إلى الأحكام التى يعمل اليوم بمقتضاها — فى تذليل هذا العائق . فنحن نرى الأشخاص فى الرسوم القديمة وقد تعلقت بأفواههم شرائط خطت عليها أحرف تقول ما قد يئس الفنان من الإعراب عنه فى صور .

وربما ظهر فى هذا الموضع اعتراض ينازع فيما ننكره من قدرة الحلم على تصوير العلاقات المنطقية : فهناك أحلام يقوم فيها الحالم بعمليات عقلية معقدة غاية التعقيد ، فيبرهن على القضية أو ينقضها أو يسفهها أو يقارنها بغيرها ، كشأنه فى اليقظة . وهذا صحيح ، ولكن هنا أيضاً يخدع المظهر ، فلو أنا مضينا فى تفسير أمثال هذه الأحلام لعلمنا أن هذا كله إنما هو مادة من مادة الحلم وليس تصويراً لعمل عقلى يتأدى فى الحلم . وما يعيد الحلم بتفكيره الظاهر هذا سوى محتوى أفكار الحلم لا علاقاتها المتبادلة التى يقوم التفكير فى التزامها . وسوف أسوق بعض الأمثلة على ذلك [ص ٤٤٠ وما بعدها] ، ولكن أسهل ما نستطيع التثبت منه فى هذا الموضع هو أن كل كلام يعرض فى الحلم منصوصاً صراحة على أنه كذلك إنما هو إعادة محرفة أو محرفة قليلا لأقوال موجودة من قبل بين ذكريات مادة الحلم . وفى كثير من الأحيان لا يخرج الكلام المقول فى الحلم عن أن يكون إلماعاً

إلى موقف متضمن فى أفكار الحلم ، وأما معنى الحلم فيكون مختلفاً كل الاختلاف . [أنظر ص ٤١٩ وما بعدها .]

بيد أنى لن أنكر مع ذلك أن التفكير النقدى الذى لا يقف عند مجرد تكرار المادة المحتواة فى أفكار الحلم يأخذ مع ذلك بنصيب فى تكوين الحلم . ولن أجد بدا من ألقى الضوء فى نهاية المناقشة الحاضرة على تأثير هذا العامل . وعندئذ سوف يتضح أن هذا النشاط الفكرى لا يرد إلى أفكار الحلم بل يصدر عن الحلم ذاته بعد أن يكون قد اكتمل صنعه بمعنى من المعانى . [انظر القسم الأخير من هذا الفصل .]

وإلى أن يتضح لنا ذلك نقول إذن : إن العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم لا تحظى فى الحلم بأى تصوير مستقل . فإذا عرض فى الحلم تناقض — مثلا — فهو إما تناقض من جانب الحلم وإما تناقض فى فكرة من أفكار الحلم . ولا يكون التناقض فى الحلم مصوراً لتناقض بين أفكار الحلم إلا بطريقة غير مباشرة إلى أبعد حد .

ولكن كما أن فن التصوير قد أفلح أخيراً فى أن يعرب على الأقل عن مقاصد الكلم عند من يصور من الناس : حب أو وعيد أو تحذير أو غيره ، وذلك بطريقة أخرى عدا الشرائط المدلاة ، كذلك أمكن الحلم أن يدخل فى حسابه بعض العلاقات المنطقية بين أفكاره ، وذلك بتعديل طريقة التصوير المميزة للأحلام تعديلا ملائماً . وتدل التجربة على أن الأحلام المختلفة تتفاوت تفاوتاً كبيراً فى هذا الباب ؛ فبينما يغفل حلم الترتيب المنطقى الذى لمادته إغفالا تاماً ، يعمل حلم آخر على الإبانة عن هذا الترتيب إبانة كاملة بقدر المستطاع . وفى أثناء ذلك يبعد الحلم عن النص المراد صوغه بعدا ينقص أو يزيد . هذا ، وتختلف الأحلام كذلك فى مسلكها تجاه الترتيب الزمنى لأفكار الحلم ، إذا كان مثل هذا الترتيب قد قام فى اللاشعور (كما فى حلم حقنة إرما ، مثلا .)

فما هى الوسائل التى يتمكن بها الحلم من الإبانة عما تتضمنه مادته من علاقات صعبة التصوير ؟ سأحاول أن أحصى هذه الوسائل واحدة فواحدة .

الحلم أولا يدخل فى حسابه جملة الرباط القائم من غير أدنى شك بين أجزاء أفكار الحلم جميعها ، وذلك بتوحيد هذه المادة فى سياق يجمعها فى صورة موقف أو حدث : إنه يعيد الرباط المنطقى فى صورة المزامنة . وهو فى ذلك يحذو حذو الرسام الذى يرسم صورة مدرسة أثينا أو البرناس ، فيحشد فى الصورة جميع الفلاسفة والشعراء وما اجتمعوا

قط فى رواق واحد أو على قمة واحدة . ولكنهم مع ذلك يؤلفون يقينا صحبة واحدة بالمعنى التصورى المجرد .

والحلم يتابع هذا المنهج فى التصوير حتى الجزئيات . فكلما اقترب عنصران من عناصر الحلم كل من الآخر كان ذلك ضامنا لوجود علاقة وثيقة بنوع خاص بين مقابليهما فى أفكار الحلم . فالأمر هنا أشبه به فى نظامنا الكتابى : فأنت إذا كتبت « أب » كان معنى ذلك أن هذين الحرفين يجب أن يقرآ مقطعاً واحداً ، فإن تركت فاصلا بينهما كان معناه أن « أ » هى الحرف الأخير من كلمة و « ب » الأول فى تاليتها . وعلى هذا الغرار تجىء تجمعات الحلم ، فهى لاتتكون عفوا من أجزاء مشتتة فى مادة الحلم ، بل من من أجزاء يربط بينها فى أفكار الحلم أيضاً رباط وثيق .

فأما علاقات العلية فيملك الحلم طريقتين فى تصويرها ، هما فى جوهرهما طريقة واحدة . فعندما تجرى أفكار الحلم على هذه الصورة : « وإذ كان الأمر كذا وكذا ، فقد لزم أن يقع هذا وذاك » فأشيع طرق التصوير هى أن تدرج جملة الشرط فى حلم تمهيدى يتلوه جواب الشرط فى الحلم الرئيس . ومن الممكن — إذا لم أكن أخطأت التفسير — أن ينقلب هذا الوضع . ولكن الجزء الأوسع فى الحلم يقابل دائماً جملة جواب الشرط .

وقد أتت إحدى مريضاتى بمثال بديع على هذه الطريقة فى تصوير علاقة العلية ، وذلك فى حلم سوف أورده كاملا فيما بعد . [ص ٣٥٥] . كان الحلم يتكون من مقدمة وجزة ومن حلم مسهب دار إلى درجة ملحوظة حول موضوع بعينه ، وهو يستحق أن يسمى باسم : لغة الأزهار . وكان الحلم التمهيدى كما يلى : تذهب إلى المطبخ حيث تجد خادميها وتؤنبهما لأنهما لما تجهزا لها « قصعة تؤكل » تلمح فى أثناء ذلك عدداً كبيراً جداً من أوعية المطبخ العامية الطراز ، قلبت على الأرض وقد رصت بعضها فوق بعض أكواماً حتى يسقط ما علق بها من قطرات الماء . تذهب الخادمان فى طلب بعض الماء ، وتضطران إلى الخوض فى نهر ارتفع حتى بلغ المنزل أو فناءه .

ثم تبع ذلك الحلم الرئيس ، وكان يبدأ على هذا النحو : تهبط من مرتفع عظيم فوق حواجز ركبت بطريقة غريبة وتشعر بالسرور لأن ثوبها لم يشبك بأى منها فى خلال ذلك الهبوط . . . الخ . إن الحلم التمهيدى يشير إلى منزل والدى هذه السيدة . وأما الكلمات التى ألقت بها فى المطبخ فلا شك فى أن المريضة قد سمعت أمها ترددها مراراً . وأكوام أوعية

المطبخ مستمدة من دكان متواضع لبيع الأوانى بأسفل منزلهم . فأما الجزء الثانى من هذا الحلم التمهيدى فيشير إلى والد الحالمة ، وكان لا يكف عن مطاردة الخادمات ، إلى أن أصابه فى أثناء الفيضان مرض أودى به — وكان منزلهم يقع على ضفة النهر . فالفكرة المستترة وراء الحلم التمهيدى يمكن صوغها على هذا النحو : « وإذ كنت ولدت فى هذا المنزل ، فى هذا الجو الوضيع المكتئب . . . » والحلم الرئيس يرجع فيتناول هذه الفكرة عينها ويصوغها من طريق تحقيق الرغبة فى الصورة الآتية : « إننى أنحدر من سلالة عالية . » والقراءة الصحيحة للحلم هى إذن : « وإذ كنت أنتمى إلى هذا الأصل الوضيع ، فقد كانت حياتى كيت وكيت . »

وانقسام الحلم جزئين متفاوتين فى الطول لا يدل فى كل حالة — بقدر ما أعلم — على وجود علاقة علية بين الفكرتين المتضمنتين فى هذين الجزئين . فكثيراً ما يبدو الأمر كأن كلا الحلمين يعالج ذات المادة من وجهة نظر مختلفة ، وتلك هى الحال يقينا حين ترد فى الليلة الواحدة سلسلة من الأحلام تنتهى بالإمناء ؛ فهذه الأحلام مراحل تقرب الحاجة الجنسية من خلالها رويداً رويداً إلى تعبير أصرح . أو قد ينبعث كلا الحلمين من مركز خاص به فى مادة الحلم ثم يقع بين الحلمين تداخل فى المحتوى بحيث نرى ما كان إشارة عابرة فى أحدهما وقد صار مركز الحلم الآخر ، والعكس . بيد أن هناك — مهما يكن — حالات يدل فيها بالفعل انشقاق الحلم شقين — تمهيد قصير وملحق طويل — على وجود رابطة علية بين الجزئين . وأما المنهج الثانى فى تصوير علاقة العلية فيستخدم حين تكون المادة أقل اتساعاً . وهو يتلخص فى أن ترد فى الحلم صورة — سواء لشخص أم لشىء — ثم تتحول إلى أخرى . والقول بوجود العلاقة العلية هنا لا يكون قولا جدياً إلا حيث نرى هذا التحول فى صورة الحلم يدور أمام ناظرنا ، وليس يكفى فيه أن نلحظ أن شيئاً ما قد جاء فى موضع شىء آخر كان حاضراً منذ هنيهة . ولقد قلت : إن هذين المنهجين فى تصوير علاقة العلية هما فى الحقيقة منهج واحد . وذلك لأن العلية تصور فى كليهما بالتعاقب : بتعاقب الأحلام طوراً ، وبتحويل إحدى الصور إلى غيرها تحويلا مباشراً طوراً آخر . ولكن الحق الصراح هو أن علاقة العلية لا تصور على الإطلاق فى الغالبية العظمى من الحالات ، بل تضيع وسط تعاقب العناصر تعاقباً لا بد منه حتى فى عملية الحلم .

وأما علاقة « إما كذا أو كذا » فلا يستطيع الحلم تصويرها على الإطلاق، بل يدرج الحلم كلا الاحتمالين فى سياق واحد كما لو كانا يتساويان فى الجواز . وحلم حقنة إرما يرينا مثالا مأثورا على ذلك . فقد كان من الجلى أن الأفكار الكامنة لهذا الحلم كانت الآتية : لا ذنب لى إذا كانت آلام إرما لا تزال مستمرة ؛ فالذنب راجع إما إلى رفضها الأخذ بحلى ، أو إلى أنها تعيش فى وضع جنسى لا يساعد على البرء ولا أستطيع تغييره ، أو إلى أن طبيعة آلامها هذه ليست هسترية على الإطلاق بل عضوية . ولكن الحلم يحقق جميع هذه الاحتمالات التى يكاد يمنع بعضها بعضاً ، ولا يجد مانعاً من أن يضيف إليها احتمالا رابعاً أوحته رغبة الحلم[1] . ثم لما فرغت من التفسير أدرجت « إما » و « أو » فى سياق أفكار الحلم .

غير أنه إذا شعر الراوى وهو يستذكر حلمه بحيرة بين « إما » و « إما » كأن يقول : « كان المكان إما حديقة وإما غرفة استقبال » فمقابل هذا الاحتمال فى أفكار الحلم ليس احتمالا مثلهما بل واو عطف ، أى إضافة وحسب . فنحن فى معظم الأحايين نستخدم « إما كذا وإما كذا » لكى نصف بها عنصراً من عناصر الحلم اتسم بطابع من الغموض يسهل مع ذلك تبديده ؛ فالقاعدة التفسيرية فى مثل هذه الحالة هى الآتية : أن نعامل كلا الاحتمالين الظاهرين كما لو كانا يتساويان صحة ، وأن نربط كلا بالآخر بوساطة واو العطف . مثال ذلك أننى ظللت زمنا طويلا أنتظر سدى عنوان صديق لى كان مسافرا فى إيطاليا ، ثم حلمت بأنى أتلقى رسالة برقية تخبرنى بهذا العنوان . لقد رأيت العنوان مطبوعاً على الرسالة باللون الأزرق ، وكانت الكلمة الأولى منه مبهمة ؛ فهى :

ربما كانت Via
أو Villa
أو حتى Casa

ثم تتلوها الكلمة الثانية واضحة Sezerno

إن للكلمة الثانية جرساً كجرس الأسماء الإيطالية ، وهى تذكرنى بمناقشاتى فى الاشتقاقات اللغوية مع هذا الصديق ، كما أنها تعرب عن غضبى منه إذ مكث هذا الزمن الطويل يحتفظ بعنوانه سرا[2] . وأما الكلمة الأولى فقد ظهر أن كل احتمال من

(١) [أن يكون الذنب ذنب أوتو بمحقنته المتسخة .]

(٢) [سر = Segreto فى الإيطالية . ويذكر فرويد هذا الحلم مع مزيد من التفصيل فى خطاب إلى فليس – وهو الصديق المشار إليه بتاريخ ٢٨ أبريل ١٧٩٨ . أنظر الخطاب ٦٠ فى فرويد ١٩٥٠ أ .]

احتمالاتها كان نقطة ابتداء تفرعت عنها سلسلة من الأفكار ، نقطة قائمة بذاتها مساوية للآخرين فى صوابها .

وقد حلمت فى خلال الليلة التى سبقت تشييع جنازة والدى بلائحة أو لافتة مطبوعة أشبه ما تكون باللافتات التى تحرم التدخين فى حجرات الانتظار بمحطات السكة الحديدية ، وكتب على هذه اللافتة : المرجو أن تغلق كلا العينين

أو

المرجو أن تغلق إحدى العينين

وهو ما أكتبه عادة فى الصورة الآتية :

المرجو أن تغلق $\frac{\text{كلا}}{\text{إحدى}}$ العينين

إن لكلا هذين النصين معناه المستقل ، وكلاهما يضرب فى اتجاه مستقل حين نشرع فى تفسير الحلم . فقد كنت اخترت لجنازة والدى أبسط الطقوس الممكنة ؛ لأننى كنت أعلم رأى الراحل فى أمثال هذه المراسيم . ولكن هذه البساطة الطهرية[1] لم ترض سائر أعضاء الأسرة : فقد رأوا فى ذلك مجلبة للعار بين المشيعين . ومن ثم جاء فى إحدى القرائتين : « أن تغمض إحدى العينين » أى « أن تغض الطرف » . فالإبهام الذى أعربت عنه « إما — وإما — » يسهل تفسيره هنا بنوع خاص : فعمل الحلم أخفق فى أن يجد لفكرتى الحلم صيغة لفظية موحدة ولكنها مزدوجة المعنى ، ولهذا انشقت فى محتوى الحلم الظاهر سلسلتا الفكر الرئيستان .

هذا ، وهناك حالات قليلة تحل فيها صعوبة تصوير الاحتمال بقسمة الحلم قسمين متساويين فى الطول .

وأما مسلك الحلم بازاء مقولة التضاد والتناقض فمسلك يسترعى النظر إلى أبعد مدى : فالحلم لا يزيد على أن يغفل هذه المقولة إغفالا ، أى أنه لا يعرف شيئاً اسمه « كلا ». فهو يبدى إيثاراً خاصاً نحو إدماج الأضداد فى كل واحد أو تصويرها على أنها شىء واحد . وهو — فوق ذلك — يستبيح لنفسه أن يصور أى عنصر من عناصره بوساطة ضده

---

(١) [الطهريون لفظ أطلق على طائفة بروتستانية تتمسك بحرف الكتب المقدسة تمسكا شديدا ، ثم صار يطلق بوجه عام على المتزمتين .]

المرغوب فيه ؛ بحيث يعجز المرء للوهلة الأولى — إذا ورد فى الحلم عنصر يقبل الضد — عن أن يعرف ما إذا كانت أفكار الحلم قد حوت هذا العنصر فى صورة موجبة أم سالبة[١] . وفى أحد الأحلام التى رويناها أخيراً (وهو حلم فسرنا جزأه الأول : « إذ كنت أنتمى إلى مثل هذا الأصل . . . ») رأت الحالمة نفسها تهبط فوق الحواجز وقد حملت فى يدها غصناً مزدهراً . ولقد خطر لها فى صدد هذه الصورة كيف يحمل الملك عوداً من الزنبق فى يده فى صور البشارة إلى مريم (وكانت هى تدعى مريم) ، ثم كيف تسير العذارى فى موكب عيد المسيح [٢] بينما ازدانت الطرق بالغصون الخضر . وهكذا يشير الغصن المزدهر فى الحلم إلى الطهارة الجنسية ، ذلك لا ريب فيه . بيد أن الغصن قد غطته فى الحلم أزهار حمراء تشبه الكاميليا ، ولقد مضى الحلم حتى بلغت الحالمة نهاية مسيرها وإذا الزهر قد ذوى معظمه أو كاد ، ثم تجىء بعد ذلك إشارات إلى الطمث ما فى فهمها من شك. فذات الغصن الذى تحمله الحالمة مثل زنبقة تحملها فتاة طاهرة يلمح فى الوقت عينه إلى غادة الكاميليا ؛ فنحن نعرف عن هذه أنها كانت تحمل كاميليا بيضاء اللون ، إلا وقت الطمث فتحمل حمراء . وذات الغصن المزدهر يمثل الطهارة الجنسية ويمثل ضدها (أنظر « أزهار العذراء » فى أغنية الطحانة عند جوته)[٣] . وذات الحلم الذى يعرب عن فرحها لأنها قد نجحت فى المسير عبر الحياة دون أن تفقد بكارتها يتركنا نلمح فى بعض مواضعه (مثل ذبول الأزهار) وميض أفكار أخرى مضادة ، فحواها استذناب النفس لأنها ارتكبت أنواعاً من الآثام فى حق النقاوة الجنسية (أى ارتكبتها فى

---

(١) لقد أدهشنى أن أعلم من مؤلف كتبه ك . آبل " تضاد المعنى فى الكلمات القديمة " (١٨٨٤) (وانظر تعليقى عليه ، ١٩١٠ م) — أدهشنى أن أعلم تلك الواقعة التى أيدها لغويون آخرون : أن أعظم اللغات قدما تسلك فى هذا الصدد مسلكا يشبه مسلك الحلم تمام الشبه . فهذه اللغات تملك فى مبدأ الأمر كلمة واحدة تعرب بها عن طرفين متضادين تتدرج بينهما سلسلة من الكيفيات أو الأفعال (مثل : قوى — ضعيف ، عجوز — حدث ، بعيد — قريب ، يربط — يحل) ، ولا تصل إلى حدود متمايزة للأضداد إلا فيما بعد ، بإحداث تغيير طفيف فى الأصل المشترك . ويبرهن آبل على هذه الخاصة استناداً إلى اللغة المصرية القديمة بنوع خاص . ولكننا نستطيع أن نتبين آثاراً واضحة لهذا التطور عينه فى اللغات السامية والإندوجرمانية .

(٢) [عيد يقع فى الخميس الثانى بعد عيد العنصرة وفيه يخرج المسيحيون فى موكب من كنيستهم ثم يطوفون بشوارع البلدة ويعود الموكب إلى الكنيسة .]

(٣) [Der Mullerin Verrath أو " خيانة الطحانة " قصة منظومة لجوته ، جاء فيها أن رجلا قضى ليلة غرام — أو ما ظنه كذلك — مع طحانة جميلة ، فلما أصبح الصباح باغتته أهلها بتدبير منها لكى يسألوه الحساب عن " أزهار العذراء " .]

طفولتها) . ولقد أمكن عند تحليل الحلم أن نفرق تفرقة واضحة بين هاتين السلسلتين الفكريتين اللتين بدت أولاهما — تلك التى ترفه — طافية على السطح ، فى حين شغلت الثانية — تلك التى تؤنب — طبقة أعمق ، واللتين صور ما بينهما من عناصر متشابهة وإن تكن متقابلة بوساطة ذات العناصر فى محتوى الحلم الظاهر .

غير أن هناك علاقة منطقية واحدة تعين ميكانيكية تكوين الحلم على تصويرها إلى أبعد حد ، تلك هى علاقة التشابه أو التوافق أو التقارب ، العلاقة التى يعرب عنها قولنا : « مثل كذا تماماً » . إن هذه العلاقة تجد من تعدد الوسائل فى تصويرها ما لا تجده أى علاقة أخرى.[1] فحالات « مثل » أو نظائرها المتضمنة من قبل فى مادة الحلم هى الأساس الأول الذى ينبنى عليه كل تكوين الحلم ، كما أن جزءاً لا يستهان به من عمل الحلم يقوم فى خلق نظائر جديدة من هذا القبيل إذا كانت تلك الموجودة من قبل لا تستطيع النفاذ إلى الحلم بسبب الرقابة . وإن تصوير علاقة التشابه ليسند نزوع عمل الحلم إلى التكثيف .

فالتشابه والتوافق والحصول على محمولات مشتركة ، كل هذه يصورها الحلم بأن يدمج طرفى العلاقة فى وحدة إما أن تكون متضمنة من قبل فى مادة الحلم وإما تخلق خلقاً جديداً . والاحتمال الأول تجوز تسميته تعيينا ، وأما الاحتمال الثانى فنسميه مزجاً . ويستخدم التعيين حين يتعلق الأمر بالأشخاص ، وأما المزج فحين تكون مادة التوحيد هى الأشياء — وإن جاز أن يقع المزج بين الأشخاص كذلك ، كما أن الأماكن قد تعامل فى كثير من الأحيان معاملة الأشخاص .

ونجد فى التعيين أن شخصاً واحداً من الأشخاص الذين يربط بينهم جامع مشترك هو الذى يظهر دون غيره فى محتوى الحلم ، بينما يبدو الشخص الثانى أو الأشخاص المتبقون كأنما قمعوا فى الحلم[2] . ولكن هذا الشخص الذى يحجب الآخرين يظهر فى الحلم بكل العلاقات والمواقف التى تصدق عليه وعلى سائر من يحجب . وأما فى المزج — حين

---

(١) أنظر ملاحظة أرسطو فى المواهب التى تلزم من يفسر الأحلام [أنظر ما سبق ص ٤٦٢ ٢ ٥ .]

(٢) [فكأن هؤلاء الأشخاص قد عينوا بالشخص الظاهر فى الحلم ، أى أخذوا صورته وجعلوا إياه وعرفوا به . ويلاحظ ستراشى بحق أن التعيين هنا غير التعيين الذى تحدث عنه فرويد من قبل فى ص ١٧٢ . فالتعيين هنا عملية من العمليات التى يجريها المرء على شخصين — أو على شيئين أحيانا — أو أكثر . بينما التعيين هناك هو العملية أو =

يمتد المزج إلى الأشخاص – فتجيء صورة الحلم حاوية على ملامح من هذا الشخص وملامح من ذاك ، ولكنها ليست بالملامح المشتركة بينهما ، بحيث يؤدى التوحيد بين هذه الملامح إلى ظهور وحدة جديدة ، أى شخص مركب . وقد تقع عملية المزج على أنحاء مختلفة : فالشخص الظاهر فى الحلم قد يحمل اسم أحد الشخصين المرتبطين به – وحينئذ نعلم أن المعنى هو هذا الشخص أو ذاك على نحو يماثل كل المماثلة نحو معرفتنا فى اليقظة – بينما تكون ملامحه المرئية هى ملامح الشخص الآخر . أو قد تتركب صورة الحلم المرئية من ملامح يرجع بعضها فى الحقيقة إلى أحد الشخصين ويرجع بعضها الآخر إلى الشخص الآخر . أو قد لا يشارك الشخص الثانى فى صورة الحلم بملامحه المرئية بل بالحركات التى نظهره بها أو الكلمات التى نجعله يفوه بها أو المواقف التى نضعه فيها – وفى هذا النوع الأخير من المزج يأخذ الفرق بين التعيين والمزج فى الزوال . غير أنه قد يحدث أيضاً أن يفشل الحلم فى تكوين مثل هذا الشخص المركب ، وفى هذه الحالة نجد مشهد الحلم ينسب إلى أحد الشخصين بينما لا يخطر الثانى – وهو فى العادة الشخص الأهم – فى هذا المشهد إلا باعتباره حاضراً وحسب . ويصف الحالم هذا الوضع بأن يقول مثلا : كانت أمى أيضاً هناك (شتيكل) . ومثل هذا العنصر فى محتوى الحلم تجوز إذن مقارنته بمخصصات الكتابة الهيروغليفية التى لا يراد بها أن تنطق ، وإنما تجعل لكى توضح سائر العلامات[1] .

والعنصر المشترك الذى يبرر توحيد كلا الشخصين أو – بالأحرى – يسببه قد يتمثل فى الحلم وقد يغيب . ولكن القاعدة هى أن التعيين أو تكوين الأشخاص المركبة إنما يستخدم على التحقيق من أجل تصوير هذا العنصر المشترك . فأنا بدل أن أقول : « إن أ يعادينى وكذلك ب » أبتدع فى الحلم شخصاً مركباً من أ و ب ، أو أتخيل أ وهو يعمل عملا من نوع يخالف ما عرف عنه ويتميز به ب . والشخص الذى أحصل عليه

العلاقة التى بها وفيها يتكون الأنا . فالفرق بين المعنيين على اشتراك اللفظ قد لا يعدله – إذا جاز لنا اللجوء إلى مماثلة مستمدة من مجال الفلسفة – سوى الفرق بين " الفكر " فى الكوجيتو الديكارتى و " الفكر " بمعنى هذه العملية الفكرية أو تلك ، كما يكون فى حل مسألة حساب أو شطرنج أو غيره . وربما كان فى قولنا هناك : " التعيين الذاتى " – بينما نكتفى هنا بأن نقول : " التعيين " وحسب – ما يشير إلى هذا الفارق أو ينبه إليه .]

(١) (Determinativum) – ترجمناه بالمخصصات نقلا عن الدكتور عبد المحسن بكير فى كتابه " اللغة المصرية القديمة فى عصرها الذهبى " .]

بهذه الطريقة أو تلك يخطر لى فى الحلم فى سياق جديد ما ، وإن كونه يومئ إلى أ و ب على السواء ليخول لى الحق فى أن أضع ما هو مشترك بين هذين — وأعنى به موقفهما العدائى نحوى — فى موضعه المناسب من تفسير الحلم . وبهذه الطريقة يتسنى لى فى كثير من الأحيان أن أحقق تكثيفاً خارقاً فى محتوى الحلم : فأنا أستطيع أن أجنب نفسى مؤنة التصوير المباشر لما قد يرتبط بأحد الأشخاص من ملابسات شديدة التعقيد إذا وجدت شخصاً آخر يشاركه بعض هذه الملابسات . ومن السهل كذلك أن نرى كم ينفع هذا التصوير فى مداورة الرقابة الناجمة عن المقاومة ، هذه الرقابة التى تفرض على الحلم شروطاً من الصعوبة بمكان : فالرقابة قد تكون موجهة إلى أفكار معينة ترتبط فى مادة الحلم بشخص دون غيره ، وأنا لذلك ألتمس شخصاً ثانياً يرتبط هو الآخر بهذه المادة المعترض عليها ، ولكن بجزء منها ليس غير ، وعندئذ يخول لى هذا التماس القائم بينهما فى تلك النقطة الخاضعة للرقابة أن أكون من كليهما شخصاً مزيجاً يُخَصُّ بما فى كليهما من سمات لا خطر منها ، وهذا الشخص المتولد عن المزج أو عن التعيين يدرج الآن فى محتوى الحلم حرا من الرقابة ، بينا أكون من جانبى قد أرضيت هذه الرقابة بإعمال التكثيف .

وحيثما يصور فى الحلم عنصر مشترك بين شخصين ، كان ذلك فى العادة بمثابة إشارة تدعونا إلى أن نبحث عن عنصر مشترك آخر مستتر ، حالت الرقابة دون تصويره . أى أن ذلك دليل على أن نقلا قد وقع فيما يتصل بالعنصر المشترك لكى يتيسر تصويره . وعلى ذلك إذا تراءى لى فى الحلم شخص مزيج يحمل سمة مشتركة خالية من الوزن ، حملنى ذلك على أن أستنتج أن ههنا عنصراً آخر مشتركاً بعيداً كل البعد عن أن يكون على هذا الخلو من القيمة .

وبذلك يخدم التعيين وتكوين الأشخاص المزيجة أهدافاً متنوعة فى الحلم : أولها تصوير عنصر مشترك بين شخصين ، وثانيهما تصوير عنصر مشترك أصابه النقل ، ثم الثالث وهو التعبير عن شركة مرغوب فيها ليس غير . وإذ كانت الرغبة فى أن يشترك شخصان فى وجه من الوجوه توافق فى أحيان كثيرة الرغبة فى مبادلة الواحد بالآخر ، كانت هذه العلاقة الأخيرة أيضاً يُعْرَبُ عنها فى الحلم بوساطة التعيين : فى حلم حقنة إرما أود لو استبدلت بإرما المريضة الأخرى ، أى أننى كنت أود لو قد كانت هذه الأخرى مريضتى مثلما كانت إرما ، والحلم يحسب حساب هذه الرغبة حين يرينى

شخصاً اسمه إرما ولكنه يفحص فى وضع لم يتفق لى قط أن رأيت فيه غير المرأة الأخرى . وفى حلم عمى نصادف تبديلا من هذا القبيل صار هو النقطة الرئيسة فى الحلم : فأنا أعين نفسى بالوزير حين أبدى نحو زميلى مسلكاً وحكماً لا يفضلان مسلك الوزير وحكمه فى شىء [أنظر ص٢١٣] .

ولقد علمتنى خبرة لم أجد لها استثناء أن كل حلم يدور حول الحالم نفسه . فالأحلام على أنانية مطلقة[١] ، وإذا لم يظهر أنانى فى محتوى الحلم بل ظهر شخص غريب ، جاز لى أن أفترض وأنا مطمئن أن أنانى يكمن مستتراً وراء ذلك الشخص الآخر بوساطة التعيين ، وجاز لى أن أدرج أنانى فى السياق . ويحدث فى أحيان أخرى — حين يظهر أنانى فى الحلم — أن ينبئنى الموقف الذى يكون فيه ظهوره أن شخصاً آخر يختبئ وراء هذا الأنا بوساطة التعيين كذلك . وعندئذ يجب علىّ الانتباه عند تفسير الحلم إلى أن أحول إلىّ أنا وجه الاشتراك المستتر المنسوب إلى هذا الشخص . وهناك كذلك أحلام يظهر فيها أنانى بجانب أشخاص آخرين يتضح مرة أخرى حين نحل التعيين أنهم أنانى . ولا بد فى هذه الحالة من أن تكون تلك التعيينات قد مكنتنى من أن أجمع بين أنانى وبين تصورات بعينها كانت الرقابة تحول دون قبولها . وهكذا يكون فى مستطاعى أن أصور أنانى فى الحلم مرات ومرات ، تصويراً مباشراً تارة ، وبوساطة تعيينه بأشخاص غرباء تارة أخرى. وتعدد أمثال هذه التعيينات يمكن من تكثيف كمية ضخمة من أفكار الحلم[٢] . وإن ورود أنا الحالم فى الحلم مرات متعددة أو فى هيئات مختلفة ليس فى الحقيقة بأعجب من وروده فى أفكارنا الشعورية مرات متكررة وبمواضع مختلفة أو فى علاقات متغايرة — أنظر مثلا هذه القضية : حين أذكر أى طفل صحيح كنتُ[٣] .

وحل التعيينات أسهل فيما يتعلق بأسماء الأعلام الدالة على الأماكن منه فى الأشخاص ؛ فهنا يغيب تدخل الأنا الذى يملك على الحلم كل هذا السلطان . وقد حدث فى أحد

---

(١) أنظر هامش ٢ فى ص ٢٨٥ .

(٢) حينما أشك فى الشخص الذى ينبغى على أن أبحث عن أنانى وراءه بين الأشخاص الظاهرين فى الحلم ، أتبع القاعدة الآتية : الشخص الذى تعرض له فى الحلم حالة وجدانية أستشعرها أنا نفسى وأنا نائم — هذا الشخص هو الذى يخفى أنانى .

(٣) [لا يغيب عن القارئ أن ضمير المتكلم يظهر فى العبارة الألمانية فى صورة لفظية مستقلة : Ich . فمن المعلوم أن اللغة الألمانية شأن الكثير من اللغات الأوروبية الحديثة " تجوهر " الضمير فى صورة لفظية قائمة بذاتها ، بينما هو لا يدل عليه فى لغتنا العربية وفى كثير من اللغات الأخرى إلا بتصريف الفعل .]

أحلامى عن روما (ص٢١٥) أن دعى المكان الذى رايتنى فيه روما ، ولكننى دهشت لكثرة ما رأيت فيه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية على ناصية الطريق . وكانت هذه اللمحة الأخيرة تحقيق رغبة جعلنى أفكر على الفور فى پراج — ولعل الرغبة ذاتها كانت ترجع إلى مرحلة الحماسة القومية الألمانية ، وهى مرحلة مررت بها فى شبابى ثم انطوت . ذلك أننى حين أتيت هذا الحلم كنت أتوقع لقاء صديقى [فليس] عن قريب فى مدينة پراج ؛ وهكذا يعلل تعيين روما وپراج كلا بالأخرى بشركة كانت موضوع رغبة : فأنا أوثر لقاء صديقى فى روما على لقائه فى پراج ، وأود لو بدلت روما بپراج من أجل هذا اللقاء .

فأما القدرة على خلق الأشكال المزيجة فهى أكبر الخصائص التى تضفى على الأحلام هذا الطابع المغرب فى الخيال الذى يكثر اتسامها به . ذلك أن هذه القدرة هى التى تدخل فى محتوى الحلم عناصر ما كانت لتعرض قط لإدراكنا الحسى . ومن الواضح أن العملية النفسية التى تجرى فى أثناء هذا المزج هى التى تقع حين نتخيل كائنا مثل القنطورس أو التنين ، أو حين نرسمه . كل الفرق هو أن النتاج المتخيل فى اليقظة لا يسترشد غير التأثير المستهدف إحداثه من وراء الشكل الجديد ، على حين أن مزيج الحلم محتوم بعامل يخرج عن دائرة خصائصه الشكلية ، وأعنى به العنصر المشترك فى أفكار الحلم . ومن الممكن أن يتحقق المزج فى الحلم على أنحاء تتعدد غاية التعدد . وأقل هذه من حيث مهارة الصنعة هو أن نصور خصائص شىء من الأشياء تصويراً يصطحب بمعرفتك أن هذه الخصائص تنتسب كذلك إلى موضوع آخر . وطريقة أخرى تزيد عن سابقتها عناية ، هى التى تجمع خصائص كل من الموضوعين فى صورة جديدة وتنتفع فى أثناء ذلك انتفاعاً ماهراً بكل ما يمكن أن يوجد فى الواقع من أوجه الشبه بين الموضوعين ، والصورة الجديدة قد تلوح لنا شيئاً تجرد من المعقولية كل التجرد ، وقد تبدو عملا ناجحاً من جانب المخيلة ، على حسب المادة وعلى حسب البراعة المبذولة فى تركيبها . فإذا كانت الموضوعات المراد تكثيفها فى وحدة أخلاطا مبعثرة كل التبعثر ، غلب أن يكتفى عمل الحلم بأن يخلق منها صورة مزيجة ذات نواة متميزة بعض الشىء تصحبها عدة من السمات الأقل تميزاً . وفى هذه الحالة تكون عملية التوحيد فى صورة مفردة كأنما قد باءت بالفشل : فكلا التصورين قد غطى الآخر ، ونجم عن ذلك ما يشبه التراع بين صورتين بصريتين .

ويستطيع المرء أن ينتهى إلى تصويرات مماثلة إذا هو ابتغى أن يبين فى رسم تَكَوُّن أحد التصورات الكلية من صور المدركات الحسية الجزئية .

والأحلام بالطبع تعج بأمثال هذه الصور المزيجة . ولقد سردت من قبل أمثلة منها عرضت فى الأحلام التى حللتها حتى الآن . وهأنذا ألحق بها أخرى : إذا رجعنا إلى الحلم الذى ذكرته فى ٩ ص ٣٢٥ والذى يصف تاريخ حياة المريضة « بلغة الأزهار » ، رأينا أنا الحالمة يُصوَّر ممسكا فى يد غصنا ناضراً كان يشير — كما رأينا — إلى الطهارة وإلى الخطيئة الجنسية فى آن واحد . وإن الطريقة التى انتثرت بها الأزهار على الغصن قد ذكرت الحالمة — فوق ما سبق — بأزهار الكريز ، وأما الأزهار فى ذاتها — كل على حدة — فتذكرها بالكاميليا ، ثم الكل مجتمعاً يوحى بعد ذلك بنبات من أرض غريبة . ولقد أظهرتنا أفكار الحلم على الجامع المشترك بين عناصر هذه الصورة المركبة : فالغصن المزدهر قد ركب من إشارات إلى هدايا قدمت إليها واكتسب بها مقدموها ودها أو أرادوا اكتسابه : هكذا الكريز فى طفولتها والكاميليا فى مستأنف السنين . وأما النبات الغريب الأرض فيلمح إلى عالم طبيعى كثير الطواف توسل إلى رضاها بزهور رسمها لها . وصنعت مريضة أخرى شيئاً وسطاً بين نجيرة استحمام على شاطئ البحر ومرفقة مياه منعزلة من قبيل ما يوجد فى الريف وحجرة مائلة السقف بأعلى منزل من منازل السكنى فى مدننا : العنصران الأولان يشتركان فى علاقتهما بالتعرى ونزع الملابس ، واقتران العنصر الثالث بهما يجعلنا نستنتج أن حجرة مائلة السقف كانت (والحالمة طفلة) مسرحاً لمشهد من مشاهد التعرى . وهناك مريض صنع مكاناً مركباً من مكانين من الأمكنة التى يقع فيها « Kur » [= علاج وغزل] ، أحدهما غرفة استشارتى والآخر كان الملهى الذى الذى عرف فيه زوجته . وحلمت فتاة بعد أن وعدها أخوها الأكبر بأن يمتعها بالكاڤيار — حلمت بأن أخاها الأكبر هذا قد تغطت ساقه بحبوب الكاڤيار الأسود . وهكذا نجد أن العنصر « عدوى » بالمعنى الحلقى — وأن ذكرى بثر ألم بها فى طفولتها فغطى ساقيها ببقع حمراء لا سوداء ، قد اتحدا مع حبوب الكاڤيار فى تصور جديد ، هو تصور « ما نابها من أخيها » . ولقد عوملت أجزاء الجسم الإنسانى فى هذا الحلم — كما فى غيره من الأحلام — معاملة الموضوعات . وفى حلم رواه فرنتسى وردت صورة ركبت من شخص أحد الأطباء ومن حصان ، ثم بعد ذلك ألبست الصورة قميصاً من قمصان النوم .

وبالتحليل تبين وجه الاشتراك بين هذه العناصر الثلاثة حين عرفت المريضة فى قميص النوم إشارة إلى والدها كما رأته فى مشهد من مشاهد الطفولة . فالأمر يتصل — فى مقومات الحلم الثلاثة — برغبة الحالمة الجنسية فى الاستطلاع ؛ ولقد كانت المريضة تصحب مربيتها فى أحيان كثيرة إلى إصطبل تابع للجيش حيث كان يتاح لها أن تشبع تطلعها الجنسى — ولم يكن مسه الكف بعد — ما أرادت .

وسبق أن قلت [ص ٣١٥]: إن الحلم لا يملك وسيلة ما فى الإعراب عن علاقة التناقض أو التضاد، عن «كلا» . وسآخذ الآن فى مناقضة هذه القضية للمرة الأولى . فهناك طائفة من الحالات التى يمكن أن نعدها حالات «تضاد» تصور فى الحلم بوساطة التعيين ليس غير ، ويكون ذلك على التحقيق — كما رأينا [ص ٣٣٢] — إذا أمكن أن تقترن فكرة التضاد بفكرة المقايضة أو التبديل — ولقد أعطيت أمثلة متكررة على ذلك من قبل . وبين أفكار الحلم طائفة أخرى من الأضداد — يصح إدراجها فى مقولة «القلب أو العكس التام» — تبلغ إلى التمثل فى الحلم بطريقة عجيبة ، حتى لتكاد تستحق وصفها بالتنكيت . و «الضد الذى هو عكس» لا يمثل هو نفسه فى محتوى الحلم ، ولكنه يفصح عن وجوده فى مادة الحلم بالطريقة الآتية : أن يقلب فى محتوى الحلم الذى تم تكوينه جزء اتفق وقوعه لأسباب خارجية على مقربة من هذا الضد كأنما جاء ذلك القلب من بعد . والتمثيل لهذه العملية أسهل من وصفها : خذ مثلا الحلم الجميل — حلم الصعود والنزول المذكور فى ص ٢٩٨ — تر الحلم يصور الصعود تصويراً يعكس النموذج الماثل فى أفكار الحلم ، أى يعكس مشهد التقدمة فى رواية سافو لدوديه ؛ فهو يتم فى الحلم صعباً فى أوله سهلا فى آخره ، على حين أنه يسهل فى مبدأ ذلك المشهد ثم يصعب شيئاً فشيئاً . ثم «الأعلى» و «الأسفل» فيما يتصل بعلاقة الحالم بأخيه قد صورا أيضاً تصويراً مقلوباً . ولقد كان فى ذلك ما يشير إلى وجود علاقة قلب أو تضاد بين جزئين من أجزاء المادة المحتواة فى أفكار الحلم ، وهى علاقة وجدناها فيما تخيله الحالم من حمل مرضعه إياه على عكس ما يحمل البطل محبوبته فى الرواية . ثم الحلم الذى أرى فيه جوته يهجم على السيد م . (أنظر ما بعد [ص ٤٣٨])، أليس يحوى مثل هذا القلب الذى يجب علينا أن نبدأ بعدله قبل أن نستطيع أن نفسر الحلم تفسيراً صحيحاً ؟ لقد هاجم جوته فى الحلم شاباً حديث السن هو السيد م . ، والحقيقة المتضمنة فى أفكار الحلم هى أن رجلا ذا خطر ، صديقى [فليس] ، قد تهجم عليه

مؤلف نكرة حديث السن . وأنا فى الحلم أحسب السنين ابتداء من تاريخ وفاة جوته ، وأما فى الحقيقة فيبدأ الحساب من سنة ميلاد المريض المشلول . والفكرة التى تبين أنها قد كانت القول الفصل فى مادة الحلم كانت المعارضة فى أن يعامل جوته كما يعامل مخبول ، فالحلم كان يقول : « على العكس ، إذا أنت لم تفهم الكتاب فضعيف العقل أنت لا صاحب الكتاب . » ويلوح لى — عدا ذلك — أن جميع أحلام القلب هذه لا تخلو من معنى الازدراء المتضمن فى قولنا : « أدار له ظهره . »[1] (أنظر قلب العلاقة بالأخ فى حلم سافو .[ص ٣٠١]) وخليق بنا أن نلاحظ — فوق ذلك — كيف يكثر استخدام القلب فى الأحلام الصادرة على التحقيق عن دوافع جنسية مثلية مكبوته .

والقلب أو التحويل إلى الضد هو بعد ذلك وسيلة من آثر وسائل التصوير إلى عمل الحلم وأكثرها تنوعاً من حيث أوجه استخدامها . فهو يستخدم أول ما يستخدم فى مساندة تحقيق الرغبة بالنسبة إلى عنصر معين بين العناصر المتضمنة فى أفكار الحلم . وإن قولنا : « لو أن الوضع انعكس ! » لهو فى كثير من الأحايين أحسن ما يعرب عن استجابة الأنا بالنسبة إلى صفحة أليمة من صفحات الذاكرة . ولكن قيمة القلب تظهر بنوع أخص حين يعمل لخدمة الرقابة ؛ لأنه يحدث مقداراً ضخماً من التشويه فى الأفكار المراد تصويرها ، بحيث نرى فهمنا للحلم وقد شل للوهلة الأولى شلا . ولذلك لم يكن ضير — كلما عَنَدَ الحلم ولم يسلم معناه — فى أن نجرب قلب أجزاء معينة فى محتواه ، وحينئذ لا يندر أن يتضح كل شىء على الفور .

وهناك إلى جانب القلب فى المحتوى المادى قلب آخر ينبغى علينا أن نحسب حسابه ، هو قلب الترتيب الزمنى . فمن الطرق الشائعة فى تشويه الحلم أن تُصور خاتمة حدث أو نتيجة عملية فكرية فى صدر الحلم على حين ترجأ إلى نهايته المقدمات التى بنيت النتيجة عليها أو العلل التى نجم الحدث عنها . وكل من نسى هذه الحيلة الفنية فى تشويه الحلم صائر ولا شك إلى الوقوف فى تفسيره[2] .

---

(١) [Kehrseite ويعنى الظهر والوجه المقلوب للشىء .]

(٢) إن النوبات الهسترية تستخدم أحياناً هذه الطريقة عينها — طريقة قلب الترتيب الزمنى — لكى تخفى معناها عن المشاهد . مثال ذلك فتاة هسترية كانت نوبتها تصور مغامرة غرامية قصيرة تخيلتها فى لا شعورها بعد أن التقت برجل ما فى سكة حديد الضواحى : كيف يجتذب جمال قدمها الرجل فيبادئها بالحديث بينما كانت تقرأ ، وكيف تصحبه هى على أثر ذلك ثم تحيا معه مشهداً غرامياً عاصفا . كانت نوبتها تبدأ بتصوير هذا المشهد الغرامى

والحق أن هناك حالات لا يكشف فيها المرء معنى الحلم إلا بعد أن يجرى على محتواه قلباً متعدداً ، مختلف الأوجه . مثال ذلك شاب كان يعانى عصاباً قهرياً نرى عنده ذكرى الرغبة الطفلية فى موت الأب المخوف وقد اختفت وراء حلم كان ذلك نصه : يشتمه والده لمجيئه إلى المنزل متأخراً جداً . إن موقع الحلم من سياق العلاج التحليلى ثم مستدعيات الحالم قد بينت أن الأصل يجب أن يقرأ على هذا النحو : أنه — هو — غاضب على والده ، وأن والده كان — فى رأيه — يعود دائماً إلى المنزل مبكراً جداً (أى سريعاً جداً). والحالم كان يؤثر ألا يرجع والده على الإطلاق، وهى رغبة لا تختلف فى شىء من الرغبة فى موت الأب (أنظر ص٢٧١) ، فقد حدث وهو طفل صغير أنه أذنب بعدوان جنسى على طفل آخر فى خلال غيبة موقوتة لأبيه ، فكان عقابه هذا الوعيد : « انتظر حتى يعود أبوك ! »

فإذا أردنا أن نمضى فى دراسة العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم إلى أبعد من هذا المدى فأحسن السبل الآن هى أن نتخذ من الحلم نفسه نقطة بدايتنا ، فنسأل : ما هى الدلالة التى لهذه الخاصة أو تلك من الخصائص الصورية لتصوير الحلم بالنسبة إلى أفكاره الكامنة ؟ وأولى هذه الخصائص التى لا يمكن إلا أن تسترعى نظرنا فى الحلم هى التفاوت فى الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم وتميز أجزاء معينة منه — أو تميز أحلام بأكملها — إذا هى قورنت فيما بينها . والتفاوت فى الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم يشمل سلماً بأجمعه يتدرج من حدة فى الصك يجنح المرء — وإن يكن بغير حق — إلى وصفها بأنها تفوق الواقع ، إلى غموض محنق نعلن أنه سمة تتميز بها الأحلام لأنه لا يقبل المقارنة الصحيحة بأى درجة من درجات اللاتميز الذى قد ندركه فى الموضوعات الحقيقية . يضاف إلى ذلك أننا فى العادة نصف الانطباع الذى نتلقاه من موضوع غير متميز من موضوعات الحلم بقولنا إنه انطباع « سريع المرور » بينما يخيل إلينا أن صور الحلم المتميزة قد تعرضت لإدراكنا زمناً أطول . وسؤالنا الآن هو : أى شروط فى مادة الحلم تجلب هذا التفاوت فى الشدة الحسية بين مختلف أجزاء الحلم ؟

بوساطة تشنجاتها الجسمية (وكانت فى خلالها تحرك شفتيها تصويراً للقبل ، وتبسط ذراعيها تصويراً للعناق) ، ثم بعد ذلك تندفع إلى الغرفة المجاورة وتجلس على مقعد وترفع رداءها حتى يظهر قدميها بينما تتصنع قراءة كتاب ، ثم بعد ذلك تتحدث إلى (أى تجيبنى) . وبهذه المناسبة أنظر ملاحظة آرتميدوروس : « على المرء حين يفسر الأحلام أن يستعرضها من البداية إلى النهاية ، ثم مرة أخرى من النهاية إلى البداية . . . »

إن علينا فى هذا الموضع أن نناقش أولا عدة من المظان لا يكاد يكون مفر من تواردها على الذهن . فإنه إذا كانت مادة الحلم تضم إحساسات حقيقية نشعر بها أثناء النوم ، فأغلب الظن أننا سنفترض مقدماً أن هذة الإحساسات أو عناصر الحلم المستمدة منها تحظى فى محتوى الحلم بشدة خاصة ، فإذا عكسنا هذه القضية خرج أن ما يبدو فى الحلم ذا شدة حسية خاصة لا بد راجع إلى مثل هذه الإحساسات الحقيقية الحادثة فى خلال النوم . غير أن خبرتى الخاصة لم تؤيد هذا القول قط . فليس من الصحيح أن عناصر الحلم المستمدة من إحساسات النوم الحقيقية (أى من المنبهات العصبية) تمتاز بشدة خاصة دون غيرها من العناصر الناشئة عن الذكريات : إن عامل الواقع صفر فى تحديد شدة عناصر الحلم . .

وقد يظن المرء بعد ذلك أن هناك علاقة بين الشدة الحسية التى لمختلف صور الحلم (وأعنى حدتها) وبين الشدة النفسية التى للعناصر المقابلة لها فى أفكار الحلم . وفى هذه الحالة تكون الشدة الحسية مطابقة للقيمة النفسية : فأعلى العناصر شدة هى أيضاً أهمها ، تلك التى تكون النقطة الرئيسية فى أفكار الحلم . نعم ، إننا نعلم أن هذه العناصر بالذات لا تلقى فى معظم الأحيان قبولا فى محتوى الحلم بسبب الرقابة ، ولكن من الجائز مع هذا أن تعزز مشتقاتها المباشرة التى تنوب عنها فى الحلم بدرجة مرتفعة من الشدة ، دون أن تصير لذلك بالضرورة مركز الحلم . غير أن هذا التوقع يخيب بدوره عند البحث المقارن بين الحلم الظاهر ومادته الأصلية ؛ فما من علاقة بين شدة العناصر هنا وشدتها هناك ، وإنما الحق أن « انقلاباً تاماً فى جميع القيم النفسية » [بتعبير نيتشه الذائع] قد وقع بين مادة الحلم والحلم . فما يشغل بين أفكار الحلم مكاناً يظهر به على سواه ، قد لا تكتشف فى أحيان كثيرة نائبه الأوحد فى الحلم إلا فى عنصر عارض طغت عليه صور أقوى حتى حجبته .

إن الحقيقة هى أن شدة عناصر الحلم تحدد من طريق مختلف ، يحددها عاملان مستقلان كل عن الآخر . فمن السهل أن نرى — أولا — أن هذه العناصر التى يفصح تحقيق الرغبة عن نفسه بوساطتها تصور فى الحلم تصويراً ذا شدة خاصة ، والتحليل ينبئنا — ثانياً — أن عناصر الحلم ذات الشدة الحسية الأعلى هى التى تخرج منها أيضاً أكثر المستدعيات ، أى أن هذه العناصر الأشد هى فى الوقت عينه أكثر العناصر حتما .

ولسنا نغير معنى هذه القضية الأخيرة المقامة على التجربة إذا نحن صغناها فى الصورة الآتية : تتناسب شدة عناصر الحلم مع مقدار العمل التكثيفى الذى بذل فى تكوينها . ولنا أن نتوقع أن يكون الإعراب فى صيغة واحدة عن هذا الشرط وعن سابقه الخاص بتحقيق الرغبة أمراً يدخل فى حيز الإمكان .

وأنبه هنا إلى أن المشكلة التى كنت أعالجها الآن — وأعنى بها علل التفاوت فى الشدة أو الوضوح بين عناصر الحلم المتفرقة — يجب ألا تخلط بمشكلة أخرى ، هى مشكلة التفاوت فى الوضوح بين أحلام بأكملها أو فقرات من أحلام. فالوضوح فى الحالة الأولى ضد الغموض ، وأما فى الحالة الثانية فهو ضد التشوش . ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن درجات التفاوت فى هاتين الكيفيتين تصعد وتنزل معاً فى كلا السلمين : فإذا بدت إحدى فقرات الحلم خالية من التشوش كانت فى الأغلب مشتملة على عناصر شديدة ، وأما الحلم المختلط فيتكون على العكس من عناصر ضعيفة فى الشدة . ومع هذا فالمشكلة التى تواجهنا فى حالة التدرج من الوضوح الظاهر إلى التشوش والغموض أعقد كثيراً من مشكلة التفاوت فى درجات الشدة الحسية بين عناصر الحلم ، بل الحق أن المشكلة الأولى مشكلة تمتنع على المناقشة هنا لأسباب سوف تتبين فيما بعد [ص ٤٦٩] . هذا ، ويتفق أحياناً أن نكتشف لفرط دهشنا أن إحساسنا بوضوح الحلم أو بتشوشه لا يمت بسبب إلى صنعة هذا الحلم ، بل هو صادر عن مادة أفكار الحلم وجزء من أجزائها : مثال ذلك أنى أذكر حلماً بدا لى حين استيقظت حسن الصنعة ، خالياً من الثغرات ، واضحاً ، حتى أننى عقدت العزم وأنا لم أزل فى سكرة النوم على إدخال مقولة جديدة من الأحلام لا تخضع لميكانيكيات التكثيف والنقل بل يحق وصفها بكونها « تخييلات فى أثناء النوم » ، فلما أنعمت النظر تبين أن هذا الحلم النادر كان فيه من خلل الصنعة وركاكتها مثل ما فى سواه ، ولهذا تركت مقولة الحلم التخييلى[1] . كان مضمون هذا الحلم — بعد أن انتهيت إليه — هو أننى أدلى إلى صديقى [فليس] بنظرية عويصة طال التنقيب عنها فى الثنائية الجنسية ، وكانت قوة الحلم على تحقيق الرغبة هى المسئولة فى أن بدت هذه النظرية (ولم تكن قد ذكرت فى الحلم) واضحة خالية من الثغرات . وهكذا فما حسبته حكماً على الحلم المنهى كان فى الحقيقة جزءاً من محتوى الحلم وأهم جزء . وكأن عمل الحلم هنا قد امتد

(١) [١٩٣٠ :] ولست أدرى اليوم أمصيب أنا أم مخطىء .

إلى بواكير أفكارى المستيقظة فقدم لى فى صورة الحكم على الحلم هذا الجزء من مادة الحلم الذى لم يستطع النجاح فى تصويره فى الحلم تصويراً وافياً . ورأيت مرة حلماً يوازن حلمى هذا تماماً الموازنة عند مريضة رفضت أن تقص حلماً كان يلزم تحليله رفضاً قاطعاً بحجة أنه « غامض جداً مختلط جداً » ، ثم ذكرت بعد لأى وهى تكرر احتجاجها هذا أن الحلم قد ضم أشخاصا كثيرين : هى وزوجها ووالدها ، ولم تكن تعلم إذا كان زوجها هو والدها ، أو من والدها على الحقيقة ، أو شىء من هذا القبيل . فلما قرن هذا الحلم بخواطرها أثناء الجلسة ، اتضح بما لا يرقى إليه الشك أن الأمر يتعلق بتلك القصة الشائعة بين أحداث كل يوم : قصة الخادم التى تضطر إلى الاعتراف بأنها تنتظر وليداً ولكنها لا تعلم « من هو الوالد (والد الطفل) على الحقيقة ».[1] والغموض الذى أبداه الحلم كان إذن — فى هذه الحالة أيضاً — جزءاً من المادة التى أثارت الحلم ، أى أن بعض هذه المادة قد تمثل فى الصورة التى اتخذها الحلم : إن الصورة التى يبدو الحلم عليها أو الصورة التى يحلم بها تستخدم فى تصوير مادة الحلم الكامنة استخداماً شائعاً إلى درجة تبعث على الدهش .

والتعليقات التى نعلق بها على الحلم والملاحظات الظاهرة البراءة التى تعن لنا فى صدده — كل هذه أيضاً يكثر استخدامها فى إخفاء جزء مما نحلم به — وإن كان الأصدق بالطبع أنها تفضحه — بطريقة هى غاية فى اللطافة . مثال ذلك أن يقول حالم : إن الحلم قد انمسح فى هذا الموضع ، ثم إذا التحليل يسوق إلى ذكرى طفلية فحواها أن الحالم قد تجسس مرة على شخص كان يمسح نفسه بعد التبرز . وها هو ذا مثال آخر يستحق أن نذكره مفصلا : فقد حلم شاب حلماً واضحاً غاية الوضوح ذكره بتخييلات من صباه ظلت محفوظة فى شعوره ، وكان مؤدى الحلم أنه قد رأى نفسه ساعة المساء فى فندق فى مصيف وأخطأ رقم غرفته فدخل غرفة وجدها سيدة وابنتها ، وكن جميعاً ينزعن ثيابهن تأهباً للنوم ، ويمضى الحالم قائلا : « وهنا تخللت الحلم ثغرات ، هناك شىء ناقص ، وأخيراً أرى فى الحجرة رجلا يريد أن يلقى بى خارجها فأضطر إلى مصارعته . » ويجهد الحالم فى غير طائل لكى يتذكر ما هو هذا التخييل الصبيانى الذى كان واضحاً أن الحلم يلمح

(١) أعراض هستيرية مصاحبة عند هذه المريضة : انقطاع الطمث ثم انقباض شديد كان هو شكاتها الرئيسة .

إليه ولكى يتذكر مرماه ، وأخيراً يتضح أن ما نبحث عنه قد أعطيناه ، أعطتنا إياه تلك الملاحظة عن جزء الحلم غير المتميز : فإن « الثغرات » هى الأعضاء التناسلية للنسوة المتأهبات للنوم و « هناك شىء ناقص » تصف السمة الرئيسية لأعضاء التناسل عند الأنثى . وقد كان المريض يتحرق فى صباه تطلعاً إلى رؤية أعضاء المرأة ، وكان لم يزل ينزع إلى الأخذ بتلك النظرية الجنسية الطفلية التى تنسب إلى المرأة عضواً مذكراً .

ويلبس حالم آخر إحدى ذكرياته المماثلة صورة جد مشابهة ، فيحلم : أذهب مع الآنسة ك . فى مطعم فولكس جارتن . . . ، هنا تأتى فقرة مبهمة ، قَطْع . . . ، أرانى بعد ذلك فى بهو منزل من منازل البغاء حيث أرى امرأتين أو ثلاثاً ، إحداهن فى قميص ولباس . »

التحليل : إن الآنسة ك . هى ابنة رئيسه السابق وهى تقوم مقام أخت بديلة — كما يسلم هو بذلك . ولم تكن الفرصة قد سنحت له بالتحدث إليها إلا لماما ، ولكن وقع مرة أن دار بينهما حديث « كان كأنما كنا نعترف فى أثنائه لأنفسنا بكياننا الجنسى ، كأنما كنت أقول لها : إننى رجل وأنت امرأة » . وهو لم يدخل هذا المطعم إلا مرة واحدة مع أخت صهره — وهى فتاة يستوى أمرها فى نفسه . وحدث مرة أخرى أنه صحب ثلاث سيدات إلى هذا المطعم ، وكن أخته وأخت زوجها التى ورد ذكرها ثم زوجة أخيه [وبالترجمة الحرفية : أخته بالمصاهرة] . وثلاثهن يستوين عنده إلى أقصى مدى ، بيد أن ثلاثهن يدخلن فى مقولة « الأخت » . فأما منزل البغاء فكان لم يطرقه الحالم إلا نادراً ، مرتين أو ثلاث مرات فى حياته .

ولقد بنى التفسير على « الفقرة المبهمة » وعلى « القطع » اللذين عرضا فى الحلم ، وكانت فحوى التفسير هى أن الحالم فى تطلعه الصبيانى قد استكشف أحيانا — وإن تكن بالنادرة — أعضاء أخته التى تصغره بأعوام قلائل . وبعد ذلك ببضعة أيام تذكر الحالم هذا الجرم الذى أومأ إليه الحلم تذكراً شعورياً .

وجميع الأحلام التى ترد فى الليلة الواحدة يؤلف محتواها جزءاً من كل واحد . وإن انقسامها أقساماً متعددة وكذلك عدد هذه الأقسام ونحو تجمعها — كل هذا أمر له معناه ويجوز لنا أن نعده إفادة منبعثة عن أفكار الحلم الكامنة . فمن الواجب حين نفسر أحلاماً تتكون من أقسام رئيسة أو حين نفسر — بوجه أعم — أحلاماً وقعت فى خلال

الليلة عينها ، من الواجب ألا ننسى إمكانية أن تكون أمثال هذه الأحلام المنفصلة المتعاقبة ذاتَ معنى واحد ، وأنها ربما كانت تعرب عن ذات الاندفاعات بمواد مختلفة . فإذا كان الأمر كذلك ، غلب أن يكون أول هذه الأحلام المتناظرة أكثرها تشويها واستحياء ، بينا تزيد اللاحقة ثقة وتميزاً .

ومن هذا القبيل حلم فرعون فى التوراة ، حلم السنابل والبقرات الذى فسره يوسف . لقد روى يوسيفوس (تاريخ اليهود القديم ، الكتاب الثانى ، الفصلان الخامس والسادس) هذا الحلم فى تفصيل يزيد على ما ورد فى التوراة . فقد جاء عنده أن فرعون بعد أن قص حلمه الأول . قال : « وبعد أن رأيت هذه الرؤيا استيقظت ، وهأنذا مبعثر النفس أتدبر ما عساه يعنى هذا الطائف ، ثم عدت إلى النوم فرأيت حلما ثانياً أعجب من سابقه ، روعنى وبث الاضطراب فى نفسى أكثر مما فعل الأول . . . » فلما سمع يوسف رواية الملك أجاب : « هذا الحلم معناه واحد، أيها الملك، وإن تراءى فى صورتين . . . »

ويصف يونج فى بحثه « مقال فى سيكولوجية الإشاعة » كيف حلمت تلميذة حلماً عشقيا مستخفياً ففهمته قريناتها من غير تفسير ما ، ثم أخذنه عنها ووسعن منه وحرفن فيه ، وهو يلحظ فى صدد إحدى روايات هذا الحلم : « أن الفكرة الأخيرة فى سلسلة طويلة من صور الحلم تتضمن على التحقيق هذا الذى حاولت الصورة الأولى تصويره . فالرقابة تعمل على دفع المركب [الفكرى الانفعالى] أطول زمن ممكن بسلسلة لا تنقطع من الستائر الرمزية والنقل والأقنعة البريئة . . . الخ . » (١٩١٠ ب) . ولقد عرف شرنر هذه الخاصة فى تصوير الحلم حق المعرفة ، وهو يصفها — ناظراً إليها من وجهة نظره فى التنبيه العضوى — باعتبارها قانونا كلياً ، فيقول (١٨٦١ ، ١٦٦) : « والمخيلة أخيراً تتبع قانوناً عاماً فى جميع أبنية الحلم الرمزية الناشئة عن منبهات عضوية معينة ؛ فهى فى مبتدأ الحلم لا تلمح إلى الموضوع الذى يصدر عنه التنبيه إلا أبعد التلميح وأقله تحرياً للحقيقة ، ولكنها تضطر فى النهاية إلى أن تظهر المنبه إظهاراً سافراً ، هو أو العضو المعرض له أو وظيفة هذا العضو ، على حسب الأحوال ، وبذلك يبلغ الحلم — وقد عَيَّنَ على علته العضوية — نهايته . . . »

ولقد أتى أوتو رانك فى بحثه « حلم يفسر نفسه بنفسه » (١٩١٠) بما يؤيد قانون شرنر هذا تأييداً بديعاً . فهو يروى حلماً لفتاة تكون من حلمين جاءا فى ليلة واحدة مع

فاصل زمنى ، وانتهى ثانيهما بالإنعاظ . وكان من الممكن تفسير هذا الحلم الثانى تفسيراً مفصلا بدون مشاركة كبيرة من جانب الحالمة ، وكانت كثرة العلاقات بين محتوى الحلمين تمكننا من أن نرى أن الحلم الأول كان يعرب فى استحياء عما أفصح عنه الحلم الثانى ، بحيث أعان الحلم الثانى — الحلم الذى انتهى بالإنعاظ — على استجلاء الحلم الأول استجلاء كاملا . ويستخدم رانك هذا المثال بحق فى مناقشة المغزى الذى لأحلام الإنعاظ أو الإمناء بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة .

بيد أن خبرتى قد دلت مع ذلك على أننا لا نستطيع إلا فى حالات نادرة أن نفسر وضوح الحلم أو اختلاطه بما تتضمنه مادته من الثقة أو التردد وسأكشف فيما بعد عن عامل فى تكوين الحلم لم أذكره حتى الآن ، على فعله يتوقف تدرج الحلم بين هاتين الكيفيتين توقفاً جوهريا . [أنظر ص ٤٩٦ .]

ويحدث أحياناً بعد أن يدوم فى الحلم فترة موقف ومنظر معينان أن يطرأ انقطاع يوصف بتلك الكلمات : « وعندئذ تغير المكان فصار كأنه مكان آخر فى الوقت عينه ، وهناك وقع كذا وكذا . » وبعد برهة يتصل السياق الرئيس للحلم ، ويتضح أن ما قد قطعه على هذا النحو إنما كان جملة شرط محتواة فى مادة الحلم ، فكرة اعتراضية — فالحلم قد أعرب عن الشرط المتضمن فى أفكار الحلم بالمزامنة . أى أن « إذا » قد انقلبت إلى « بينما » .

وما معنى هذا الإحساس بالحركة المكفوفة الذى يشيع فى الأحلام كل هذا الشيوع ويقرب من الهيلة كل هذا القرب ؟ يريد المرء المشى لكنه لا يتحرك من موضعة . أو يريد أن يبلغ شيئاً من الأشياء فيصطدم بالعقبة تلو العقبة . القطار يؤذن بالحركة وهو لا يستطيع الوصول إليه ، أو هو يرفع يده ليثأر الإهانة ، فإذا يده عاصية ، الخ . إنه إحساس قد صادفناه من قبل عند التحدث عن أحلام الاستعراض [ص ٢٥٩] ، ولكننا لم نعمل بعد على تفسيره عملا جدياً . قد نجيب بأن شلل الحركة يسود عند النوم وأن هذا الشلل هو ما نشعر به حين نستشعر هذا الإحساس . وإنه لجواب سهل ، لكنه غير كاف . فإن لنا أن نسأل : إذا كان الأمر كذلك فلم لا نحلم دوماً بأشباه هذه الحركة المكفوفة ؟ لأحرى بنا أن نفترض أن هذا الإحساس الذى قد ينبعث فى كل وقت من أوقات النوم إنما يخدم هدفاً بعينه من أهداف التصوير ، وأنه لا ينبعث فعلا إلا حين تكون بمادة

الحلم حاجة تدعو إلى تصويرها هذا التصوير وحده .

و « العجز عن كل فعل » لا يظهر دائماً فى صورة الإحساس ، بل إنه فى بعض الأحيان قد يكون جزءاً من محتوى الحلم ليس غير . وأمثال هذه الحالات صالحة فى رأيى تمام الصلاحية لأن تلقى بعض الضوء على معنى هذه السمة من سمات الحلم . وها هى ذى خلاصة حلم ظاهرة أننى أتهم بالحيد عن الأمانة : المكان مزيج من مصحة خاصة ومن محال أخرى متعددة . يظهر خادم يستدعينى لأن هناك فحصاً يراد إبراؤه . أعلم فى الحلم أن شيئاً قد فقد وأن الفحص مرجعه الارتياب فى أن أكون استوليت على الشىء المفقود . (يتبين من التحليل أن للفحص معنيين وأنه يشمل الفحص الطبى .) أصحب الخادم فى هدوء وأنا شاعر ببراءتى وبما لى من مكانة الطبيب فى هذه المصحة . يظهر خادم آخر بأحد الأبواب ويقول وهو يشير إلى : لماذا أحضرته ؟ إنه شخص محترم . أذهب بعد ذلك غير مصحوب إلى قاعة كبرى نصبت فيها آلات تذكرنى بالجحيم وبما يحتويه من عدد العقاب الجهنمية . أرى أحد زملائى وقد مد على عدة من هذه العدد . كان هذا الزميل يملك أكثر من سبب يدعوه إلى أن يشغل بأمرى ، بيد أنه لا يلتفت إلى . يقال لى عندئذ : إننى أستطيع المضى لشأنى ، ولكننى لا أجد قبعتى وأظل عاجزاً عن الذهاب .

من البين أن تحقيق الرغبة فى هذا الحلم يقوم فى كونى قد عرفت بريئاً يجوز له المضى لشأنه . ولا بد إذن أن أفكار الحلم كانت مشتملة على مادة من كل نوع حوت نقيض ذلك . فأن يجاز لى الانصراف تلك علامة التبرئة . فإن كانت نهاية الحلم تجىء بحدث يعوقنى عن الذهاب ، لم يبعد أن تكون هذه سمة يفصح فيها النقيض المكبوت عن نفسه . وعجزى عن العثور على القبعة يعنى بناء على ذلك : لستَ رجلا بريئا بعد . وما يظهر فى هذا الحلم من « عجز عن كل فعل » هو إذن إعراب عن المناقضة ، إعراب عن « كلا » ، بحيث يحقق علينا الآن أن نصحح ما قدمناه من قبل أن الحلم لا يملك الإفصاح عن النفى [1] . [أنظر ص ٣٢٨ .]

(١) تضمن التحليل الكامل للحلم إشارة إلى خبرة من خبرات الطفولة جاءت من ذلك الطريق : " لقد أدى المغربى واجبه ، فى استطاعة المغربى أن يمشى لشأنه . " [ينبه ستراشى إلى أن هذا السطر — وهو لشيلر — قد ذكر هنا محرفا ؛ فقد جاء فى الأصل " أدى عمله " لا واجبه .] ثم يتبع هذا السؤال المازح : كم كان عمر المغربى حين أدى واجبه ؟ سنة واحدة ما دام كان يستطيع المشى . (ويبدو أننى قد ظهرت إلى الدنيا بشعر أسود كث حتى ان أمى قد لقبتنى بالمغربى الصغير) . — وأما العجز عن العثور على القبعة فكان حدثا من أحداث اليوم السابق استغله الحلم فى أكثر من معنى ؟ ذلك أن خادمتنا — بعبقريتها فى حفظ الأشياء — كانت قد أخفت تلك القبعة عن نظرى . — كذلك تتضمن نهاية الحلم اطراح بعض الأفكار السوداء المتصلة بالموت : إننى لا أزال بعيداً من أكون قد أديت واجبى ، ومن حق إذن ألا أذهب بعد . فالحياة والموت يعالجان فى هذا الحلم كما هو الشأن فى حلم جوته والمشلول الذى جاء قبل ذلك بزمن قصير (أنظر ص ٣٣٦ ثم ص ٤٣٨)

وأما الأحلام الأخرى التى يظهر فيها العجز عن الحركة فى صورة إحساس وليس فى صورة موقف وحسب — فتعرب عن ذات التناقض إعراباً أقوى : فى صورة إرادة تقاومها إرادة مضادة. وإحساس الحركة المكفوفة يمثل إذن صراعاً فى الإرادة. [أنظر ص ٢٦٣ .] ذلك أننا سوف نعلم [ص ٥٥٦] أن ما يصحب النوم من شلل الحركة هو على التحقيق أحد الشروط الأساسية للعمليات النفسية الحادثة فى أثناء الحلم . وإن انتقال دافع من الدوافع إلى المسارات الحركية ليس شيئاً آخر سوى الإرادة ويقيننا بكوننا لن نحس هذا الدافع فى خلال النوم إلا مكفوفاً هو الذى يجعل العملية فى جملتها صالحة كل هذه الصلاحية الفائقة لتصوير فعل الإرادة وتصوير « كلا » التى تناهضه . ومن السهل أيضاً أن نرى فى ضوء تفسيرى للهيلة لم كان الإحساس بكف الإرادة يقرب كل هذا القرب من الهيلة ولم غلب اقترانه بها فى الأحلام ، فإن الهيلة دافع ليبدى أصله فى اللاشعور وكفه ما قبل الشعور[1] . وعلى ذلك ، حيثما ارتبط الكف بالهيلة فى الحلم فلا بد أن الأمر يتعلق بإرادة كانت قادرة فى زمن ما على توليد الليبيدو ، أى بهائج جنسى .

وسأتعرض فى موضع آخر (أنظر ما بعد [ص ٤٨٥]) لهذا الحكم الذى كثيراً ما يظهر أثناء الحلم فى تلك العبارة : « ما هذا إلا حلم »، وسأناقش عندئذ معنى هذا الحكم والقيمة النفسية التى يجب أن نعزوها إليه . ولكننى أستبق الأمور فأقول : إن هذا الحكم يهدف إلى التهوين من قيمة ما نحلم به . وقد أمكن شتيكل بتحليل بعض الأمثلة المقنعة أن يجد سلا سهلاً لذلك لمشكلة أخرى ، ممتعة ، قريبة من مشكلة هذا الحكم ، وأعنى بها : ما الذى نعرب عنه حين نصف محتوى الحلم بأنه « قد حلمنا به » فى غضون الحلم نفسه ؟ أى مشكلة « الحلم فى الحلم » . فالمقصود مرة ثانية هو حط قيمة هذا الذى « نحلم به » ، سلبه حقيقة ؛ فما نتابع الحلم به بعد أن نستيقظ من « الحلم المندرج فى الحلم » هو ما يهدف رغبة الحلم إلى استبداله بحقيقة ممحوة ، ولذلك جاز لنا أن نفترض أن « المحلوم به » فى الحلم هو الذى يصور الحقيقة ، هو الذكرى الصادقة ، وأما الحلم المحيط به فلا يصور على العكس سوى رغبة الحلم وحدها . فأن تدرج محتوى ما فى « حلم فى حلم » يعدل رغبتك فى لو أن الجزء الموصوف بأنه حلم لم يقع قط . وبعبارة أخرى : إذا أورد عمل الحلم حدثاً بعينه على أنه حلم فى حلم ، كان ذلك أقطع الأدلة على كون هذا الحدث قد وقع حقيقة وأقوى إثبات لذلك . فعمل الحلم يتخذ الحلم كصورة من صور التنصل وهو بذلك يؤيد ما قد حدسناه من أن الحلم تحقيق رغبة .

د

اعتبار قابلية التصوير

لقد شغلنا حتى الآن ببحث الطريقة التى يصوربها الحلم العلاقات القائمة بين أفكار الحلم ، ولكننا فى هذه الأثناء قد لمسنا أكثر من مرة تلك المشكلة الأخرى : ما هو التغيير الذى يصيب مادة الحلم بوجه عام من أجل تكوين الحلم ؟ فنحن نعلم الآن أن ثمت ضغطاً يصيب مادة الحلم بعد أن تجرد من جزء كبير من علاقاتها ، على حين تجرى فى الوقت عينه نقلات من حيث الشدة بين عناصر هذه المادة ، نقلات تحدث بالضرورة انقلاباً فى قيمها النفسية . والنقلات التى نظرنا فى أمرها حتى الآن قد اتضح أنها تتلخص فى أن تستبدل بفكرة معينة فكرة أخرى تقرب منها فى التداعى على نحو من الأنحاء ، ثم هى — أعنى هذه النقلات — كانت تسخر فى خدمة التكثيف ؛ فبوساطتها كان ينفذ إلى محتوى الحلم عنصر متوسط مشترك بين عنصرين بدل هذين العنصرين جميعاً . ولكننا لم نذكر بعد على الإطلاق نوعاً آخر من النقل مع أن التحليل يرينا أن هذا النوع الآخر موجود ، وأنه يبين عن نفسه فى تبديل التعبير اللغوى عن الأفكار . ففى كلتا الحالتين يتعلق الأمر بنقل يتم على طول سلسلة المستدعيات ، ولكن ذات العملية تقع فى منطقتين نفسيتين مختلفين ، فيكون حاصل هذا النقل — فى حالة — أن يحل عنصر محل عنصر آخر ، على حين يقع — فى الحالة الأخرى — أن يستبدل عنصر بمنطوقه اللفظى منطوقاً آخر .

هذا النوع الثانى من النقل الذى يقع عند تكوين الحلم لا يملك أهمية نظرية رفيعة وحسب ، بل هو — فوق ذلك — مؤهل تأهيلا فريداً لأن يعلل ما يستخفى وراءه الحلم من مظهر اللامعقولية الخيالية . ذلك أن هذا النقل يؤدى فى العادة إلى تلك النتيجة : أن تستبدل بعبارة تعرب عن إحدى أفكار الحلم إعراباً فاقد اللون مجرداً عبارة أخرى مشبهة عيانية[1] . ومزية هذا الاستبدال — ومن ثم بغيته — واضحة كل الوضوح :

(١) [المراد بالعيانى ضد المجرد ، والعبارة المشبهة هى تلك التى تخلع على الفكرة شبهاً محساً ، ضد العبارة المجردة . وفى باب العبارة المشبهة تدخل معظم الاستعارات وضروب المجاز المرسل والكناية] .

فما هو مشبه قادر على أن يُصَوَّر فى الحلم ، قابل لأن يدرج فى موقف من المواقف . بينما التعبير المجرد يواجه التصوير الحلمى بصعوبات تشبه ما يواجه الرسام عند تصوير المقال السياسى الافتتاحى بإحدى الصحف . ولكن قابلية التصوير لا تخرج وحدها غانمة من هذا الاستبدال ، بل يمكن التكثيف والرقابة أن يخرجا منه كذلك بما يخدم مآربهما . ففكرة الحلم تظل غير قابلة للاستخدام ما بقيت فى عبارة مجردة ، ولكنها ما أن تصاغ فى لغة مشبهة حتى يتيسر عن ذى قبل أن تظهر بين التعبير الجديد وبين سائر مادة الحلم نقط التماس والعينيات [١] التى يقتضيها عمل الحلم ويخلقها خلقاً حين لا تكون موجودة من قبل ؛ وذلك لأن الحدود العيانية فى كل لغة أثرى مستدعيات بحكم تطورها من أسماء التصورات المجردة . وفى وسعنا أن نتصور أن جزءا كبيراً من العمل الذى يتم أثناء تكوين الحلم — مستهدفاً رد أفكار الحلم المتفرقة إلى تعبير حلمى يكون على أكثر ما يمكن من الوحدة والاختزال — إنما يتأدى بإدخال تعديل لفظى ملائم فى العبارة عن كل فكرة من أفكار الحلم . فإن اتفق فى خلال ذلك أن كانت هناك فكرة ثبت منطوقها ورسخ لسبب من الأسباب ، كان لهذه الفكرة أثرها فى اختيار صيغ التعبير الممكنة عن سائر الأفكار وفى تحديدها ، وربما كان ذلك منذ البدأ على نحو ما يقع فى قرض الشعر ؛ فإن القصيدة إذا التزمت القافية غل كل بيت فيها تاليه بقيدين : أن يعبر عن معناه تعبيراً مناسباً وأن يجىء هذا التعبير متمشياً مع القافية ، وأحسن القصائد بالطبع مالا تلحظ فيه العمد إلى القافية بل تجىء الفكرتان وقد اختارت كل انفسها منذ البدء — بتأثير متبادل — صورة لفظية لايحتاج الاحتفاظ بالقافية بعدها إلا إلى القليل من الإعمال .

وهناك بضع حالات نرى فيها استبدال العبارة المشبهة بالمجردة يساند التكثيف الحلمى من طريق أكثر بعد مباشرة : وذلك حين يفضى هذا الاستبدال إلى صيغة لفظية تحمل من ازدواج المعنى ما يؤهلها للإعراب عن أكثر من فكرة واحدة من أفكار الحلم . وعلى هذا النحو يدخل عالم النكات اللفظية بأجمعه فى متناول عمل الحلم ويسخر لأغراضه .

---

(٢) [نريد بالعينية العلاقة التى تكون بين حدين كل منهما هو الآخر . ولقد سمينا الفعل الذى يقيم هذه العلاقة « التعيين » identifizierung (أنظر الهامش الذى فى ص ١٧٢) ولهذا سمينا العلاقة نفسها « العينية Identitat » ولم نقل « الذاتية » كما جرت العادة فى المنطق لتجنب الخلط أولا ثم لأن الشائع فهمه من الذاتية هو كون الحد هو هو نفسه ؛ فالذاتية إن شئت عينية بين الحد وذاته لا بينه وبين غيره ، أو هى عينية مجردة ، تكرار أجوف ، لا تتضمن الغيرية فى ذاتها .]

وما لنا أن نعجب للنصيب الذى تشارك به الكلمة فى تكوين الحلم ؛ فالكلمة من حيث هى معقد أفكار كثيرة قد قدر عليها — إن جاز التعبير — الاشتراك[١] ، وإن الأعصبة كالأفكار (القهرية والمخاوف المرضية) لتنتهز هذه المزايا التى تهيئها الكلمة للتكثيف والتقنع انتهازا لا تقل فيه تبجحاً عن الأحلام . فأما أن التشويه الحلمى يربح بدوره من هذا النقل اللفظى فذلك ما يسهل تبينه : فإن من مجالب الخطأ أن تستخدم كلمة واحدة ذات معنيين بدل اثنتين لكل منهما معنى واحد ، ثم إن من شأن النزول عن طريقتنا المألوفة المتزنة فى التعبير لقاء طريقة أخرى مشبهة أن يعطل فهمنا ؛ وبخاصة أن الحلم لا ينبئنا مطلقاً هل الواجب أن نفسر العناصر التى يأتى بها بمعنى حرفى أو مجازى ، تفسيراً مباشراً أو بوساطة تعبير من التعبيرات الدارجة . والحق بوجه عام هو أننا حين نفسر أى عنصر من عناصر الحلم نغدو فى شك لا ندرى معه :

أ) هل الواجب أخذ هذا العنصر بمعنى إيجابى أو سابى (علاقة التضاد) ، أو

ب) هل ينبغى تفسيره تفسيراً تاريخياً (فيكون أثراً من الآثار الذكروية) ، أو

جـ) تفسيراً رمزياً ، أو

د) هل يجب أن يخرج تفسيره من نطقه[٢].

ومع هذا فإن من العدل أن نقول رغم هذا اللبس كله : إن التصوير الذى ينتهى إليه عمل الحلم — ولا ننسى أنه تصوير لم يقصد منه إلى أن يكون مفهوماً — لا يواجه المترجم بصعوبات تفوق ما تطالع به الرسوم الهيروغليفية قراءها .

ولقد ذكرت من قبل أمثلة متكررة على تصاوير حلمية لم تتركب إلا لهذا الاشتراك فى التعبير اللفظى (مثل : « فتحت فمها بأوسعه »[٣] فى حلم حقنة إرما ، و « أظل دون أن أستطيع الذهاب »[٤] فى الحلم الذى ذكرته أخيراً فى ص ٣٤٥ إلخ.) وسأذكر الآن مثالا أخذ فيه صب الفكر المجرد فى عبارات مشبهة بنصيب كبير . وإن الفرق بين مثل هذا التفسير وبين تفسير الحلم بوساطة الرموز ليظل محدداً تحديداً قاطعاً : فى التفسير الرمزى

---

(١) [اللفظ المشترك هو الذى يحمل أكثر من معنى واحد .]

(٢) [أى أن يبنى التفسير استنادا إلى أصوات الألفاظ المستخدمة فى رواية الحلم وما قد تتضمنه من تورية أو غيره .]

(٣) [وكانت هذه الصورة تترجم فكرة : أن تفيض فى الحديث . أنظر ص ١٣٩ .]

(٤) [وكانت هذه الصورة تعنى فى لغة مجردة : ما زال لى الحق فى الحياة] .

يترك اختيار مفتاح الرمز للمفسر ، وأما فى حالات التقنع اللفظى التى نحن بصددها فالمفاتيح معلومة للجميع وواضعها هو العرف اللغوى الثابت . فلو أن المرء أصاب الفكرة الصحيحة فى المناسبة الصحيحة ، أمكنه أن يفسر الأحلام التى من هذا القبيل تفسيراً كاملا أو جزئياً وإن لم يستعن بمستدعيات الحالم .

حلمت سيدة من معارفى الحلم الآتى : إنها فى دار الأوبرا . مشهد لشاجنر دام حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً . نصبت فى القاعة موائد جلس إليها أناس يأكلون ويشربون . يجلس إلى مائدة من هذه الموائد قريب من أقربائها عاد حديثاً من رحلة شهر العسل مع عروسه وبجانبهما رجل من طبقة النبلاء . يقال إن الزوجة الشابة قد أحضرت هذا النبيل معها من رحلة شهر العسل فى علانية تامة كأنما أحضرت قبعة . فى القاعة برج عال وضعت فوقه منصة أحيطت بسياج حديدى . يقف على هذه المنصة قائد الفرقة الموسيقية وكانت له ملامح هانس ريختر . إنه يجرى فى حلقة وراء سياجه هذا وقد تصبب منه العرق إلى درجة مروعة وهو يقود من موضعه ذلك الفرقة الموسيقية التى انتظم أفرادها حول قاعدة البرج . الحالمة — هى — قد قعدت فى إحدى الشرفات مع صديقه لها (أعرفها). تريد أختها أن تمد إليها من القاعة قطعة كبيرة من الجمر قائلة : إنها ما كانت تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول ، وإن البرد فى الشرفات قد أصبح لا شك مثلجاً . (كأنما كان ينبغى تسخين الشرفات أثناء هذا العرض الطويل .)

إن هذا الحلم قد حوى من اللمحات غير المعقولة ما فيه الكفاية ، وإن يكن فيما عدا ذلك قد التف التفافاً طيباً حول موقف واحد . فما معنى هذا البرج الذى ينتصب وسط القاعة والذى منه يدير القائد الموسيقى فرقته ، ثم بخاصة تلك الجمرة التى تمدها إليها أختها ؟ لقد امتنعت عامداً عن طلب أى تحليل لهذا الحلم . ولكننى قد أمكننى بما أعرفه من علاقات الحالمة الشخصية أن أصل مستقلا إلى تفسير أجزاء منه : كنت أعلم أن قلبها قد انعطف إلى موسيقى قضى مرض عقلى على مستقبلة قبل الأوان . فرأيت أن آخذ البرج الذى فى الحلم مأخذا مجازيا ، فخرج أن الرجل الذى ودت لو رأته فى محل هانس ريختر قد علا البرج[1] دون سائر أفراد الفرقة . والبرج يصح وصفه بكونه صورة مزيجة ركبت بعطف بيان[2] ؛ فقاعدته تمثل عظمة الرجل وأما السياج

---

(١) [مجاز دارج فى الألمانية بمعنى علاهم أو فاقهم .]

(٢) [Apposition ويترجمه النحاة أيضاً بكلمة " البدل " . فالفكرة التى تعرب عنها صورة البرج فى الحلم هى : الرجل الذى كان موسيقياً عظيما ، هذا الذى جن فى أواخر حياته . وقولنا : " هذا الذى . . . إلخ " بدل أو عطف بيان .]

الحديدى الذى يعدو الرجل خلفه مثل أسير أو مثل حيوان فى قفصه (وهو ما يشير إلى اسم الرجل المنكود)[١] فيمثل مستأنف قدره . وربما كان « برج المجانين »[٢] هو اللفظ الذى استطاعت هاتان الفكرتان أن تلتقيا فيه .

ويحق لنا بعد أن اكتشفنا منهج الحلم فى التصوير أن نحاول تطبيق المفتاح ذاته على البدوة الثانية غير المعقولة فى هذا الحلم ، وأعنى بها جمرة الفحم التى تمد بها أخت الحالمة يدها . إن « الجمرة » لا بد كانت تعنى « الحب المستسر » :

ما من نار ولا من جمر
يتقد ويستعر
مثل حب مستسر
لا يعلمه أحد[٣] .

ونحن نراها فى الحلم هى وصديقتها وقد ظلتا قاعدتين[٤] ، وأختها الصغيرة التى كانت لا تزال تأمل فى الزواج تسلمها جمراً لأنها لم تكن تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول . ما هذا الذى قد طال ؟ إن الحلم يلوذ هنا بالصمت . ولو أن الأمر كان يتعلق بقصة لقلنا : إن المعنى هو المشهد . أما والأمر يتعلق بحلم فلنا أن نضع الجملة فى ذاتها نصب أعيننا ، وأن نقرر أنها ذات معنيين فنضيف : « حتى تتزوج » . ويؤيد بعد ذلك تفسير « الحب المستسر » ذكرها قريبها الجالس فى القاعة مع زوجه وما ينسب إلى هذه الأخيرة من الحب المكشوف . فالمقابلة بين الحب المستسر والمكشوف ، بين نارها وبرودة الزوجة الشابة تسيطر على الحلم . وفى كلتا الحالتين نجد رجلا « عالى المكانة » هو حد مشترك بين الرجل الذى من طبقة النبلاء وبين الموسيقى الذى كان معقد هاته الآمال الكبيرة .

إننا بالمناقشة السابقة نكون قد كشفنا فى النهاية عن عامل ثالث لا تنبغى الاستهانة بنصيبه فى تحويل أفكار الحلم إلى محتوى الحلم ، هذا العامل هو : اعتبار قابلية التصور فى المادة النفسية التى يستخدمها الحلم استخداماً خاصاً — أى فى صور مرئية

---

(١) Hugo Wolf.
(٢) [Narrenturm تعبير ألمانى قديم يقال للمارستان .]
(٣) [من أغنية ألمانية شعبية .]
(٤) [تعبير ألمانى دارج بمعنى : لم تتزوجا .]

على الأغلب . ولهذا كانت تُفَضَّل – بين الأفكار الثانوية المقترنة بأفكار الحلم الجوهرية – تلك التى تقبل التصوير المرئى ، وكان عمل الحلم لا يتردد فى أن يتكلف صوغ الأفكار الرئيسة فى صيغة لفظية جديدة ، ولو كانت أقل ألفة ، إذا كان فى ذلك ما يؤدى إلى تيسير التصوير وما يؤدى – من ثم – إلى إنهاء التوتر السيكولوجى الذى ينجم عن التفكير المحبوك . وهذا الصب للمحتوى الفكرى فى قالب آخر قد يسخر فى الوقت عينه فى خدمة العمل التكثيفى ويخلق علاقات جديدة – ما كان لتكون لولا ذلك – بفكرة أخرى . هذا بينما يصح أن تكون هذه الفكرة الأخرى قد غيرت هى نفسها منطوقها الأصلى لكى تلاقى الأولى فى منتصف الطريق .

ولقد دل سيلبرير (١٩٠٩) على طريقة تمكننا من أن نلاحظ استحالة الأفكار إلى صور فى أثناء تكوين الحلم ملاحظة مباشرة، وتمكننا بذلك من أن ندرس هذا الوجه من أوجه عمل الحلم بمعزل عن غيره . فهو كان إذا حمل نفسه على عمل فكرى وهو مكدود يغالب النوم – رأى الفكرة تفلت منه وتظهر فى محلها صورة كان يسعه عندئذ أن يرى فيها بديل الفكرة . وهو يصف هذا البديل وصفاً غير موفق كل التوفيق بقوله : إنه : « ذو رمزية ذاتية »[1] ، وأسوق هنا بضعة أمثلة من مقال سيلبرير ، كما أننى سأضطر إلى العود إلى هذه الأمثلة فى موضع آخر [ص ٤٩٩] لخصائص معينة فى الظواهر الملاحظة .

« المثال الأول : أفكر فى أن على أن أراجع فقرة ناشزة فى إحدى مقالاتى :

« الرمز : أرانى أسوى قطعة من الخشب . »

« المثال الخامس : أحاول أن أتبين الهدف من دراسات ميتافيزيقية معينة كنت انتويت القيام بها . هذا الهدف – كما حدثت نفسى به – هو أن يشق المرء طريقه فى بحثه عن الوجود إلى صور أسمى من الشعور أو إلى طبقات أعلى من طبقات الوجود .

« الرمز : أدفع سكيناً طويلة تحت فطير كبير ، كما لو كنت أريد أن آخذ قطعة منه .

« التفسير : إن حركة يدى بالسكين تعنى (شق الطريق) الذى تحدثت عنه . . . وأما

---

(١) [كان غرض سيلبرير من هذه التسمية هو الدلالة على أن الصورة البديلة ترمز إلى العملية الفكرية من حيث هى فعل ذاتى بقدر ما ترمز إلى المحتوى الموضوعى للفكرة فى ذاتها .]

مأخذ هذا الرمز فبيانه ما يأتى : يتفق بين الحين والحين ونحن إلى المائدة أن أقوم بقطع فطير كبير وتوزيعه . . وهى مهمة أؤديها مستعينا بسكين طويلة مرنة يحتاج استعمالها إلى بعض العناية . ثم رفع الشرائح بعد قطعها رفعاً نظيفاً ، ذلك على الأخص ما يقترن ببعض الصعوبات : فلا بد هنا من أن تدفع السكين فى تؤدة تحت الشريحة المقطوعة (شق الطريق ، ببطء حتى الوصول إلى الأسس) . بيد أن الصورة قد حوت من الرمز ما يزيد على ذلك : فالفطير الذى تراءى لى فى الصورة الرمزية كان من النوع الذى يصنع طبقات يجتازها السكين عند القطع (طبقات الشعور والتفكير) . »

« المثال التاسع : ينقطع خيط تفكيرى وأحاول استئنافه ، ولكننى أضطر إلى التسليم بأن نقطة الاتصال قد غابت عنى تماماً .

« الرمز : صفحة من مؤلف ما ، سقطت سطورها الأخيرة . »

وإذ كانت النكات والاستشهادات والأغانى والأمثال تشارك بنصيب كبير فى الحياة العقلية للمثقفين ، كان مما يتفق وتوقعنا كل الاتفاق أن نرى هذا النوع من الأقنعة يكثر استخدامه إلى أقصى مدى فى تصوير أفكار الحلم . ما الذى يعنيه — مثلا — أن تظهر فى الحلم عربات تحمل نوعاً واحداً من الخضر يختلف مما تحمله الأخريات ؟ إن ذلك هو الضد المرغوب فيه لقولنا : « كرنب وجزر » ، أى [— فهذا هو معنى ذلك التعبير فى اللغة الألمانية —] « شذر مذر » ، وهو — إذن — يعنى « الفوضى » . ولقد عجبت لأن هذا الحلم لم يرو لى سوى مرة واحدة[1] . ولم تظهر رموز حلمية تصدق صدقاً شاملا إلا بالنسبة إلى عدد قليل من الموضوعات وكانت تستند إلى التلميحات المألوفة للجميع وإلى التبديلات اللفظية . ثم إن الحلم يشارك الأعصبة والأساطير والعادات الشعبية فى مقدار لا بأس به من هذه الرموز .

ولا غرو فى أن تكون الأمور كذلك ؛ فإنا إذا أنعمنا النظر لم نجد مناصاً من التسليم بأن عمل الحلم لا يأتى على الإطلاق بشىء مبتكر حين يجرى هذا النوع من التبديل ، بل هو لكى يصل إلى هدفه — وهدفه فى هذه الحالة هو قابلية التصوير المتحرر من الرقابة — إنما يتبع الطريق التى يجدها ممهدة أمامه من قبل فى اللاشعور ويؤثر تلك التحويلات فى المادة المكبوتة التى يمكن أن تظهر للشعور كذلك فى صورة النكات والتلميحات ،

(١) والواقع أننى لم أصادف هذا التصوير بعد ذلك قط ؛ ولهذا صرت أتشكك فى صحة هذا التفسير .

والتى تزدحم بها كل تخييلات العصابيين . وهنا يتكشف أمامنا فجأة سبيل إلى فهم تفاسير شرنر التى دافعت عن صحتها الجوهرية فى غير هذا الموضع [ص١١٥ و ص ٢٤٥ .] فاشتغال الإنسان بجسمه ليس بحال من الأحوال خاصة من خواص الحلم وحده ولا ميزة تميزه ، بل قد أرتنى تحليلاتى أننا نجد هذا الاشتغال دائماً بين الأفكار اللاشعورية للعصابيين ،وأنه راجع إلى التطلع الجنسى الذى يتجه فى سن المراهقة إلى الأعضاء التناسلية للجنس الآخر ولذات الجنس أيضاً . ولكن المنزل — كما ألح عليه بحق شرنر و فولكلت ليس الدائرة الفكرية الوحيدة التى تستقى منها رموز الجسد — لا فى الأحلام ولا فى التخييلات اللاشعورية للعصاب . صحيح أنى أعرف مرضى ظلوا مبقين على الرموز المعمارية للجسم ولأعضاء التناسل (والاهتمام الجنسى يعدو أعضاء التناسل الخارجة بكثير) : فالأعمدة والعمدان المتوجة تعنى عندهم السيقان (كما فى نشيد الإنشاد)[1] ، وكل باب يدل على فتحة من فتحات الجسم (« ثقب »)، وكل أنبوبة تذكر بالجهاز البولى، الخ . ، إلا أن الأفكار المتصلة بحياة النبات أو بالطبخ قد تستخدم هى الأخرى بمثل هذه الكثرة عينها — لكى تستر الصور الجنسية . وإنا لنجد فيما يتعلق بدائرة الأفكار النباتية أن الطريق قد مهده العرف الجارى الذى هو خزانة الأخيلة الاستعارية منذ أقدم العصور (أنظر « كرمة » الرب و « البنور » و « حديقة » المحبوبة فى نشيد الإنشاد) . كما أن التفكير فى أقبح تفاصيل الحياة الجنسية وأبطنها — أو الحلم بها — قد يتأدى فى إشارات ظاهرها البراءة إلى أعمال المطبخ ، وإن الأعراض الهسترية لتستغلق إلى الأبد على كل تفسير إذا نسينا أن الرمزية الجنسية تجد أحسن مخبأ لها وراء المألوف وما لا يستلفت الأعين. فمن الأمور المنطوية على معنى جنسى صحيح أن يأبى الطفل العصابى رؤية أى دم أو لحم نيئ ، وأن يشمئز من البيض و « المكرونة » وأن يزيد الخوف الطبعى من الثعابين تلك الزيادة المفرطة عند العصابيين . وعلى الجملة فالعصاب حيثما التجأ إلى مثل هذه الأقنعة فإنما يسلك طرقاً مرت بها الإنسانية جمعاء فى أقدم مراحل العمران ولا تزال يشهد على وجودها إلى يومنا هذا وراء حجب شفافة العرف اللغوى والمعتقدات والعادات .

وهنا ألحق بما تقدم الحلم المزدهر الذى أتى إحدى مريضاتى ووعدت من قبل بسرده [ص٣٢٥] ، وفيه أعلم بالأحرف المكبرة كل ما ينبغى تفسيره من عناصره تفسيراً

(١) [" وساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز . " الإصحاح الخامس ، ١٥ .]

جنسيا . هذا وقد فقد ذلك الحلم الجميل رواءه فى عين الحالمة بعد أن وقفت على تفسيره

أ) الحلم التمهيدى : تذهب إلى المطبخ حيث تجد خادميها وتؤنبهما لأنهما لما تجهزا لها «قضمة» تؤكل. وفى أثناء ذلك تلمح عدداً كبيراً جداً من أوعية مطبخ من طراز عامى وقد قلبت على الأرض حتى يسقط ما علق بها من قطرات الماء. تضيف فى رواية ثانية : تذهب الخادمان طلباً لبعض الماء وتضطران حينئذ إلى الحوض فى نهر علا ماؤه حتى بلغ المنزل أو فناءه [١] .

ب) الحلم الرئيس [٢] : تهبط من مرتفع عظيم [٣] فوق حواجز أو سياج غريبة الهيئة شد بعضها إلى بعض فى مربعات كبيرة وصنعت من خيزران مضفر فى مربعات صغيرة [٤] . لم تكن هذه الحواجز مجعولة لكى يتسلق الإنسان فوقها ، ولهذا كانت تلاقى عناء دائماً فى إيجاد موضع تضع فيه قدميها ، وتهنىء نفسها لأن رداءها لم يشتبك بأى منها ، بحيث ظلت مبقية على مظهرها اللائق [٥] وهى ماضية . كانت فى أثناء ذلك تحمل غصناً كبيراً فى يدها [٦] ، والحق أنه كان يشبه شجيرة غطتها زهور حمراء تفرعت عن الشجيرة وانتشرت [٧] . كانت هناك فكرة فحواها أن هذه أزهار كريز ، ولكنها كانت تلوح فى الوقت نفسه مثل الكاميليا المفتحة — وإن كانت هذه لا تنمو بالطبع على الشجر . كان بيدها وهى تهبط غصن واحد فى أول الأمر ، صار فجأة اثنين ، ثم رجع واحداً من جديد [٨] . حين تبلغ أسفل المنحدر تكون الأزهار التى بأسفل الغصن قد أصابها ذبول عظيم . ترى عندئذ — بعد أن نزلت — خادماً من خدم المنزل ، وكان — كما تحب أن تقول — يمشط شجيرة عائلة أى أنه كان يستخدم خشبة لكى ينتزع بها خصلة سميكة من الشعر علقت بالشجرة مثل الأشنة . كان هناك عامل آخر قطع أغصاناً عائلة من حديقة من الحدائق التى ألقى بها فى الطريق حيث ظلت مطروحة بحيث أخذ أناس كثيرون بعضها . ولكنها تسأل نفسها هل ذلك عمل مشروع ، هل تستطيع أن تأخذ واحدا [٩] هى الأخرى . يقف فى الحديقة رجل فى مقتبل العمر (وهو شخص تعرفه ، غريب عن العائلة) ، تذهب إليه لكى

(١) أنظر ص ٣٢٥ فى تفسير هذا الحلم التمهيدى من حيث يعرب عن علاقة " علية " .
(٢) وهو حلم يصف سيرة حياتها .
(٣) أى أنها تنحدر من أصل رفيع — وهو الضد المرغوب فيه للحلم التمهيدى .
(٤) صورة مزيجة تجمع بين محلين : أولهما هو ما كان يسمى فى منزل أبيها حجرة السطوح ، حيث كانت تلعب مع أخيها الذى صار موضوع تخييلاتها اللاحقة ، وثانيهما مزرعة يملكها عم رذل كان لا ينقطع عن معاكستها .
(٥) ضد مرغوب فيه لإحدى ذكرياتها الحقيقية المتصلة بمزرعة عمها ، حيث كان من عادتها أن تتعرى وهى نائمة .
(٦) كما يحمل الملاك عود الزنبق فى صور البشارة إلى مريم .
(٧) أنظر ص ٣٢٩ فى تفسير هذه الصورة المركبة : الطهارة ، الطمث ، غادة الكاميليا .
(٨) إشارة إلى تعدد الأشخاص الذين كانت تنصب عليهم تخييلاتها .
(٩) أى هل يجوز لها أن تنتزع واحدا [وهو تعبير ألمانى عامى بمعنى :] أن تستمنى .

تسأله كيف يمكنها أن تنقل هذه الأغصان إلى حديقتها الخاصة[١]. يحتضنها الرجل فتدفعه وتسأله : فيم تفكر ؟ أيظن أن الناس يستطيعون احتضانها على هذا النحو ؟ يجيبها قائلا : إنه لا ضرر فى ذلك وإن ذلك أمر مباح[٢] . يخبرها أنه على استعداد للذهاب معها إلى الحديقة الأخرى لكى يريها الزرع ثم يضيف شيئاً لا تفهم مراده منه تمام الفهم : غير أننى أحتاج إلى ثلاثة أمتار (وفى رواية أخرى : أمتار مربعة) أو ثلاث قصبات من الأرض . كأنه كان يطلب شيئاً ما لقاء استعداده ، أن يعوض نفسه من حديقتها ، أو كأنه كان يريد أن يحتال على قانون من القوانين لكى يظفر منها بمغنم دون أن يصيبها الأذى . هل أراها بالفعل شيئاً ما بعدئذ ؟ لا تدرى .

إن هذا الحلم الذى أوردته لما اشتمل عليه من العناصر الرمزية خليق أن يوصف بأنه حلم « يؤرخ حياة » حالمه ، وأمثال هذه الأحلام تعرض كثيراً فى خلال التحليل النفسى ، ولكن أغلب الظن أنها لا ترد خارجه إلا نادرا[٣] .

إن فى جعبتى بالطبع الشىء الكثير من مثل هذه المادة ، ولكن سردها يجعلنا نوغل فى بحث شروط العصاب ، ثم هى تذهب جميعها إلى نتيجة واحدة ، وأعنى بها : أنه لا حاجة بنا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يتضمن نشاطاً رمزيا خاصاً به من جانب الذهن ، وإنما يستخدم الحلم الرموز الموجودة من قبل فى التفكير اللاشعورى ، وهو يستخدمها لأنها أكثر اتفاقاً ومقتضيات تكوين الحلم من حيث قابليتها للتصوير ، ولأنها أيضاً تفلت عادة من الرقابة .

---

(١) لقد ناب الغصن عن عضو التناسل عند الذكر منذ زمن طويل ، وهو – بعد – ينطوى على تلميح إلى اسم عائلة المريضة .

(٢) يشير ذلك وما يتبعه إلى احتياطات منع النسل .

(٣) يجد القارئ حلما آخر مماثلا من نوع هذه الأحلام «المؤرِّخة» بين الأمثلة التى سأضربها على الرمزية فى الحلم ، المثال الثالث . وهناك مثال ثان سرده رانك سرداً مفصلا : " حلم يفسر نفسه بنفسه " [١٩١٠] . ثم مثال آخر تجب قراءته « مقلوبا » أورده سيكل (١٩٠٩ ، ٤٨٦) .

هـ

التصوير بوساطة الرموز فى الأحلام

أحلام نمطية أخرى [١]

إن تحليل الحلم الذى سبق — الحلم المؤرَّخ — شاهد على أننى قد عرفت الرمزية فى الحلم منذ البداية . ولكننى لم أنته إلى تقدير كامل لمدى انتشارها وأهميتها إلا على نحو متدرج ساير تزايد خبرتى ، وبتأثير من مؤلفات ڤيلهم شتيكل [٢] الذى قد يكون من المناسب فى هذا الموضع أن اتحدث بكلمة عنه .

إن هذا الكاتب الذى ربما كان ضرره بالتحليل النفسى يعدل نفعه قد قدم عدداً ضخماً من تراجم رمزية لم يفطن إليها أحد من قبل ، تراجم لم تلق فى مبدأ الأمر تصديقا ولكن الشواهد لم تلبث أن جاءت بما يؤيد معظمها ، بحيث لم يعد مفر من قبولها . ولست أهون من قيمة الخدمات التى أسداها شتيكل فى هذا الباب إذا أضفت أن التحفظ المشوب بالشك الذى قوبلت به آراؤه فى أول الأمر لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات . فالأمثلة التى سند بها شتكل تفسيراته كانت غير مقنعة فى كثير من الأحايين ، ثم هو قد استخدم منهجاً يتحتم نبذه ؛ لأنه غير حرى بالثقة من وجهة النظر العلمية . ذلك أن شتيكل قد اكتشف تفسيراته الرمزية من طريق الحدس ، بقوة هبة خاصة فى فهم الرموز فهما مباشراً . ولكن مثل هذا الفن شىء لا يعتمد عليه بوجه عام ، لأنه يخلو من كل إعمال للنقد ، ولهذا تجردت نتائجه من كل حق على التصديق . فاستنادك إليه كالتماسك أن تؤسس تشخيص الأمراض المعدية على ما يصلك من إحساسات الشم وأنت إلى سرير المريض — وإن كان من المقطوع به أن ثمت أطباء حققوا ما لم يحققه

---

(١) [لم يظهر هذا القسم هـ من الفصل السادس فى الطبعة الأولى من " تفسير الأحلام ". والكثير من مادته قد أضافه فرويد فى طبعتى عام ١٩٠٩ و ١٩١١ ولكنه أدرج المادة المضافة فى الفصل الخامس فى القسم الخاص بالأحلام النمطية . وأما القسم هـ بصورته الحاضرة المستقلة فلم يظهر للمرة الأولى إلا فى طبعة ١٩١٤ مكونا من المادة المضافة فى الطبعتين السابقتين وأخرى جديدة .]

(٢) ف . شتكل ، لغة الأحلام ، ١٩١١ .

غيرهم مستعينين بحاسة الشم هذه (وهى حاسة مبتسرة عند معظم الناس) ، أطباء كان يسعهم أن يشخصوا تيفوساً معوياً بوساطة الشم .

ولقد جذب تقدم الخبرة التحليلية انتباهنا إلى مرضى يبدون مثل هذا الفهم المباشر لرموز الحلم على نحو يبعث على الدهش . هؤلاء المرضى كانوا فى العادة يعانون جنون المراهقة ، بحيث غلب فترة الميل إلى أن تظن هذه العلة بكل حالم يبدى مثل هذا الفهم الرمزى . ولكن الحقيقة على خلاف ذلك ، فالمسألة هبة أو خاصة شخصية بدون دلالة مرضية ظاهرة .

وإن المرء إذا ألف الاستخدام الواسع الذى تلقاه الرموز فى تصوير المادة الجنسية فى الحلم لم يجد مناصاً من أن يسأل إذا كان الكثير من هذه الرموز يجىء على حسب دلالات ثابتة مثل « علامات » الاختزال ، ولقد يغرى عندئذ بتسطير كتاب جديد من كتب الأحلام وفق منهج الشفرة . والذى تمكن ملاحظته فى صدد هذه المسألة هو هذا : أن الرمزية ليست خاصة من خواص الأحلام، بل من خواص التفكير اللاشعورى ، وتفكير الشعب بنوع خاص ، وإنا لنجدها فى أغانى الشعب وأساطيره ورواياته المتوارثة وفى التعابير الدارجة والحكم المأثورة والنكات الجارية أكثر مما نجدها فى الحلم . ولهذا لم يكن مفر من أن نشط بعيداً عن مشكلة تفسير الحلم إذا أردنا أن نوفى معنى الرمز حقه وأن نناقش ما يتصل بفكرة الرمز من مشكلات متعددة لا يزال القسط الأعظم منها بغير حل.[1] وعلى ذلك نقتصر ههنا على القول بأن التصوير بوساطة الرمز يدخل فى عداد مناهج التصوير غير المباشر ، ولكن هناك دلائل من كل نوع تحذرنا من أن نزج بالتصوير الرمزى بين سائر أنواع التصوير غير المباشر قبل أن يكون فى استطاعتنا أن نتمثل خواصه التى تفرق بينه وبينها فى تعريف جلى . والجامع المشترك بين الرمز والمرموز إليه يكون واضحاً فى طائفة من الحالات ، خفياً فى طائفة أخرى ، حتى ليبدو اختيار الرمز شيئاً محيراً . وإن هذه الحالات الأخيرة على التحديد لهى التى لا بد قادرة على أن تلقى الضوء على المعنى الأخير الذى لعلاقة الرمزية ، وإنها لتدل على أن هذه العلاقة ذات طبيعة نشوئية : فالأشياء التى ترتبط اليوم برباط رمزى كانت على الأرجح تتحد فى الأزمنة

---

(١) [١٩١١ :] أنظر مؤلفات بلويلر وتلاميذه من مدرسة زيوريخ : مادير وأبراهام وغيرهما — فى مسألة الرمزية ، وانظر من يشير إليه هؤلاء من المؤلفين غير الأطباء (مثل كلاينپول وغيره) . [١٩١٤ :]

قبل التاريخيه فى عينية تصويرية ولغوية[١] ، فالعلاقة الرمزية تبدو أثراً من عينية غابرة وعلامة عليها . ونستطيع أن نلاحظ فى هذا الصدد كيف يقع فى بعض الحالات أن يمتد الاتفاق فى استخدام رمز من الرموز إلى ما وراء الجماعة اللغوية، على ما نبه إليه شوبرت من قبل (١٨١٤)[٢] ، كما أن بعض الرموز قديم قدم الكلام نفسه بينما بعضها الآخر لا ينقطع صكه على ممر العصور إلى يومنا هذا (مثال : المنطاد ، « زبلين ») .

والحلم يستخدم الرموز من أجل تصوير أفكاره الكامنة تصويراً مقنعاً . ومن الرموز المستخدمة على هذا الوجه عدد كبير يعنى دائماً — أو يكاد يعنى دائماً — ذات الشىء. ومع هذا ينبغى علينا أن نتذكر دائماً ما تتميز به المادة النفسية من مرونة خاصة . فقد يكون الواجب فى أحيان جد كثيرة ألا يفسر الرمز الظاهر فى محتوى الحلم بالمعنى الرمزى بل الحرفى ، ويجوز فى أحيان أخرى أن يستمد الحالم من مادة ذكرياته الخاصة الحق فى أن يستخدم كرموز أشياء من كل صنف لا تستخدم عادة هذا الاستخدام . ثم إن الحالم إذا أمكنه الاختيار بين رموز متعددة من أجل تصوير محتوى بعينه ، انتخب هذا الرمز الذى يرتبط من حيث محتواه الموضوعى بسائر أفكار الحلم ، أى الذى تدفع إلى قبوله أسباب فردية إلى جانب الأسباب النمطية .

وإذا كانت الأبحاث الجديدة فى الحلم منذ زمن شرنر قد جعلت من وجود الرموز الحلم أمراً لا يقبل المنازعة — فحتى هافلوك إليس يسلم بأن من المحال التشكك فى ازدخار أحلامنا بالرموز — فإن من الواجب أن نقر مع ذلك بأن حضور الرموز فى الحلم لا يسهل مهمة التفسير وحسب ، بل يزيدها أيضاً صعوبة . ذلك أن طريقتنا

ويجد القارئ أصوب ما كتب عن هذا الموضوع فى كتاب رانك وهانس ساكس (١٩١٣ ، الفصل الأول) . [١٩٢٥ :] وانظر أيضاً إرنست جونز (١٩١٦) .

(١) إن هذه النظرة تحظى بعضد قوى إذا أخذنا بنظرية اقترحها الدكتور هانس شپير بر (فى تأثير العامل الجنسى فى نشأة اللغة وتطورها ، إيماجو ١٩٢٢) . فهو يرى أن جميع الكلمات البدائية كانت تطلق على أشياء جنسية ثم أخذت تفقد بعد ذلك معانيها الجنسية هذه بإطلاقها على أشياء وأوجه من النشاط مختلفة كانت تقارن بما هو جنسى .

(٢) مثال ذلك أن المركب الجارية على الماء ترد فى أحلام التبول عند الحالمين الهنغاريين مع أنهم لا يستخدمون كلمة Schiffen [أبحر] بمعنى " تبول " [كما هو الشأن فى الألمانية] (أنظر فرنتسى وكذلك المثال ٦ من هذا القسم) . والناطقون بالفرنسية وبسائر اللغات الرومانية يستخدمون الغرفة فى التصوير الرمزى للمرأة مع أن هذه الشعوب لا تملك شيئاً يشبه التعبير الألمانى : "Frauenzimmer" (أنظر ص ٢٣٤) .

المألوفة فى التفسير وفقا لمستدعيات الحالم تتركنا فى حيرة حين نجىء إلى العناصر الرمزية فى محتوى الحلم . فاحترام النقد العلمى يمنعنا من الاحتكام إلى مشيئة المفسر كما هو المنهج المتبع فى الأزمنة القديمة والذى يبدو كأنما قد بعثته من جديد تفسيرات شتيكل الهمجيه . ونحن لذلك مضطرون حيال عناصر الحلم التى نرى أنها عناصر رمزية إلى أن نصطنع منهجاً مزيجاً يستند من ناحية إلى مستدعيات الحالم ويكمل الثغرات من ناحية أخرى بمعرفة المفسر للرموز . ومن واجبنا — إذ أردنا أن نتجنب كل اتهام بمتابعة الهوى فى التفسير — أن نجمع بين الحذر النقدى فى حل الرموز وبين دراستها دراسة ملؤها العناية تستند إلى أمثلة قوية الدلالة بنوع خاص . والعجز عن الاستيقان الذى لايزال يعلق بعملنا فى تفسير الأحلام ناشىء إلى حد عن نقص معارفنا — وهو نقص يمكن سده شيئاً فشيئا مع التعمق فى الاستقصاء — ولكنه ناشىء إلى حد آخر عن خصائص معينة فى رموز الحلم . فهذه الرموز تملك فى كثير من الأحيان أكثر من معنى واحد — إن لم تملك العدد الكبير من المعانى — بحيث لا يمكن فهمها فى كل مرة فهماً صحيحاً إلا من السياق وحده ، كما هو الشأن فى الكتابة الصينية . ثم إن هذا التكثر فى معنى الرموز لا يلبث أن يلتقى بما يتميز به الحلم من قبول تفسيرات متعددة ، أى من القدرة على أن يصور فى بعض محتواه أفكاراً ورغبات كثيراً ما تختلف اختلافاً واسعاً فى طبيعتها .

وبعد هذه القيود والتحفظات أتابع الكلام فأقول : إن الإمبراطور والإمبراطورة (أو الملك والملكة) يصوران حقيقة والدى الحالم فى معظم الأحيان . وأما الأمير أو الأميرة فيصور الحالم أو الحالمة . غير أن هذه السلطة العالية التى تعزى إلى الإمبراطور قد تعزى أيضاً إلى عظماء الرجال ، وهكذا كان جوته — مثلا — يبدو رمزاً إلى الأب فى كثير من الأحلام (هيتشمان) . — وتصور القضيب عند الرجال كل الموضوعات المستطيلة مثل العصى وجذوع الشجر والمظلات (لأن انفتاحها يقارن بالانتصاب !) ، كما تصوره كل الأسلحة المستطيلة الحادة مثل السكاكين والخناجر والمعاول . ورمز آخر يكثر استعماله وإن لم يكن مفهوماً كل الفهم ، هو مبرد الأظافر (أبجامع الاحتكاك ؟) — وأما العلب والصناديق والأدراج والدواليب والمواقد فتصور الرحم وكذلك الموضوعات المجوفة والسفن وسائر صنوف الجوارى . — والغرف فى الحلم ترمز فى معظم الأحيان إلى النساء،

فإن صورت أيضاً مداخلها المختلفة ومخارجها لم يبق فى هذا التفسير شك[١] . وأما الاهتمام بما إذا كانت الحجرة « مفتوحة » أم « مغلقة » فأمر يسهل فهمه فى هذا السياق . (أنظر حلم دورا [الأول] فى « طرف من تحليل حاله هستريا » [فرويد ١٩٠٥ هـ]) . ولسنا نحتاج إلى أن نسمى صراحة المفتاح الذى يفتح الغرفة ، ولقد استعان أولاند برمزى القفل والمفتاح فى تأليف قطعة طريفة من الأدب المكشوف ، فى أغنية « الكونت ايبرشتاين » . — والحلم الذى يعبر فيه الحالم سلسلة من الحجرات المتتالية هو حلم بمنزل بغاء أو حريم . ولكنه — كما بين هانس ساكس فى مثال بديع — قد يستخدم أيضاً (من قبيل التضاد) فى تمثيل الزواج . وأما أن يحلم الحالم بحجرتين كانتا من قبل حجرة واحدة أو أن يرى حجرة واحدة يألفها قد انقسمت حجرتين ، فينم عن ارتباط بتطلع الطفل الجنسى خليق أن ننتبه إليه . ذلك أن الطفل يعد عضو التناسل عند المرأة منطقة واحدة وفتحة الشرج (النظرية الاستية عند الطفل) ولا يفطن إلا فيما بعد إلى أن هذه المنطقة تضم فجوتين وفتحتين مستقلتين . — وأما المرتفعات والدرجات والسلالم والمسير عليها — سواء أكان صعوداً أم كان هبوطاً — فصور ترمز إلى الجماع[٢] . — وأما

---

(١) " حلم أحد مرضاى — وكان يقيم فى " بنسيون " — أنه قابل إحدى الخادمات على السلم ، فسألها ما رقمها ، فأجابته لدهشه : ١٤ ، والواقع أنه كان قد اتصل بهذه الخادم وزارها زيارات متعددة فى غرفتها ، وكانت الخادم تخشى طبعاً أن تتشكك سيدتها فى أمرها فاقترحت على الحالم فى اليوم الذى سبق الحلم أن يتلاقيا فى حجرة غير مشغولة . وكانت هذه الحجرة حقيقة هى الحجره رقم ١٤ ، بينما حملت هذا الرقم فى الحلم المرأة نفسها . ولا يكاد المرء يتخيل مثالا أوضح من ذلك دلالة على تعيين المرأة بالحجرة . " (جونز ١٩١٤ ا .) وانظر أيضاً أرتميدوروس " رموز الأحلام " (ترجمة ف . س . كراوس ڤيينا ١٨٨١ ، ص ١١٠) : مثال ذلك أن غرفة النوم تعنى الزوجة ، إذا كانت بالمنزل زوجة .

(٢) أكرر هنا ما قلته عن هذا الموضوع فى موضع آخر (فرويد ١٩١٠ د) : علمت منذ زمن غير بعيد أن سيكولوجيا بعيدا عن مجال عملنا قال لأحدنا : إننا نبالغ من غير شك فى تقدير المعنى الجنسى المكنون للأحلام ؛ فهو — مثلا — يحلم أكثر ما يحلم بالصعود ، ومن المؤكد أن ذلك ما لا ينطوى على شىء جنسى . وأثار هذا الاعتراض اهتمامنا ، فوجهنا اهتمامنا إلى ظهور المرتفعات والدرجات والسلالم فى الأحلام وسرعان ما أمكننا أن نتبين أن السلالم (وما ماثلها من الموضوعات) ترمز من غير أقل شك إلى الجماع الجنسى . وليس من الصعب أن نكتشف أساس هذه المقارنة . فنحن نبلغ القمة فى حركات متعاقبة موقعة وفى لهث متزايد ، ثم إذا نحن نستطيع النزول إلى حيث كنا فى قفزات قليلة مسرعة . وهكذا يعيد الصعود النمط التوقيعى للجماع . ثم لا ننسى شهادة العرف اللغوى ؛ فهو يرينا أن " صعد " تستخدم بغير مزيد من التخصيص [فى اللغة الألمانية] للدلالة على الفعل الجنسى ، ونحن نقول عن رجل : إنه " صعاد " [أى ذو ولع بالنساء] ، ونقول : " صعد وراء " [أى طارد ، والمقدر هو المرأة] . ودرجات السلم تسمى فى اللغة الفرنسية "marches" ومنه : "un vieux marcheur" [أى " دراج قديم "] ، وهو ما يعدل تعبيرنا الألمانى " صعاد قديم " [أى زير نساء] .

الحوائط الملساء التى يتسلقها المرء والواجهات التى ينزلق عليها — فى هيلة شديدة عادة — فتمثل الأجسام الإنسانية الواقفة ، وهى على الأرجح تعيد فى الحلم ذكريات عن تعلق الطفل بوالديه أو بالمرضع . والحوائط « الملساء » رجال . ولا يندر أن يتشبث المرء بـ « نتوءات » المنزل فى أحلام الهيلة . — ويشبه للنساء بالموائد والموائد المعدة للطعام وبالألواح أيضاً — ولعل ذلك من قبيل التضاد إذ ترتفع هنا الدوائر البارزة فى جسم المرأة . وأما « الخشب » على الجملة فيبدو من علاقاته اللغوية أنه ينوب عن المادة الأنثوية (Materie) وجزيرة ماديرا [١] يعنى اسمها الخشب فى اللغة البرتغالية . وإذ كان « الفراش والخوان » يؤلفان الزواج فقد كثر أن ينوب ثانيهما عن أولهما وأن يترجم مركب الأفكار الجنسية إلى مركب الاغتذاء . — وأما الملابس فيسعنا فى كثير من الأحيان أن نترجم قبعة المرأة بعضو التناسل ، وبعضو الرجل على التحديد . والأمر كذلك فيما يتصل بالمعطف ، وإن كنا لا نعلم إلى أى حد يرجع استخدام هذا الرمز إلى الجناس اللفظى [٢] . ويكثر فى أحلام الرجال أن تنوب ربطة العنق عن القضيب ، وليس ذلك لمجرد كون ربطة العنق مستطيلة الشكل ، مدلاة ، مميزة للرجال ، بل لأن المرء أيضاً يختارها وفق هواه — وهى حرية منعته الطبيعة إياها فيما يتصل بالموضوع المرموز إليه [٣] . ويغلب أن يكون الأشخاص الذين يستخدمون هذا الرمز شديدى الاحتفال بربطات عنقهم فى حياتهم الواقعة وأن يملكوا مجموعات مستوفاة منها . — ومن المرجح أكبر الترجيح أن جميع الآلات والأجهزة المعقدة تقوم فى الحلم مقام الأعضاء التناسلية — وأعضاء الرجل عادة — تلك الأعضاء التى لا يكل الحلم من وصفها ، شأنه فى ذلك شأن النكتة . ولا شك أيضاً فى أن جميع الأسلحة والعدد تستخدم رموزاً إلى عضو الرجل : المحاريث والمطارق والبنادق والمسدسات والخناجر والصوارم ، الخ . — ومن السهل أن نتبين كذلك أن المناظر الطبيعية

---

(١) [Madeira من اللاتينى Mater ومعناه الأم ، لاحظ الجناس مع Materei .]

(٢) [رجل = Mann فى الألمانية ، ومعطف = Mantel .]

(٣) أنظر رسما منشورا فى Zbl. Psychoanal. ، ٢ ، ٦٧٥ [رورشاخ ، ١٩١٢] رسمه مريض بالهوس فى التاسعة عشرة من عمره : رجل ربطة عنقه أفعوان يمد رأسه إلى فتاة . وانظر أيضاً قصة « الرجل الخجول » (Anthropophyteia ، ٦ ، ٣٣٤) : دخلت سيدة فى حجرة استحمام فصادفت رجلا لم يكد يفرغ من ارتداء قميصه ، ويخجل الرجل خجلا شديدا ولكنه يسارع إلى تغطية عنقه بمقدم قميصه قائلا : معذرة إذا كنت بغير ربطة عنق .

المتجلية فى الحلم — وبخاصة إذا احتوت جسوراً أو قمماً تعلوها الأشجار — هى أوصاف للأعضاء التناسلية . ولقد جمع مارسينوڤسكى طائفة من رسوم يوضح بها الحالمون ما ورد فى أحلامهم من مناظر الطبيعة والمحال. هذه الرسوم ترينا رؤية العين الفرق الذى بين معنيي الحلم الظاهر والكامن؛ فبينما يلوح للعين غير المحققه أن هذه الرسوم تخطيطات أو خرائط أو ما شاكله ، إذا الباحث الثاقب يتبين أنها تصور الجسد الإنسانى وتصور أعضاء التناسل ، الخ . ، وحينئذ يتيسر فهم الحلم للمرة الأولى . (أنظر فى هذا الصدد مقالات فستر عن الكتابة بالرسوم والألغاز المصورة.) ولنا أيضا أن نتساءل تجاه المركبات اللفظية غير المفهومة إذا لم تكن هذه المركبات قد تكونت من عناصر ذات معان جنسية. — ثم الأطفال ، هم أيضاً كثيراً ما يعنون فى الحلم أعضاء التناسل ، والحق أن من عادة كلا الرجل والمرأة أن يسمى عضوه [فى الألمانية] على سبيل الإعزاز : « صغيره » أو « صغيرها » . ولا يجانب شتيكل الصواب حين يعرف فى « الأخ الصغير » القضيب، كما أن اللعب مع طفل صغير أو ضربه، الخ . ، تصوير كثيراً ما يصور به الحلم الاستمناء . — فأما تصوير الخصاء تصويراً رمزيا فهذا ما يتوسل إليه الحلم بصور الصلع وقص الشعر وسقوط الأسنان وقطع الرأس . فإن جاء أحد الرموز المألوفة إلى القضيب مضعفاً أو متكثراً ، عُدّ ذلك استعاذة من الخصاء . ومجيء العظايا فى الحلم — وهى حيوانات تنمو أذيالها من جديد بعد قطعها — له كذلك هذا المعنى عينه . (أنظر حلم العظايا فى ص ٩١ .) — والحيوانات التى تتخذ رموزا إلى أعضاء التناسل فى الأساطير والقصص الشعبى يلقى الكثير منها ذات الاستخدام فى الحلم : السمك والقواقع والقطط والفئران (لشعر العانة) ، ثم بنوع خاص ذلك الحيوان الذى هو أهم الرموز إلى قضيب الرجل : الثعبان . وتمثل الحيوانات الصغيرة والديدان صغار الأطفال مثل الإخوة والأخوات غير المرغوب فيهم ، كما أن التدود يمثل الحمل فى كثير من الأحيان . — ومن الحرى بالذكر رمز إلى عضو التناسل عند الرجل حديث العهد جدا ، هو المنطاد . وتبرر هذا الاستخدام علاقة المنطاد بالطيران ثم شكله أحياناً . — وهناك طائفة أخرى من الرموز ساقها شتيكل مدعماً إياها بالشواهد ولكنها مع ذلك لم تثبت ثبوتاً كافياً . فمؤلفات شتيكل — وبخاصة « لغة الأحلام » — تحوى أوفى مجموعة من التراجم الرمزية ، وبعض هذه التراجم ينم عن بصيرة نافذة كما أن التمحيص قد أيده من بعد ، مثال ذلك فصله عن رموز الموت ، ولكن افتقار هذا المؤلف إلى ملكة النقد مع نزوعه إلى التعميم مهما كان الثمن يبعثان على التشكك فى

تفسيراته الأخرى أو يقفان حائلا دون استخدامها ، بحيث ينبغى الأخذ بالحذر الجم عند الرجوع إلى مؤلفاته . ولهذا كنت أقتصر على ذكر أمثلة قليلة من تراجمه .

فى رأى شتيكل أن اليمين واليسار يحملان فى الحلم معنى خلقياً : « فطريق اليمين تعنى دائماً طريق الاستقامة ، فأما طريق اليسار فتعنى الجريمة . وهكذا قد يصور اليسار الجنسية المثلية أو الزنا بالمحارم أو الانحراف ، بينما يصور اليمين الزواج أو الاجتماع ببغى ، الخ . — كل هذا من وجهة النظر الخلقية للفرد الحالم دائماً . » (شتيكل ١٩٠٩ ، ٤٦٦) . ويقوم الأقارب فى الحلم مقام أعضاء التناسل فى غالب الأحيان (ص ٤٧٣) ، بيد أنى لا أستطيع أن أؤيد ذلك إلا فيما يتصل بالأبناء والبنات وصغار الإخوة والأخوات أى فيما يتصل بالأقارب الذين يدخلون تحت مقولة الصغير . كما أنى وجدت من جهة أخرى أمثلة مؤكدة ترمز فيها الأخوات إلى الصدر بينما يرمز الإخوة إلى الردفين . ويفسر شتيكل عدم اللحاق بعربة بفرق فى السن لا سبيل إلى محوه (ص ٤٧٩) . فأما المتاع الذى يحمله المرء فى سفر فحمل من الخطيئة يثقل كاهله (ذات الموضع) . بيد أن متاع السفر على التحقيق كثيراً ما يتبين أنه رمز لا يخطئ إلى عضو الحالم التناسلى . وحدد شتيكل — فوق ذلك — معانى رمزية للأرقام التى يكثر ورودها فى الأحلام ، ولكن هذه التراجم لا تبدو مؤكدة التأكيد الكافى ولا صحيحة صحة شاملة — وإن كان تفسير شتيكل يبدو عادة مقنعاً فى الحالات الجزئية . ولكن ثبت مع ذلك — من جوانب متعددة — أن الرقم ٣ يرمز إلى عضو الرجل التناسلى . وبين القضايا المعممة التى ساقها شتيكل قضية تتعلق بالمعنى المزدوج الذى تنطوى عليه الرموز الجنسية ، فهو يقول : « أين هو هذا الرمز الذى لا يمكن استعماله فى آن واحد فى كلا المعنيين : المذكر والمؤنث ، بشرط أن تقبل المخيلة هذا الاستعمال ولو أقل قبول ؟ » إن هذا الشرط لا شك يزيل الشىء الكثير من اليقين الذى أطلقت به القضية ؛ إذ الواقع أن المخيلة لا تقبل هذا الاستعمال دائماً . ومع هذا أعتقد أنه لن يكون من نافلة القول إذا أضفت أن تجربتى تدل على أن قضية شتيكل تقصر عن مكافأة واقع يزيدها تعقداً . فهناك إلى جانب الرموز التى تنوب عن أعضاء التناسل المذكرة والمؤنثة على السواء ، رموز أخرى تدل على أحد الجنسين دلالة غالبة أو تكاد تكون مانعة ، ثم أخرى لا نعرف لها إلا معنى مذكراً أو مؤنثاً : فأن تتخذ الأسلحة والموضوعات المستطيلة الصلبة رموزاً إلى الرحم أو أن تتخذ

الموضوعات المجوفة (مثل الأدراج والصناديق والعلب وغيرها) رموزا إلى القضيب — ذلك ما تأباه المخيلة على التحقيق .

وإنه لمن الصحيح أن نزوع الأحلام ونزوع المخيلة اللاشعورية إلى استعمال الرموز الجنسية استعمالا مزدوجاً ينم عن سمة أثرية ؛ لأن الطفل يجهل الفرق بين الأعضاء التناسلية وينسب ذات الأعضاء إلى كلا الجنسين . ولكن من السهل كذلك أن نساق إلى القول خطأ بوجود رمز جنسى مزدوج إذا نسينا أن هناك عكساً جنسياً عاماً يقع فى كثير من الأحلام ، بحيث يصور المذكر بالمؤنث ، والعكس . وأمثال هذه الأحلام قد تعرب — مثلا — عن رغبة المرأة فى أن تكون رجلا .

ومن الممكن كذلك أن تصور الأعضاء التناسلية بوساطة أجزاء أخرى من الجسم ، فتمثل عضو الذكر يد أو قدم ويمثل فتحة الفرج الفم أو الأذن أو حتى العين . وإفرازات الجسم البشرى — المخاط والدموع والبول والمنى ، الخ . — قد يحل بعضها محل البعض الآخر فى الحلم . وقد قيد رايتلر (١٩١٣ ب) قضية شتيكل هذه — وهى صحيحة فى جملتها — تقييدا نقدياً صائباً إذ لاحظ أن الأمر يتعلق فى جوهره بإحلال إفرازات لادلالة لها محل آخر له دلالته كالمنى .

هذه الإشارات على قصورها قد تكون كافية فى الحث على دراسة أخرى جامعة أشد عناية[1] . وقد حاولت من جانبى أن أتناول رمزية الحلم بمزيدمن التفصيل فى « محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى » (١٩١٦/١٩١٧)[2] .

وأضرب الآن بضعة أمثلة على استخدام أمثال هذه الرموز فى الحلم ، أمثلة تبين كيف يستحيل الوصول إلى تفسير الحلم إذا استبعد المرء رمزية الحلم ، وكيف يضطر المرء فى حالات كثيرة إلى التسليم بهذه الرمزية تسليما لا منازعة فيه . غير أننى أود فى الوقت عينه أن أحذر من المغالاة فى تقدير أهمية الرموز فى الحلم حتى نقصر ترجمة الحلم على ترجمة الرموز تاركين منهج الاستناد إلى مستدعيات الحالم . فالواجب هو أن

---

(١) إنه مهما كان الفرق بين رأى شرنر فى رمزية الحلم وبين الرأى الذى أجريه على هذه الصفحات فمن الواجب أن أنبه إلى أن شرنر يجب أن يعد المكتشف الحقيقى للرمزية فى الحلم ، وأن الأبحاث التحليلية قد استرجعت لكتابه مكانته بعد أن ظل هذا الكتاب الذى نشر منذ عهد طويل (١٨٦١) يعد أثرا من آثار مخيلة جامحة .

(٢) [نقله إلى العربية الدكتور عزت راجح .]

تكمل كلتا الطريقتين الأخرى ، ولكن المحل الأول يظل دائماً — سواء من حيث العمل أو النظر — للطريقة التى بدأت بوصفها ، بينما تظل ترجمة الرموز فى متناولنا من حيث هى منهج مساعد .

١ — القبعة من حيث هى رمز إلى الرجل
(أو إلى أعضاء الرجل التناسلية)[١]

(نبذة من حلم امرأة فى مقتبل العمر تشكو مخافة الأماكن الطلقة نتيجة الخوف من الغواية)

« أسير فى شارع والفصل فصل الصيف حاملة قبعة من القش كان لها شكل غريب ، فقد مال جزؤها الأوسط متجهاً إلى أعلى بينما تدلت حافتاها إلى أسفل (تتلكأ فى الوصف ههنا) ، وتدلتا بحيث صار أحد الجانبين منخفضاً عن غيره . وكنت فى مزاج ملؤه المرح والثقة ، فلما مررت بجماعة من الضباط الشبان ، حدثت نفسى قائلة : ليس بينكم أحد يستطيع إيذائى . »

لما رأيت القبعة لا تستدعى شيئاً فى ذهن الحالمة ، قلت لها : « لا شك فى أن القبعة ترمز إلى عضو الرجل بجزئها الأوسط المتجه إلى أعلى وبحافتيها المتدليتين . قد يبدو عجيباً أن تكون القبعة رجلا ولكنك تعلمين كيف نقول : وَقَعَتْ تحت القبعة [وهو تعبير ألمانى بمعنى تَزَوَّجَتْ] . » وامتنعت عامداً عن أن أفسر لها تدلى حافتى القبعة تدلياً غير متساو ، مع أن أمثال هذة التفاصيل هى التى يجب أن تحدد اتجاه التفسير . ولكننى مضيت أقول : إنها وقد أصبح لها بذلك زوج له هذه الأعضاء الفاخرة لم تعد بحاجة إلى أن تخشى شيئاً من هؤلاء الضباط ، أي لم تعد بحاجة إلى أن ترغب فى شىء منهم ؛ فقد كان ما تتخيله من إمكانية إغوائها هو السبب الجوهرى الذى يحول بينها وبين الخروج من غير حام أو صحبة . وكنت قد استطعت مراراً من قبل أن أفسر هيلتها هذا التفسير الأخير استناداً إلى مادة أخرى .

وكان مسلك الحالمة عقب هذا التفسير مسلكاً ملحوظاً إلى أبعد مدى : ذلك أنها استردت وصفها للقبعة وأصرت على أنها لم تقل قط : إن حافتيها كانتا تتدليان . ولكننى كنت موقناً مما سمعت يقينا يستحيل معه التضليل ، فثبت على موقفى . وظلت هى صامتة برهة تم وجدت الشجاعة الكافية لكى تسأل : ما معنى أن تتدلى إحدى الخصيتين عند

(١) من " إضافات إلى تفسير الأحلام " فرويد ١٩١١ أ .

زوجها دون الأخرى ، وهل الأمر كذلك عند جميع الرجال ؟ وبهذا اتضحت تلك الخاصة العجيبة فى القبعة ولقى التفسير كله قبول الحالمة .

لقد كنت أعرف رمز القبعة منذ زمن طويل حين روت لى الحالمة هذا الحلم . وكانت هناك حالات أخرى ، لكنها أقل شفافية ، جعلتنى أعتقد أن القبعة قد تنوب كذلك عن عضو المرأة التناسلى[1] .

٢ — الطفل الصغير رمز إلى عضو التناسل

السقوط تحت العربة رمز إلى الجماع

(حلم آخر للمريضة السابقة)

أرسلت أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث اضطرت إلى أن تذهب وحدها . تركب بعد ذلك قطاراً مع أمها وتلمح صغيرتها وهى تسير على سكة الحديد بحيث لا يصبح مفر من وقوعها تحت عجلات القطار . تسمع قعقعة عظامها (ويحدث ذلك فى نفسها شعوراً غير مريح ولكنه لا يبلغ مبلغ الارتياع الحق) . تدير نظرها خارج نافذة العربة لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف ثم تنحى على أمها باللائمة لأنها تركت صغيرتها تخرج وحدها .

التحليل : ليس من السهل أن نورد التفسير الكامل لهذا الحلم ؛ فهو قد جاء بين أحلام تتابعت حلقاتها ولا يمكن فهمه إلا موصلا بسائره ؛ وإن لمن الصعب أن نعزل المادة اللازمة لإثبات رموزه عزلا كافياً . — رأت الحالمة أولا أن رحلة القطار ينبغى تفسيرها تفسيراً تاريخياً ؛ فهى تشير إلى رحلة قامت بها حين غادرت مصحة للأمراض العصبية لانحتاج إلى أن نقول : إنها قد أغرمت بمديرها . وكانت أمها قد ذهبت إليها لتصطحبها وجاء الطبيب إلى المحطة وأسلمها باقة من الزهور ، هدية فراق ، وكان يحرجها كل الحرج أن تشهد أمها هذه التقدمة . وأمها — إذن — تظهر فى هذا الموضع فى صورة شخص يعكر صفو جهودها من أجل أن تحب ، وهو دور لعبته هذه السيدة الصارمة حقيقة والمريضة لا تزال فتاة . — وتدور مستدعياتها بعد ذلك حول هذه الجملة : تدير نظرها لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف . إن مظهر الحلم يحملنا بالطبع على أن نظن أن المعنى هو أجزاء فتاتها الصغيرة التى جرى القطار فوقها وطحنها . ولكن مستدعياتها تذهب

---

(١) أنظر مثالا من هذا النوع رواه كرشجرابر (١٩١٢) . وروى شتيكل (١٩٠٩ ، ٤٧٥) حلما ترمز فيه قبعة ثبتت فى وسطها ريشة مقوسة إلى رجل (عاجز عجزاً جنسياً) .

بها فى اتجاه آخر : فهى تذكر أنها رأت والدها عارياً فى غرفة الاستحمام مرة ، ورأته من الخلف . وتمضى المريضة فتتحدث عن الفروق بين الجنسين ، وتلح على كون الأعضاء التناسلية للرجل تمكن رؤيتها من الخلف بينما الحال مع المرأة خلاف . وفى هذا السياق تفسر المريضة بنفسها « الصغيرة » بكونها تعنى أعضاء التناسل و « صغيرتها » بمعنى أعضائها هى — وكانت لها طفلة فى الرابعة . وهى تنحى باللائمة على أمها لأنها أرادت لها أن تحيا كما لو لم تكن لها أعضاء تناسل ، وتنبه إلى أن هذا اللوم متضمن فى جملة الحلم الأولى : ترسل أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث تضطر إلى أن تذهب وحدها . فأن تذهب وحدها فى الطريق يعنى فى مخيلتها أن تكون بغير رجل ، أى بغير حياة جنسية (Coire = سار مع)[1] ، وإنها لتكره ذلك . ويخلص من كل رواياتها أنها — وهى فتاة — قد عانت الأمرين حقيقة من جراء غيرة أمها منها ، غيرة مبعثها إيثار أبيها لها .

فأما التفسير الأعمق لهذا الحلم فيتضح من حلم آخر أتاها فى الليلة عينها ، وهو حلم عينت فيه ذاتها بأخيها . والحق أنها كانت فتاة كالولد ، ولكم سمعت أنه كان أولى بها أن تكون صبيا. هذا التعيين بالأخ قد أضفى وضوحا خاصا على ماتشير إليه « الصغيرة » من معنى عضو التناسل ؛ فالأم كانت تهدد الأخ (أى تهددها) بالخصاء ، ، وهو ما لا يمكن أن يكون إلا عقاباً على اللعب بأعضاء التناسل ، وتعيينها ذاتها بأخيها يدل بذلك على أنها قد مارست هى نفسها الاستمناء — وهو أمر لم تعد تذكره اليوم إلا عن أخيها وحده . ويخلص من معطيات هذا الحلم الثانى أن المريضة لابد قد حصلت على بعض المعرفة بأعضاء الذكر التناسلية فى ذلك الوقت المبكر ، معرفة آلت بعد ذلك إلى النسيان . أضف أن هذا الحلم يشير إلى النظرية الجنسية التى يعتقد الأطفال بمقتضاها أن الفتيات صبيان مخصيون . وإنى حين أشرت إلى هذا الاعتقاد الطفلى أيدته على الفور بقصة تحكى عن ولد صغير يسأل فتاة صغيرة : مقطوع ؟ فتجيبه الفتاة : كلا ، كان كذلك دائماً .

وعلى ذلك فإرسال الصغيرة (عضو التناسل) إلى الشارع يتعلق فى الحلم الأول أيضاً بوعيد الخصاء ، وهى فى النهاية حانقة على أمها لأنها لم تلدها ولداً .

فأما أن « السقوط تحت العربة » يرمز إلى الجماع فلا يتضح من هذا الحلم ، وإن كان قد تأيد من مصادر أخرى متعددة .

---

(١) [coire فعل لاتينى بمعنى جامع ، وترجمته الحرفية سار مع أو ساير .]

٣ — تصوير أعضاء التناسل بوساطة
المباني والسلالم والمغاور
(حلم شاب كفّه مركب الأب)

يتمشى مع والده فى مكان لا شك فى أنه منتزه پراتر[١] ؛ لأنه — أعنى الحالم — يرى مبنى الروتوندا وقد تقدمه بناء صغير شد إليه منطاد بحبال ، غير أن المنطاد بدا متراخياً بعض الشىء . يسأله والده لم كل هذا ؟ ويعجب الحالم لسؤال أبيه غير أنه يشرح الأمر له . يجيئان بعد ذلك إلى فناء طرح على أرضه لوح من الصفيح . يريد والده أن ينتزع جزءاً منه ، ولكنه يدير البصر حوله قبل الإقدام على هذا الفعل لكى يرى هل هناك عين ترقبه . يقول لأبيه : إنه لا يحتاج سوى إلى مصارحة الحارس وله بعد ذلك أن يأخذ ما أراد وهو خالى البال . ينحدر من الفناء درج إلى مغارة فى جوف الأرض نجدت حوائطها تنجيداً وثيراً كما يكون للمقاعد الجلدية ، وفى نهاية المغارة دهليز طويل تبدأ بعده مغارة ثانية . . .

إن هذا المريض ينتسب إلى طائفة من المرضى لا يبشر العلاج معهم بخير كثير ؛ فهم يماشون التحليل مسافة معينة دون أن تظهر منهم مقاومة ما ثم بعد ذلك ينقلبون فلا يكاد يكون ثمت مجاز إليهم . ولقد استقل المريض بتفسير حلمه هذا استقلالا كاد أن يكون تامًّا ، فقال : « إن الروتوندا هى أعضاء التناسل عندى والمنطاد المشدود قدامها قضيبى الذى أرى فى ارتخائه مدعاة إلى شكاتى . » ولنا إذن أن نزيد كلامه تفصيلا فنترجم الروتوندا بالردفين — اللذين يدخلهما الطفل بين أعضاء التناسل عادة — ونترجم المبنى الصغير الذى يتقدم الروتوندا بكيس الخصيتين . ويسأله أبوه فى الحلم ما معنى هذا كله ، أى ما الغرض من أعضاء التناسل وما عملها ، ولكن لا يخفى أن العكس هو الصحيح بحيث يكون المسئول سائلا . ولما كانت الحقيقة هى أنه لم يسأل والده مثل هذا السؤال قط فعلينا أن نقدر أن فكرة الحلم رغبة أو شىء أشبه بجملة شرطية : « لو أننى سألت والدى بعض الإيضاح الجنسى . . . » وستتكشف لنا بقية الجملة عاجلا .

وأما الفناء الذى طرح لوح الصفيح على أرضه فلا ينبغى أن نبدأ بأخذه مأخذا رمزيا ، بل هو مستمد من محل عمل والده . ولقد اقتضى داعى الأمانة على السر أن أستبدل الصفيح بالمادة الأخرى التى يتجر فيها والد الحالم دون أن أغير شيئاً من نص الحلم فيما خلا ذلك . وكان الحالم قد التحق بمؤسسة أبيه واحتج احتجاجاً عنيفاً على ما

(١) [منتزه معروف فى ضواحى ڤيينا ، ورد ذكره من قبل فى ص ٢١٣ .]

رآه من تصرفات مشبوهة بعض الشيء كانت تعتمد عليها أرباح المؤسسة إلى حد ، ومن هنا جاز أن نكمل فكرة الحلم المذكور فى الفقرة السابقة على هذا النحو : « (لو أننى سألته) لغشنى مثلما يصنع بعملائه . » فأما الانتزاع الذى أفاد فى تصوير غش الأب فيورد الحالم من تلقاء نفسه تفسيره الثانى : إنه يعنى الاستمناء — وهو تفسير عرفناه منذ زمن طويل (أنظر ص ٣٥٦). ولكن يؤيده هنا أتم التأييد أن يُعْرَب عن السر الذى يحوط الاستمناء عادة بضده (من الممكن أن يؤتى ذلك علانية) . ويتفق وتوقعنا بعد ذلك كل الاتفاق أن ينقل الاستمناء إلى الأب مثل السؤال فى المشهد الأول من الحلم . وأما المغارة فيبادر الحالم — وهو يفكر فى حشو حوائطها الوثير — إلى تفسيرها بالمهبل . وأضيف مستنداً إلى ما تعلمته من تحليلات أخرى أن النزول — مثل الصعود فى بعض الحالات — يصف الاتصال الجنسى فى المهبل (أنظر ملاحظاتى فى ١٩١٠ د ، وانظر الهامش الذى فى ص ٣٦١ من هذا الكتاب) .

وأما أن يتبع المغارة الأولى دهليز طويل ثم مغارة ثانية فيفسره الحالم أيضاً تفسيراً مستمداً من تاريخ حياته : فهو قد عرف الجماع حينا ثم انقطع نتيجة للكف ويرجو اليوم أن يعينه العلاج على استرجاع قدرته . بيد أن الحلم يغمض مع ذلك قرب النهاية ، ولا شك فى أن كل عارف سوف يرجح أن موضوعاً آخر قد أخذ يتطرق إلى المشهد الثانى من الحلم ويؤثر فيه تأثيره ، وهو موضوع يشير إليه عمل الوالد وتصرفاته المحتالة والمهبل الأول المصور فى صورة المغارة ، وهكذا يستطيع المرء أن يفترض أن لهذا الموضوع صلة بالأم .

٤ — الرمز إلى أعضاء التناسل عند الرجل بوساطة الأشخاص وعند المرأة بمنظر طبيعى

(حلم امرأة من عامة الشعب كان زوجها من رجال الشرطة)

(رواه ب . داتنر)

. . . وعندئذ اقتحم البعض الشقة فصاحت — وقد امتلأت رعباً — تستنجد رجلا من رجال الشرطة ولكن رجل الشرطة هذا يدخل فى هدوء كنيسة [Kirche][1] كانت تسلم إليها عدة من الدرجات[2] ، وكان يصحبه أفاقان.

---

(١) أو كنيسة صغيرة [Kapelle] = مهبل .

(٢) رمز إلى الاتصال الجنسى .

كان يشمخ من وراء الكنيسة جبل [١] تعلوه غابة كثيفة [٢] . وكان رجل الشرطة يرتدى خوذة وصدارا معدنياً وعباءة . [٣] وكانت له لحية سمراء ، وأما الأفاقان اللذان كانا يصحبانه فقد شد كل منهما إلى حقوه إزارا أشبه بالغرارة [٤] . كان هناك طريق يسلم من الكنيسة إلى قمة الجبل وعلى جانبى هذا الطريق نبتت حشائش وشجيرات كانت تزيد على طول الطريق كثافة حتى صارت فوق قمة الجبل غابة حقيقية .

٥ — أحلام الخصاء عند الأطفال

ا) استيقظ طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات وخمسة أشهر — وكان من الجلى أنه لا يرتاح إلى فكرة رجوع والده من جبهة القتال — استيقظ ذات صباح منزعجاً ، سائلا ، ملحاً فى السؤال : لم كان بابا يحمل رأسه على طبق ؟ كان بابا يحمل رأسه على طبق فى الليلة الماضية .

ب) ويذكر طالب يعانى اليوم عصاباً قهرياً شديداً أن الحلم الآتى قد عاده مرات متكررة وهو فى السادسة من عمره : يذهب إلى الحلاق لكى يقص شعره . تدخل عندئذ امرأة ضخمة صارمة الملامح وتقطع رأسه . يعرف أن المرأة أمه .

٦ — رموز البول

إن الرسوم التى يراها القارئ هنا قد اكتشفها فرنتسى فى صحيفة هزلية هنغارية (هى صحيفة « فيديبوس ») فلم يفته أن يرى كيف يمكن استخدامها فى تصوير نظرية الحلم ، ولقد سبق أوتو رانك إلى نقلها فى مقال له (١٩١٢ أ) .

كانت هذه الصور تحمل العنوان الآتى : « حلم مربية فرنسية » ولكن الصورة الأخيرة التى ترينا المربية وهى تستيقظ على صراخ الطفل هى وحدها التى تجعلنا ندرك أن الصور السبع السابقة إنما تصور مراحل فى حلم واحد . فالصورة الأولى تبين المنبه الذى كان ينبغى أن يؤدى إلى اليقظة : فالطفل يستشعر حاجة ويطلب معاونته على قضائها . ولكن الحلم يخيل إلى الحالمة أنها تصطحب الطفل فى نزهة وليست نائمة فى غرفته . وهى فى الصورة الثانية قد أخذته إلى جانب الطريق حيث نراه يتبول — ولها إذن أن تمضى فى نومها . ولكن المنبه يستمر ، بل يزداد ؛ فالطفل إذ لا يجد أحداً يسارع

---

(١) Mons veneris [جبل الزهراء .]

(٢) Crines pubis [شعر العانة .]

(٣) فى رأى خبير أن الشياطين المكتسية بعباآت وطراطير ذات طبيعة قضيبية .

(٤) نصفا كيس الخصيتين .

إليه يرفع صوته بالصراخ . وكلما ألح فى إيقاظ مربيته وفى طلب عونها أكد لها الحلم أن كل شىء على ما يرام وأنه لا داعى يدعوها إلى الاستيقاظ . وفى هذا الوقت عينه يصور الحلم الزيادة فى المنبه بالزيادة فى أبعاد الرموز الرامزة إليه : فجرى الماء الذى يحدثه التبول يزيد عنفوانا ، فما أن تأتى الصورة الرابعة حتى تصير منه الكفاية لقارب ذى مجداف ، ثم لجندل ، فمركب ذى شراع ، وفى النهاية باخرة . وهكذا استطاع رسام ماهر أن يصور الصراع بين حاجة عنيدة إلى النوم ومنبه لحوح يدفع إلى اليقظة تصويراً حاذقاً .

٧ – حلم سلم

(رواه أوتو رانك وفسره)

« وأشكر أيضاً هذا الزميل الذى أدين له بحلم المنبه السنى (وهو حلم مذكور هنا فى ص٣٩٢ وما بعدها) على حلم آخر من أحلام الإمناء لا يقل عنه شفافية :

« أنهب السلم ملاحقاً فتاة صغيرة ارتكبت فى حقى شيئاً ما أريد عقابها عليه . يوقفها لى عند نهاية السلم شخص ما (أهو امرأة راشدة ؟) أمسك بالفتاة ، ولا أعلم هل ضربتها ، لأننى وجدتنى فجأة على منتصف الدرج أجامع الطفلة (كما لو كان ذلك فى الهواء) . لم يكن ذلك جماعاً حقيقياً ، بل كنت أحك بعضوى أعضاءها الخارجية التى كنت أراها فى هذه الأثناء متميزة غاية التميز كما كنت أرى رأسها الذى ارتد إلى الوراء يميل إلى أحد الجانبين . وبينما كنت آخذا فى الفعل الجنسى رأيت صورتين معلقتين فوق عن يسارى (كما لو كان ذلك أيضاً فى الفضاء) ، وكانت كلتاهما تصور منزلا تحيط به الأشجار وكان اسمى مكتوباً بأسفل أصغر الصورتين فى موضع توقيع الرسام ، كأنما أريد بالصورة أن تكون هدية عيد ميلاد إلى . وعلقت أيضاً أمام الصورتين لافتة كتب عليها : الصور الأرخص يمكن الحصول عليها أيضاً (وعندئذ أرانى كما لو كنت نائماً فى سرير على فسحة السلم رؤية مبهمة إلى أبعد حد) ثم يوقظنى شعور بالبلل الذى أحدثه الإمناء .

« التفسير : ذهب الحالم فى مساء يوم الحلم إلى إحدى المكاتب وبينما كان ينتظر تلبية طلبه أجال بصره فى صورة كانت تعرض هناك وكانت تصور موضوعات أشبه بما رآه فى الحلم . وراقته بنوع خاص لوحة صغيرة فاقترب منها ليتبين اسم الرسام ، فكان اسماً لا يعرفه على الإطلاق .

« وحدث بعد ذلك فى هذه الأمسية عينها أنه كان فى رفقة جماعة من الأصدقاء ، فسمع قصة تحكى عن خادم بوهيمية كانت تفاخر بأن ابنها غير الشرعى قد صنع على السلم . واستفسر الحالم عن تفاصيل هذه القصة غير المألوفة فعلم أن الخادم اصطحبت عاشقها يوماً إلى منزل والديها فلم يجدا هناك فرصة للاجتماع وغلب الشبق الرجل فأتى فعله

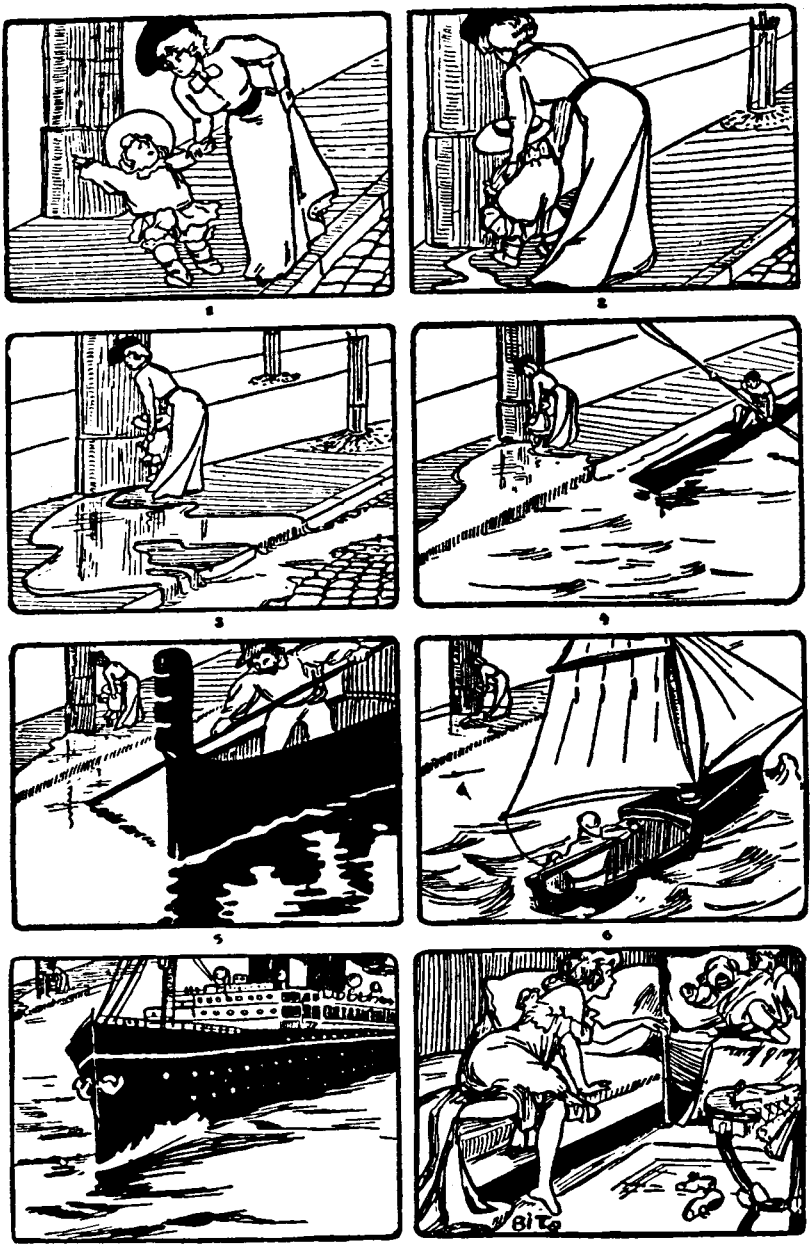
1
2
3
4
5
6
BITE

معها على السلم . وعندئذ لمح الحالم تلميحاً مازحاً إلى تعبير خبيث يطلق فى وصف الأنبذة المخلوطة : إن هذا الطفل قد جاء حقيقة ' من كرمة زرعت فى بئر سلم .'

« تلك هى وشائج الحلم باليوم السابق ، وهى وشائج ظهرت فى محتوى الحلم بشىء من الإلحاح وسردها الحالم دون أن يلاقى فى سردها صعوبة ما . ولكنه ذكر أيضاً بمثل هذه السهولة طرفاً من إحدى ذكريات طفولته ، ذكرى لقيت هى الأخرى فى الحلم وجه استخدامها : فالسلم قد أخذ من المنزل الذى قضى فيه الحالم معظم طفولته وفيه — على الأخص — حصل أول معرفته الشعورية بالمسائل الجنسية . وكان الحالم كثيراً ما يلعب على هذا السلم ، ومن صنائعه فى هذا المضمار امتطاء الجُلّق والتزحلق عليه وهو فعل كان يطلق عنده أحاسيس ذات طابع جنسى . وإنه فى الحلم كذلك يندفع على الدرج فى سرعة خارقة حتى أن قدميه — على حسب تعبيره — لم تكونا — والحق يقال — تلمسان السلم درجة فدرجة ، بل كانتا « تطيران » طيراناً — كما نقول . فإذا حسبنا لهذه الخبرة الطفلية حسابها ، بدا أن بداية الحلم تصور عامل الهياج الجنسى . — غير أن الحالم قد عبث أيضاً مع أبناء الجيران عبثاً جنسياً فوق هذا السلم وسلم البيت المجاور وكثيراً ما أشبع رغباته الجنسية فى خلال هذا العبث على نحو يماثل نحو إشباعها فى الحلم كل المماثلة .

«فإذا تذكرنا أن أبحاث فرويد (أنظر ١٩١٠أ [وانظر ص٣٦٣فيما سبق]) قد بينت أن السلالم وصعودها تقوم فى الحلم مقام الجماع قياماً لا يكاد يكون له استثناء، غدا الحلم شفافاً كل الشفافية . فالدافع إليه — كما يظهر فى الحقيقة من خاتمته ؛ وهى الإنزل — كان دافعاً ليبيديا محضاً . فقد استيقظ الهياج الجنسى للحالم أثناء نومه — وهو ما تصور فى الحلم باندفاعه على السلم — وكان فى هذا الهياج عنصر سادى يرجع تكونه إلى عبث الطفولة ودلت عليه مطاردة الحالم للطفلة وسبقه إياها . وزاد الهياج الليبيدى شدة حتى حث على الفعل الجنسى — وهو ما تصور فى إطباق الحالم على الطفلة وحمله إياها إلى منتصف السلم . وإلى هنا لم يكن الحلم جنسياً إلا على نحو رمزى ، ولعل الحلم كان يستغلق كل الاستغلاق على من لا مراس له بتفسير الأحلام . بيد أن مثل هذا الإشباع الرمزى لم يكف لأن يكفل للحالم رقوداً هادئاً ؛ لشدة التهييج الليبيدى. فكان أن أدى التهييج إلى الإنزال ، وبذا انكشف أن رمزية الحلم بحذافيرها كانت تصور الجماع . — وإذا كان

فرويد يذهب إلى أن أحد الأسباب الداعية إلى استخدام صعود السلم رمزاً جنسيًّا هو الطابع التوقيعى الذى لكلا الفعلين ، فهذا الحلم شاهد يؤيد كلامه فى وضوح خاص ؛ لأن الحالم قد ذكر صراحة أن أبرز عناصر حلمه جميعاً كان توقيع الفعل الجنسى وحركته صعوداً وهبوطاً .

« تبقى ملاحظة خاصة بالصورتين اللتين ظهرتا فى الحلم بمعنى رمزى ، بمعنى 'صور نساء' [1] إلى جانب المعنى الموضوعى : إن ذلك ما يشهد به وجود صورة كبيرة وأخرى صغيرة مثلما جاءت فى الحلم من قبل امرأة كبيرة (أو راشدة) وطفلة صغيرة . كما أن إمكانية الحصول على الصور الأرخص تؤدى إلى مركب البغايا . هذا بينما يلمح إلى المركب الوالدى ظهور اسم الحالم فى الصورة الصغرى ثم تفكيره فى أن هذه الصورة يراد إهداؤها إليه يوم عيد مولده (ولد على السلم = جاء نتيجة الجماع) .

« فأما المشهد الأخير غير المتميز — حين يرى الحالم نفسه راقداً فى سريره على فسحة السلم مع إحساس بالبلل — فيبدو أنه يشير إلى عهد من عهود الطفولة يسبق عهد الاستمناء الطفلى أيضاً . وأغلب الظن أنه مشهد يستمد مثاله المحتذى من مشاهد مشبعة أيضاً باللذة تتعلق ببلل الفراش . »

٨ — حلم سلم معدل

كان بين مرضاى مريض ينفر من الحياة الجنسية نفوراً أملاه عصاب شديد وكانت تخييلاته مثبتة على أمه وكان يحلم مراراً بأنه يصعد السلم فى صحبتها . واتفق أنى ذكرت له أن الاستمناء مع شىء من القصد لن يضره فى أغلب الظن ضرر امتناعه القهرى هذا ، فكان من أثر هذه الملاحظة أنه حلم الحلم الآتى :

« يؤنبه معلم البيانو على إهماله العزف ولأنه لم يجود ' دراسات ' موشليس ولا ' مراقى البارناس ' لكليمنى . »

ويعقب المريض على هذا الحلم فيلاحظ أن المراقى أيضاً درجات وأن المعزف نفسه درج لأنه يحتوى على سلالم .

---

(١) ["Weibsbilder" تعبير ألمانى دارج بمعنى : نساء .]

إن المرء لا يجانب الحق إذا قال : إنه ما من طائفة من الأفكار إلا أمكن استخدامها فى تصوير حقائق الحياة الجنسية ورغباتها .

٩ ــ الشعور بأن ما يرى فى الحلم حقيقة وتصوير التكرار

قص رجل يبلغ اليوم الخامسة والثلاثين من عمره حلماً يتذكره تذكرا واضحاً ويدعى أن هذا الحلم قد أتاه وهو فى الرابعة من عمره : أحضر مسجل العقود المكلف بإنفاذ وصية والده ــ وكان والده قد مات وهو طفل فى الثالثة ــ كمثريين كبيرتين ، أعطى إحداهما ليأكلها ووضعت الثانية على عارضة النافذة التى فى حجرة الجلوس . واستيقظ الحالم وهو مقتنع بحقيقة ما رأى حتى أنه ألح على أمه فى طلب الكمثرى الثانية مؤكداً أنها ما زالت بعارضة النافذة مما أثار ضحك أمه .

التحليل : كان مسجل العقود سيدا متقدماً فى السن مرح الطبع ، واتفق ذات مرة أنه أحضر حقيقة بعض الكمثرى ــ كما يعتقد الحالم تذكره . وأما عارضة النافذة فكانت كما رآها فى الحلم ، ولم يخطر بباله خاطر آخر بصددها ــ سوى أن أمه كانت قد روت له حلماً منذ زمن قريب : رأت طائرين يقبعان فوق رأسها ، فسألت نفسها ، متى يطيران بعيداً عنها ؟ ولكنهما لم يطيرا بعيدا ، بل طار أحدهما إلى فمها وأخذ يحسو منه .

وكان وقوف مستدعيات الحالم يخول لنا الحق فى أن نحاول تفسير حلمه بترجمته الترمزية : إن الكمثريين ــ تفاح وكمثرى[1] ــ هما ثديا الأم اللذان غذياه ، وأما عارضة النافذة فهى بروز صدرها ، مثل الشرفات فى أحلام المنازل [أنظر ص ٣٦٢] . وهو محق فى شعوره بعد اليقظة بحقيقة ما رأى ؛ فقد أرضعته أمه حقيقة ، بل تمادت فى ذلك إلى ما يعدو الحد المألوف كثيراً وكان صدرها إذ ذاك لا يزال مباحاً له . فالحلم تنبغى ترجمته : يا أماه ، اعطنى (أو أرينى) مرة ثانية صدرك الذى نهلت منه مرة من قبل . . و « المرة التى من قبل » قد ترجمت فى الحلم بالكمثرى التى أكلت ، وترجمت « المرة الثانية » بسؤاله عن الأخرى . فالتكرار الزمنى للفعل ينقلب فى الحلم بانتظام إلى تكثير عددى للموضوع .

---

(١) [pommes et poires ــ رموز دارجة إلى الأثداء فى اللغة الفرنسية .]

ولأن تأخذ الرمزية بنصيب فى حلم طفل ما زال فى الرابعة أمر بالطبع من أشد الأمور جذبا للنظر . ولكن ذلك ليس استثناء بل هو القاعدة . وما نجانب الصواب إذا قلنا : إن الحالم يجد لغة الرموز فى متناوله منذ البدأ .

وها هى ذى ذكرى خالية من كل تأثير غريب تقصها سيدة تبلغ اليوم السابعة والعشرين من عمرها ، وإنها لترينا بأى سن مبكرة يصطنع الإنسان لغة الرموز خارج الحياة الحالمة كما فى داخلها : كانت سنها بين الثالثة والرابعة حين أخذتها مربيتها إلى مرفق المياه مع أخيها الذى يصغرها بأحد عشر شهراً وفتاة قريبة تتوسطهما فى العمر ، لكى يقضى الجميع حاجاتهم قبل أن يخرجوا للنزهة. وكانت هى أكبر الثلاثة فجلست على مرحاض الكبار فى حين جلس الطفلان الآخران على الأصص المخصصة للأطفال . وهنا سألت الراوية قريبتها : أأنت أيضاً تملكين كيساً ؟ إن فالتر يملك سحقاً صغيراً ، وأما أنا فكيس . فأجابت القريبة : نعم ، أنا أيضاً أملك كيساً . وسمعت المربية حديثهما ضاحكة ثم نقلته إلى سيدتها ، فكان جوابها تقريعاً محتدأ .

وأسرد فى هذا الموضع حلماً مكنتنا رموزه البديعة المنتقاة من تفسيره بغير كبير استعانة بمستدعيات الحالمة :

١٠ — « مسألة الرمزية فى أحلام الأصحاء »[١]

« هناك اعتراض يكثر منه خصوم التحليل النفسى — ورددده هافلوك إليس أخيراً[٢] وهو يتلخص فى أن رمزية الحلم قد تكون نتاجاً للنفس العصابية ولكنها تفقد كل صدق فيما يتصل بالأشخاص السويين . وإن البحث التحليلى النفسى إذا كان لا يرى فارقاً أساسياً بين الحياتين السوية والعصابية ، بل كل الفرق عنده فى الكم ، فإن تحليل الأحلام التى تعمل فيها المركبات المكبوتة عند المرضى والأصحاء على السواء يرينا عينية تامة بين الأحلام هنا وهناك ، سواء أمن حيث الميكانيكيات أم من حيث الرموز ، بل إن أحلام الأصحاء الساذجة كثيراً ما تحوى رموزاً أقل تعقيداً وأكثر شفافية ودلالة مما يرد

---

(١) عن ألفريد روبيتسك ، ١٩١٢ ، ص ٣٤٠ .

(٢) « عالم الأحلام » لندن ١٩١١ ، ص ١٦٨ .

فى أحلام العصابيين ؛ فهذه قد تستغلق على التفسير وتتعذر نتيجة لفعل الرقابة الأشد وما ينجم عنه من تشويه أوسع نطاقاً . والحلم الذى أرويه ينفع فى تصوير هذه الحقيقة . إنه حلم فتاة لا تشكو عصاباً ، يغلب على طبعها الخفر والتحفظ ، علمت وأنا أتحدث معها أنها قد خطبت ولكن تحول دون زواجها عقبات ربما ألجأت إلى إرجائه . ولقد روت لى الحلم الآتى من تلقاء نفسها :

« أهيئ وسط إحدى الموائد بأزهار استعداداً لعيد ميلاد [١] . وتقول الفتاة إجابة عن سؤال سألتها إياه : إنها بدت فى الحلم كأنما كانت فى بيتها (وهى لا تعيش فيه فى الوقت الحاضر) . وأن شعورا بالسعادة كان يخالجها .

« إن الرموز ' الشعبية ' تمكننى من ترجمة هذا الحلم وحدى . فهو يعرب عن رغبتها فى العرس : فالمائدة المزدانة بالأزهار فى وسطها ترمز إليها هى وإلى أعضاء التناسل عندها . وهى تصور رغبة المستقبل محققة : فها هى ذى تشغل بالتفكير فى عيد ميلاد الطفل كأنما الزواج وراءها بينه وبينها أمد بعيد .

« وأقول لها : إن وسط إحدى الموائد [٢] تعبير غريب بعض الغرابة (وهو أمر توافقنى عليه) ولكننى بطبيعة الحال أحجم عن أن أوجه إليها سؤالا مباشراً فى هذا الصدد ؛ فقد كنت حريصاً على ألا أوحى إليها تفسير الرمز ، واكتفيت بسؤالها عما يدور بخلدها فيما يتصل بأجزاء الحلم المتفرقة . ولم يلبث تحفظها أن انحسر فى سياق التحليل ليحل محله اهتمام بالتفسير ومصارحة مكنتها ما اتسم به الحديث من طابع الجد . — سألتها أى الأزهار كانت ، فأجابت على الفور : أزهار غالية لاينالها المرء إلا إذا دفع [٣] ، ثم أردفت : زنابق الوادى وبنفسج وقرنفل [٤] ، وتراءى لى أن كلمة الزنبق قد وردت فى هذا الحلم بمعناها الشعبى من حيث هى رمز للطهارة ، فأيدت الفتاة كلامى لأن الزنبق يستدعى فى ذهنها الطهارة . ولكن الوادى رمز أنثوى يشيع فى الأحلام ، فكأن رمزية

---

(١) [I arrange the centre of a table with flowers for a birthday.]

(٢) [the centre of a table.]

(٣) ['Expensive flowers; one has to pay for them']

(٤) ['Lilies of the valley, violets and pinks or carnations' ?]

الحلم قد استغلت التقاء كلا الرمزين التقاء عارضاً فى الكلمة الإنجليزية الدالة على هذه الزهرة[١] من أجل توكيد نفاسة عذرها — أزهار غالية ، لا ينالها المرء إلا إذا دفع — ومن أجل الإعراب عن أملها فى أن يعرف رجلها كيف يقدر قيمتها حق قدرها ولن نلبث دون أن نرى أن هذه الملاحظة : أزهار غالية . . . إلخ . كان لها معنى يختلف باختلاف الأزهار الثلاث الرامزة .

« وخطر لى — وهو خاطر بدا لى غاية فى الجرأة — أن أفسر 'violets' [بنفسج] الظاهرة الخلو من كل وجه جنسى بصلة بينها وبين الفرنسية 'viol' [اغتصاب] ، فشد ما كان دهشى إذ رأيت الحالمة تستدعى 'violate' وهى الكلمة الإنجليزية الدالة على : اغتصب . فكأن الحلم قد استغل هذا الجناس العارض الكبير بين كلمتى 'violet' و 'violate' — والحق أنهما لا يختلفان فى النطق الإنجليزى إلا من حيث نبرة المقطع الأخير — فى الإعراب بـ' لغة الأزهار ' عن أفكار الحالمة حول القسوة التى فى قص زهرة العفاف (وهو تعبير آخر يستخدم لغة الرموز) ، ولعله استغله فى الإعراب كذلك عن سمة ماسوشية من سمات طبعها — وهو مثال جميل على الجسور اللفظية التى يمر بها الطريق إلى اللاشعور . وأما قولها : لا ينالها المرء إلا إذا دفع فيعنى — فى هذا الموضع — حياتها التى يجب أن تدفعها لكى تصير زوجاً وأما .

« وأما كلمة 'pinks' [قرنفل] التى ألحقت بها مرادفها 'carnations' فقد ذهبت بخاطرى إلى الصلة بينها وبين الكلمة الإنجليزية التى بمعنى " لحمى " [٢] ولكن الحالمة فكرت فى كلمة 'colour' (لون) ، ثم أضافت أن الـ 'carnations' [القرنفل] أزهار كان خطيبها يهديها إليها فى مناسبات كثيرة وبمقادير كبيرة . غير أنها بعد أن فرغت من كلامها صرحت فجأة من تلقاء نفسها بأنها لم تقل الصدق : فالكلمة التى خطرت لها لم تكن 'colour' بل 'incarnation' (التجسد) [وبالحرف : الحلول فى لحم] — وهى الكلمة التى كنت توقعتها . ونلاحظ بعد ذلك أن كلمة 'colour' ذاتها لم تكن جاءت عفوا ، بل ساقها معنى كلمة 'carnation' (لون اللحم) [٣] ، وهى إذن كانت محتمة بالمركب .

---

(١) [قلنا : زنابق الوادى ، بترجمة حرفية لاسم هذه الزهرة فى اللغة الإنجليزية تسهيلا لمتابعة النص والمقصود نوع من الزنبق أو السوسن .]

(٢) [المقصود كلمة carnal ويراد بها : حسى أو جنسى .]

(٣) [ويراد به الأحمر القرمزى .]

« وترينا هذه المواربة أن المقاومة قد بلغت فى هذا الموضع أقصى مداها وهو ما يتفق وكون الرمز كان ههنا أكثر ما يكون وضوحاً ، وأن الصراع بين الليبيدو والكبت قد بلغ أشده فيما يتصل بهذا الموضوع القضيبى . وملاحظة الحالمة أن خطيبها كان يهدى إليها هذه الأزهار كثيراً لم تكن تشير — إذن — إلى المعنى المزدوج الذى لكلمة 'carnation' وحسب [" قرنفل " و "فى لون اللحم'] ، بل كانت تشير كذلك إلى مضمونها القضيبى فى الحلم . وهدية الأزهار — وكانت هى الحدث اليومى الذى بعث على الحلم — قد استخدمت فى التعبير عن أفكار تدور حول تبادل العطايا الجنسية : إنها تهدى بكارتها وتنتظر فى مقابلها حياة من الحب الموفور . وهنا كان أيضاً لقولها : أزهار غالية ، لا ينالها المرء إلا إذا دفع — كان له معناه — ومعنى مالى ، حرفى ، من غير شك . — وهكذا اشتملت رمزية الزهور فى هذا الحلم على عذر الأنوثة ، ثم على الذكورة ، ثم على إشارة إلى فض البكارة عنوة . وإنه مما تنبغى الإشارة إليه فى هذا المجال أن الرمزية الجنسية للأزهار — وهى رمزية يكثر استخدامها من غير شك فى غير هذا المثال — ترمز إلى الأعضاء الجنسية للإنسان بالأزهار التى هى الأعضاء الجنسية للبنات . وربما كانت هدايا الزهور بين العاشقين تحمل بوجه عام هذا المعنى اللاشعورى .

« ثم إن يوم الميلاد الذى كانت الحالمة تعد له عدته يعنى ولا شك مولد طفل . فالحالمة تعين ذاتها بخطيبها وتصوره كما لو كان يهيئها للميلاد ، أى يجامعها . والفكرة الكامنة يمكن إذن صوغها على هذا النحو : لو كنت إياه ما انتظرت ، بل كنت أفض زهرة خطيبتى دون أن أسألها ، معملا العنف — وهى فكرة ألمعت إليها كلمة 'violate' وهكذا يبلغ المقوم السادى فى الليبيدو إلى الإفصاح عن نفسه .

« وربما كان لقولها : أهيئ . . . الخ . ، ربما كان له — فى طبقة أعمق من الحلم — مدلول العشق الذاتى ، أى مدلول طفلى .

« والحالمة حاصلة أيضاً على معرفة لا تتسنى إلا فى الحلم بنقصها الجسمى ؛ فهى ترى نفسها مسواة مسطحة مثل المائدة ، وهى لذلك تعلى من نفاسة الـ 'centre' [الوسط أو المركز] (وتسميه فى موضع آخر : جزءاً أوسط من الزهور)[1] ، أى عذرتها .

---

(١) ['a centre piece of flowers']

وهكذا شاركت أفقية المائدة بعنصر من عناصر الرمز . — وإنه لأمر حرى بالملاحظة هذا التركز فى الحلم ؛ فما فيه من نافلة وكل كلمة رمز .

« وقد أتت الحالمة من بعد بملحق لحلمها : 'أزين الأزهار بورق أخضر متجعد' (١) ثم أضافت أنه كان 'ورق زينة' (٢) من النوع الذى يستخدم فى تغطية أصص الزهور المألوفة . ثم مضت تقول : 'لإخفاء الأشياء القذرة ، كل ما قد تقع عليه العين ولا يلوح لها حسناً ؛ هناك فجوة أو فضاء صغير بين الأزهار' (٣) . ثم : 'يبدو الورق مثل القطيفة أو الطحلب' (٤) . ويذهب بها التداعى من كلمة 'decorate' (زين) إلى كلمة 'decorum' (اللياقة) — مثلما توقعت . واللون الغالب هو اللون الأخضر وهو يستدعى 'hope' (الأمل) — وهى إشارة أخرى إلى الحمل. إن السمة الغالبة فى هذا الجزء من الحلم ليست تعين ذاتها برجل ، بل الصدارة هنا لأفكار خجل ومصارحة : فهى تتجمل له وتسلم بما فى جسمها من معايب تثير خجلها وتحاول هى إصلاحها . ولقد كانت مستدعياتها فى صدد القطيفة والطحلب شاهداً واضحاً على أن الأمر يتعلق بشعر العانة .

« هذا الحلم يعرب إذن عن أفكار كانت الفتاة لا تكاد تعرفها فى حياتها المستيقظة أفكار تدور حول الحب الحسى وأعضائه : فهى كانت 'تهيأ للميلاد' أى تواصل بوصال جنسى . والخشية من أن تفض عذريتها تلقى هى الأخرى ما يفصح عنها ، وربما كان ثمت ما يعرب كذلك عن ألم مشرب باللذة . والفتاة تصارح نفسها بمعايبها الجسمية وتعوض نفسها عنها بالمغالاة فى تقدير بكارتها . وحياءها يتلمس لها العذر على هذه النزعات الحسية ، وعذره أنها تهدف إلى الخلف . ثم بالإضافة إلى ذلك تدخل اعتبارات مادية ، غريبة عن ذهن المحب . كما أن الحالة الوجدانية المقترنة بهذا الحلم الساذج — وأعنى بها إحساس السعادة — تدل على أن مركبات عاطفية قوية قد وجدت فى هذا الحلم كفايتها . »

وما جانب فرنتسى الصواب — إذن — حين لاحظ (١٩١٧) أى سهولة تم بها

---

(١) ['I decorate the flowers with green crinkled paper.']

(٢) ['fancy paper']

(٣) ['to hide untidy things, whatever was to be seen which was not pretty to the eye; there is a gap, a little space in the flowers.']

(٤) ['The paper looks like velvet or moss'.]

« أحلام الغافلين »[1] بوجه التحديد عن معنى الرموز وعن تفسير الأحلام .

وفى هذا الموضع أدرج حلماً لشخصية تاريخية معاصرة ؛ لأننا نرى فيه موضوعاً من الموضوعات التى تصلح بوجه عام لتمثيل عضو الذكر وقد أضيف إليه محمول يرينا فى وضوح ما بعده وضوح أن هذا الموضوع رمز قضيبى : فأن يطول سوط الفارس طولا لا نهاية له — ذلك ما لا يسهل تفسيره بسوى كونه يعنى الانتصاب . يضاف إلى ذلك أن هذا الحلم يزودنا بمثال جميل يبين كيف يمكن أن تصور أفكار جدية ، بعيدة كل البعد عن كل ما هو جنسى بوساطة مادة طفلية جنسية .

١١ — حلم لبسمارك

(عن الدكتور هانس ساكس)

« يروى بسمارك فى كتابه خواطر وذكريات ' (الجزء الثانى من الطبعة الشعبية [١٨٩٨] ص ٢٢٢) خطاباً قصيراً كتبه إلى القيصر ڤيلهلم فى ١٨ من ديسمبر عام ١٨٨١ . وكان الخطاب يتضمن تلك الفقرة: إن ما أفضت به جلالتكم إلىّ يشجعنى على أن أروى حلماً أتانى ربيع عام ١٨٦٣ ، فى أشد أيام ذلك الصراع الذى لم تكن تستطيع عين إنسان أن ترى منه مخرجاً : حلمت — وطلع الصباح فما لبثت حتى قصصت الحلم على زوجى وشهود آخرين — أننى أركب فى طريق ضيق بين جبال الألب ، الهاوية عن يمينى والصخور عن يسارى والطريق تزيد ضيقاً بعد ضيق حتى أبى الحصان مواصلة المسير واستحال على أن أنزل أو أستدير ؛ لقلة المتسع . عندئذ رفعت سوطى بيسارى وهويت به على الصخرة الملساء وأنا أدعو الله ، فإذا السوط يطول إلى غير نهاية ، وإذا الصخرة تسقط مثل مشهد من مشاهد المسرح ، ويظهر طريق فسيح يشرف على تلال وغابات من قبيل ما نرى فى بوهيميا ، ولاحت الفرق البروسية حاملة راياتها ، فأفكر — وأنا ما أزال بحلمى — فى أن أنبئ جلالتكم بالأمر من غير إمهال . ولقد صار هذا الحلم حقيقة واستيقظت منه مثلج الصدر ، مشددا .

---

(١) [المراد بالغافلين من لا يعلمون شيئا عن التحليل النفسى ومكتشفاته .]

« إن حركة هذا الحلم تنقسم قسمين : فى الأول تضيق بالحالم السبيل ، ثم يخرج منها بأعجوبة فى الثانى . وجلى أن الموقف الوعر الذى يقف فيه كلا الجواد وراكبه تصوير حلمى يصور الموقف الحرج الذى كان يلم برجل الدولة ، ولعله قد ذاق مرارة هذا الموقف بصفة خاصة وهو يفكر فى مشكلات سياسته فى ذلك المساء الذى سبق الحلم . ألا نرى بسمارك — فى الفقرة التى أوردناها — يستعيد بنفسه تلك الصورة عينها فى وصف ضائقته إذ ذاك ؟ وهى إذن صورة مألوفة له كل الألفة ، قريبة من ذهنه كل القرب . ونحن — إلى جانب ذلك — نواجه مثالا بديعاً على ما يسميه سيلبرير ' الظاهرة الوظيفية ' ؛ فالعمليات التى تدور فى ذهن الحالم — يلتمس الحلول فإذا عقبة كأداء تقف دون كل حل وهو مع ذلك لا يملك أن يحرر نفسه من هذه المشاغل ولا يُحِل لها هذه الحرية — هذه العمليات تتمثل أوفق تمثل فى الراكب الذى لم يعد يستطيع إقداما ولا رجوعاً . وكبرياؤه التى تمنعه التفكير فى أن يسلم أو أن يستعفى تتجلى فى هذه الكلمات : استحال على أن أنزل أو أن أستدير . ولا بد أن بسمارك — وهو رجل العمل الذى لا ينقطع عن الكد ويرهق نفسه من أجل الغير — لم يكن بعيداً عن أن يشبه نفسه بالجواد . والحق أن بسمارك قد أتى بذلك التشبيه فى مناسبات شتى ، مثال ذلك قوله المعروف : الحصاد الجيد ينفق وهو فى زُنّاقة. وعلى ذلك فقوله : أبى الحصان مواصلة السير ، لا يعنى إلا أن رجل الدولة المنهك قد شعر بالحاجة إلى أن يتحول عن هموم الحاضر ، أو هو — إن شئت تعبيراً آخر — كان آخذا فى تحرير نفسه من قيود مبدأ الواقع بوساطة النوم والحلم . ولقد حوى الحلم من قبل — فى قوله : طريق بين جبال الألب — بعض الإشارة إلى تحقيق الرغبة الذى يشتد فى الجزء الثانى من الحلم كل هذا الاشتداد . فلا شك فى أن بسمارك كان يعلم فى ذلك الحين أنه سيمضى إجازته المقبلة فى جبال الألب ، فى جاشتاين ، والحلم إذ ينقله إلى هذه الجبال يحله فى دفعة واحدة من جميع أعباء الدولة .

« وأما الجزء الثانى من الحلم فيصور رغبات الحالم محققة ، ويصورها كذلك على نحوين : الأول سافر مفهوم ، والآخر رمزى . فأما التحقيق الرمزى فى اختفاء الصخرة الكؤود وظهور الطريق الفسيحة — أى ' المخرج ' الذى كان يلتمسه — فى أحسن صورها . وأما التحقيق السافر ففى تقدم الكتائب البروسية رافعة راياتها . ونحن لكى نفسر هذه الرؤيا

المتنبئة لا نحتاج إلى تشييد الفروض الصوفية ؛ ففى نظرية فرويد عن تحقيق الرغبة الكفاية كل الكفاية : لقد كان بسمارك إبان ذلك الحلم يرغب حقيقة فى شن حرب ظافرة على النمسا تكون أحسن مهرب من المنازعات المتقدة فى داخل بروسيا ، وهكذا يصور الحلم تحقق هذه الرغبة — متفقاً وفرض فرويد — حين يرى الحالم الكتائب البروسية رافعة راياتها فى بوهيميا ، أى فى أرض العدو . وكل القيمة الفردية فى هذه الحالة هى أن الحالم الذى يشغلنا حلمه لم يكفه أن يحقق رغبته فى حلم ، بل عرف كيف يفرضها حقيقة واقعة . وهناك لمحة لا يمكن إلا أن يلتفت إليها كل من له ألفة بالطريقة التحليلية النفسية فى التفسير ، هى السوط الذى يطول إلى غير نهاية . إن السياط والعصى والرماح وما شابهها موضوعات نعرفها رموزاً قضيبية ، ولكن أن يملك سوط — فوق ذلك — أكبر الصفات التى تميز القضيب — قابلية الاستطالة — ذلك ما لا يكاد يترك مجالا لشك . ويبدو أن المبالغة فى الظاهرة ، من حيث الاستطالة ' إلى غير نهاية ' ، تدل على استمرار ليبيدى مفرط ، الطفولة مبدأه . وأن يمسك الحالم السوط بيده إشارة جلية إلى الاستمناء — وإن تكن الإشارة لا تتجه بالطبع إلى ملابسات الحالم المعاصرة بل إلى رغباته الطفلية المنتمية إلى الماضى السحيق . ومن الكشوف الثمينة القيمة ههنا كشف شتيكل أن اليسار يعنى فى الحلم الخطأ والممنوع والأثيم — وهو ما ينطبق كل الانطباق على الاستمناء الذى يزاوله الطفل رغم تحريمه . وفى وسعنا أن نجد بين هذه الطبقة الطفلية العميقة والطبقة السطحية التى تخص مشاغل رجـــل الدولة الحاضرة طبقة وسطى كانت موصولة بكل منهما . ذلك أن جميع هذا الجزء المتعلق بخلاص من الحاجة يتم — فيما يشبه المعجزة — بسوط يضرب الصخر مع الدعاء إلى الله مؤيداً ونصيراً — يحمل شبها ملحوظاً بمشهد من التوراة : حين يفجر موسى الماء من الصخر لأبناء إسرائيل الظماء . ولنا أن نفترض فى غير تردد أن بسمارك كان يعرف هذه الفقرة وكل تفاصيلها ، وهو المنحدر من أسرة بروتستانتية حافظة للتوراة . ولا هو بالشىء المستبعد أن يكون بسمارك — بين أيام هذا الصراع — قد قارن نفسه بموسى ، موسى القائد الذى كافأه الشعب بالتمرد والبغضاء والجحود على ما أراد له من الخلاص . ومن هنا — إذن — كانت الصلة برغبات الحالم المعاصرة . ولكن فقرة التوراة قد حوت من التفاصيل ما ينطبق أيضاً على تخييل استمنائى . فموسى يمسك العصا خارجاً على أمر الله ، ويعاقبه الرب فيعلنه أنه لا محالة مائت قبل أن يدخل أرض الميعاد . فالإمساك المحرم بالعصا — وهو ما يحمل فى الحلم معنى قضيبيا لا لبس فيه — ثم

حدوث السائل من ضربتها ووعيد الموت ، كل أولئك يزودنا باللحظات الرئيسة فى الاستمناء الطفلى مجتمعة . ومن الطريف أن نلحظ كيف لحمت — بوساطة فقرة التوراة هذه — هاتان الصورتان المتغايرتان الصادرة إحداهما عن ذهن رجل الدولة العبقرى والنابعة أخراهما من نوازع النفس الطفلية لحماً أخرست فى أثنائه كل العناصر الأثيمة : فكون الإمساك بالعصا عملا ممنوعاً عاصياً — ذلك ما لا يشار إليه إلا بإشارة رمزية ، باليد اليسرى التى أنقذته . والله يدعى فى محتوى الحلم الظاهر كأنما أريد بذلك أن تستبعد استبعاداً ظاهراً كل فكرة فى محرم أو مستور . ولقد أعلن الله موسى بأمرين : أنه سوف يرى الأرض الموعودة وأنه لن يدخلها ، فإذا الحلم يصور تحقق النبوءة تصويراً واضحاً (الإشراف على التلال والغابات) ويسكت عن الثانية البالغة نهاية مبالغ الألم . وأما الماء فلا يظهر ، وأغلب الظن أنه قد ضحى به من أجل المراجعة الثانوية التى جهدت جهداً موفقاً فى أن تدمج هذا المشهد وسابقه فى كل واحداً ، وبدل الماء تسقط الصخرة نفسها .

« ولنا أن نتوقع عند انتهاء الاستمناء الطفلى — وهو الذى ينطوى على فكرة المحظور — أن يرغب الطفل فى ألا يعلم أولو الأمر فى محيطه شيئاً مما صنع . وهذه الرغبة تصور فى الحلم بضدها ، بالرغبة فى أن يخطر الملك على الفور بما حدث . وهذا العكس يتسق اتساقاً حسنا طبعيا مع تخييل الانتصار المتضمن فى طبقة أفكار الحلم السطحية وفى جزء من محتوى الحلم الظاهر . وكثيراً ما يكون الحلم بالانتصار والغزو — كما هو الشأن فى هذا الحلم — غطاء يخفى الرغبة فى النجاح فى غزو عشق . وربما كان فى بعض ملامح الحلم ما يشير إلى ذلك الاتجاه — كأن تعترض عقبة تقدم الحالم ثم تخلى مكانها لطريق فسيح بعد أن يعمل الحالم سوطه — ولكنها لا توفر أساساً كافياً نستطيع أن نستدل منه على أن الحلم قد ضم أفكاراً ورغبات تتجه فى هذه الوجهة المحددة . إننا نرى هنا مثالا تاماً على تشويه حلمى نجح كل النجاح . فكل محرجة قد صيغت صياغة جديدة بحيث لا تنبثق على الإطلاق من خلال الطبقة السطحية التى فرشت على الحلم كغطاء حام . وبذلك أمكن تجنب كل انطلاق للهيلة . والحلم حالة مثالية لرغبة حققت تحقيقاً ناجحاً دون مخالفة الرقابة ، بحيث نفهم أن الحالم قد خرج من مثل هذا الحلم مثلج الصدر ، مشدداً . »

وأختتم بهذا المثال :

١٢- حلم كيميائى

صاحب هذا الحلم شاب كان يبذل طاقته من أجل الإقلاع عن عادة الاستمناء لكى تكون له صلات بالنساء .

تمهيد : كان الحالم فى اليوم الذى سبق الحلم قد شرح لأحد الطلبة تفاعل جرينيارد - وهو ذوبان المغنيسيوم فى الأثير المطلق النقاء بفعل اليود كعامل حافز . وقبل ذلك بيومين كان هذا التفاعل قد أدى إلى انفجار كان من نتيجته أن احترقت يد أحد الطلبة .

الحلم : ١) عليه أن يحضر مركباً من البرومين والفانيل والمغنسيوم . إنه يرى الجهاز فى وضوح شديد ولكنه قد استبدل بالمغنسيوم شخصه هو . إنه يجد نفسه الآن فى حالة عجيبة لا تستقر ، ولا ينقطع عن التحدث إلى نفسه قائلا : « كل هذا على ما يرام ، إن الأمور تسير سيراً حسناً ، فلماى قد أخذتا بالفعل فى الانحلال وركبتاى تلينان . » يمد يده بعدئذ ويتحسس قدميه ، وفى هذه الأثناء يشد ساقيه من البوتقة (دون أن يدرى كيف) ويحدث نفسه من جديد قائلا : « إن ذلك مستحيل ، ومع هذا فالعمل يسير سيراً صحيحاً . » يستيقظ عندئذ استيقاظاً جزئياً ويعيد الحلم لنفسه لأنه يريد أن يقصه على . إنه يشعر بخوف من حل هذا الحلم ويشعر باهتياج شديد فى أثناء غفوته هذه ولا ينى يكرر : الفانيل ، الفانيل .

٢) كان فى ضاحية -ينيج مع جميع أسرته ، وكان عليه أن يكون فى الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة فى شوتنتور (١) ليقابل سيدة معينة . ولكنه لا يستيقظ إلا فى الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة ، فيحدث نفسه قائلا : « لقد فات الوقت ، لست تستطيع أن تكون هناك قبل الثانية عشرة ونصف الساعة . » وعلى أثر ذلك يرى الأسرة جميعها وقد جلست حول المائدة ، ويرى فى وضوح خاص أمه والخادم التى تحمل وعاء الحساء . يحدث نفسه قائلا : « لقد بدأنا نأكل ، فلست أستطيع الخروج بعد ذلك . »

التحليل : إن الحالم لا يشك فى أن الجزء الأول من الحلم له أيضاً بعض الصلة بالسيدة التى كان يريد لقاءها (لقد أتاه الحلم فى الليلة التى سبقت موعده المنتظر). إنه يعتقد أن الطالب الذى شرح له استجابة جرينيارد شخص ثقيل إلى أبعد حد . وهو يذكر أنه قد قال لهذا الطالب : « لقد أخطأت ، فليست هناك دلائل تدل على أن المغنسيوم قد تأثر . » فأجاب الطالب كأن الأمر لا يعنيه فى شىء : « حقاً ، إنه لخطأ . » لا بد أن

---

(١) [" شوتنتور " مكان قريب من وسط ڤيينا . وأما "-ينيج" فالمراد بها ضاحية من ضواحى ڤيينا التى ينتهى اسمها بهذا المقطع . أنظر ص ٣١١ .]

هذا الطالب يمثله هو لأنه يستخف بالتحليل مثلما يستخف الطالب بالتركيب (الكيميائى) . والا « هو » الذى يجرى العملية فى الحلم ليس إلا إياى . لا بد أننى أستثقله لقلة مبالاته بالنتيجة .

والمريض من جهة أخرى هو المادة المستخدمة فى التحليل (التركيب فى الحلم) والأمر إذن يتعلق بنجاح العلاج . وإن الإشارة إلى ساقيه لتذكره بحدث من الليلة السابقة : ذلك أنه كان يتلقى درسا فى الرقص والتقى بسيدة كان يحرص على غزوها . لقد ضمها إليه ضما شديداً حتى أنها صرخت مرة. فلما أرخى ضغطه أحس منها ضغطاً مقابلا شديداً على أسفل فخذيه إلى ما فوق الركبتين ، فى الموضع المذكور فى الحلم . وفى هذا الموقف تكون المرأة التى تجرى الأمور معها أخيراً على ما يرام هى أيضاً المغنسيوم الذى فى البوتقة . إنه مؤنث بالنسبة إلى كما هو مذكر بالنسبة إلى المرأة . والأمور تسير سيراً طيباً مع السيدة ، وهى إذن تسير سيراً طيباً فى العلاج . وأما تحسسه نفسه والأحاسيس التى شعر بها فى ركبتيه فتشير إلى الاستمناء ، ثم هى تتفق وتعبه المتخلف من اليوم السابق . وقد كان موعده مع السيدة فى الحادية عشرة ونصف الساعة حقيقة . وإن رغبته فى النوم والمكوث مع موضوعاته الجنسية المنزلية (أى فى المداومة على الاستمناء) لتتفق ومقاومته .

أما فيما يتعلق بترديده كلمة « الفانيل » فهو يروى أنه كان دائم الولع بأصول الكلمات المنتهية بالمقطع « يل » لأنها يسيرة الاستخدام غاية اليسر : بنزيل ، ، آستيل . . . إلخ . وكل هذا لا يفسر شيئاً . ولكنى أقترح عليه كلمة شليميل [١] فإذا هو يغرب فى الضحك ويقص على أنه قد قرأ كتابا لمارسيل بريفو جاء فيه فصل عن : « المبعدين عن الحب » [٢] حوى بعض الملاحظات عن « الخائبين »[٣] . فلما قرأه حدث نفسه قائلا : تلك حالتى . — ولو أنه تخلف عن موعده ، لكان ذلك مثالا آخر على « خيبته » .

ويبدو أن ورود الرموز الجنسية فى الأحلام قد لقى تأييدا تجريبيا مباشراً . ذلك أن

---

(١) [Schlemihl كلمة من أصل عبرى شاع استخدامها فى الألمانية للدلالة على شخص عاثر لا كفاءة فيه ، أو كما نقول : خايب .]

(٢) ["Les exclus de l'amour"]

(٣) [يستخدم المريض هنا كلمة « شليميل » مصرفة تصريفاً فرنسيا : "les schlemiliés" .]

الدكتور شروتر قد أخذ فى عام ١٩١٢ — استناداً إلى فكرة أوحاها هـ . سفوبودا — ينوم بعض الأشخاص تنويماً مغناطيسياً عميقاً ، وكان فى مقدوره أن يملى عليهم جزءاً كبيراً من أحلامهم بإيحاءات كان يوحى بها إليهم وهم فى نومهم . فكان إذا أوحى إلى النائم أن يحلم بجماع سوى أو غير سوى أنفذ المنوَّم هذا الإيحاء مستخدماً الرموز التى عرفناها بالتحليل النفسى بدل المادة الجنسية الصريحة . مثال ذلك أنه أوحى إلى فتاة أن تحلم بجماع جنسى مثلى مع صديقة لها ، فظهرت الصديقة فى الحلم تحمل حقيبة بالية كتب عليها : « للسيدات فقط . » ويقال إن الحالمة كانت لا تملك أقل معرفة برموز الأحلام وتفاسيرها . ومما يؤسف عليه أننا لن نتمكن من تقدير قيمة هذه الأبحاث الهامة تقديراً صحيحاً نتيجة لذلك الحادث المحزن ، وأعنى به انتحار الدكتور شروتر بعد القيام بها بزمن قليل . ولسنا نملك عن هذه الأبحاث سوى دراسة تمهيدية (شروتر ، ١٩١٢) . وقد نشر ج . روفنشتاين كشوفاً مماثلة عام ١٩٢٣ . بيد أن التجارب التى أتاها بتلهايم وهارتمان (١٩٢٤) تحظى بأهمية خاصة ؛ لأن هذين الباحثين لم يلجآ إلى التنويم المغناطيسى . وإنما كان هذان المؤلفان يقصان قصصاً جنسية مكشوفة على المرضى المصابين بجنون كورساكوف وهم فى حالة الهذيان ، ثم يلحظون ما يطرأ على هذه القصص من التشويه حين يعيد المرضى رواياتها . فوجدا أن الرموز التى عرفناها من تفسير الأحلام كانت تظهر فى رواياتهم (صعود السلم والطعن وإطلاق النار رموزاً إلى الجماع ، والسكاكين ولفائف التبغ رموزاً إلى القضيب) . ويعلق المؤلفان قيمة خاصة على رمز السلم لأنه « ما من رغبة شعورية فى التشويه كانت تستطيع أن تبتدع مثل هذا الرمز » كما يلحظان بحق .

والآن بعد أن وزنا قيمة الرمزية فى الأحلام ، نستطيع أن نعود إلى موضوع الأحلام النمطية الذى تركناه فى ص٢٩١ . إنى أعتقد أننا محقون حين نقسم أمثال هذه الأحلام قسمة إجمالية إلى طبقتين : أحلام تملك دائماً ذات المعنى ، وأحلام يجب تفسيرها على أنحاء تتباين غاية التباين وإن كان لها محتوى واحد أو متشابه . وقد سبق أن تناولت فى شىء من التفصيل أحلام الامتحان بين أحلام الطبقة الأولى .

وتستحق أحلام فوت القطار أن تدرج فى صف أحلام الامتحان . لما بينها وبين

هذه من التشابه فى الحالة الوجدانية ، وإن تفسيرها ليرينا أننا لا نجانب الصواب حين نفعل ذلك . فهى أحلام عزاء تطمئننا عن نوع آخر من الهيلة يتخالجنا فى أثناء النوم ، هو هيلة الموت ؛ فإن « الرحيل » هو أكثر رموز الموت شيوعاً وأحسنها ثبوتاً . فهذه الأحلام تقول مرفهة : « لا تخف ، فأنت لن تموت (ترحل) » ، مثلما يقول حلم الامتحان مهوناً : « لا تخف سوف تسلم من الضر هذه المرة أيضاً . » ومرجع الصعوبة فى فهم هذين النوعين من الأحلام هو أن شعور الهيلة يرتبط على التحديد بالعبارة عن العزاء .

ولقد خفى على حقبة من الزمن المعنى الذى للأحلام « ذات المنبه السنى » — وهى أحلام كثيراً ما كان يجب على تحليلها عند المرضى — لأن مقاومة بالغة الشدة كانت تحول دائماً — لدهشى — دون تفسيرها .

وأخيراً أثبتت الدلائل فى وضوح لا يترك مجالا للشك أن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمنائية فى زمن المراهقة . وسأحلل حلمين من هذه الأحلام ، أحدهما هو فى الوقت نفسه حلم طيران . وقد أتى كلا هذين الحلمين ذات الشخص ، وهو شاب ذو نزعات جنسية مثلية مشتدة ، ولكنها مكفوفة فى الحياة الواقعة :

يشهد عرضاً لأوبرا « فيدليو » وهو جالس فى قاعة الأوبرا وبجانبه شخص يستظرفه ويود لو كسب صداقته . يطير فجأة فى القاعة حتى نهايتها ، ثم يضع يده فى فمه ويجذب منه سنين .

إن الحالم يصف طيرانه قائلا : إنه كان كمن « رمى » فى الهواء . وإذ كان المشهد أوبرا « فيدليو » فالبيت الآتى يطوف بالذهن :

« من ظفر بامرأة رشيقة . . . »

ولكن الظفر بامرأة — ولو كانت أرشق النساء — لم يكن بين رغبات الحالم . وإنما الأنسب وهذه الرغبات هو البيتان الآتيان :

« من وفق إلى تلك الرمية الكبرى :
أن يكون صديقاً لصديق . . . »[١]

ولقد اشتمل الحلم حقاً على هذه « الرمية كبرى » ، غير أن ذلك لم يكن يحقق رغبة وحسب ، بل كان يخفى كذلك تأملات أليمة للحالم : كم كان عاثر الحظ فى مساعيه من أجل الصداقة ، كم من مرة « رمى » فيها ، إنه ليخشى تكرار هذ المصير مع الشاب الذى يستمتع بمشاهدة « فيدليو » إلى جواره . يتبع ذلك اعتراف يخجل منه الحالم وهو على ما هو عليه من رفاهية الحس : ذلك أنه بعد أن نبذه أحد أصدقائه قد استمنى مرتين متعاقبتين مدفوعاً بشوقه .

وها هو ذا الحلم الآخر : يعالجه بدل أستاذان جامعيان يعرفهما . يصنع أحدهما شيئاً بقضيبه . إنه يخشى أن تجرى له عملية . يقرع الآخر فه بقضيب من الحديد بحيث تسقط منه سن أو أسنتان ، إنه مقيد بأربعة مناديل من الحرير .

إن الشك فى أن يكون لهذا الحلم معنى جنسى مثلى يكاد أن يكون ممتنعاً . فمناديل الحرير تعين الحالم بشخص ذى جنسية مثلية يعرفه . والحالم لم يعرف الجماع قط ، ولم يعمل قط فى الحياة الواقعة على أن تكون له صلة برجل ، وكان يتمثل الرابطة الجنسية على غرار استمناء المراهقة الذى كان يألفه يوماً ما .

وأعتقد أن التعديلات المتعددة التى تطرأ على الحلم النمطى ذى المنبه السنى (كأن ينتزع سن الحالم شخص آخر ، الخ — يمكن أيضاً فهمها فى ضوء التفسير الذى قدمناه[٢] . قد ندهش إذ نرى « المنبه السنى » وقد صار له هذا المعنى ، ولكننى أنبه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه ، هذا النقل الذى يسخر لخدمة الكبت والذى يمكن لشتى الأفكار والمقاصد الهسترية التى كان يجب — لولا الكبت — أن تدور حول أعضاء التناسل سبل التحقق فى أجزاء أخرى من الجسم على الأقل ، أجزاء لا اعتراض

---

(١) [هذان البيتان يعقبهما البيت الذى ذكر أولا يأتيان فى قصيدة شيللر التى لحنها بيتهوفن فى السمفونيا التاسعة . ولكن البيت الذى ذكر أولا : " من ظفر . . . إلخ . " قد جاء أيضاً وحده فى أوبرا فيدليو ، وهى لبيتهوفن لذلك .]

(٢) أن ينزع سن الحالم شخص آخر ، ذلك ما ينبغى تفسيره عادة بالخصاء (مثل قص الشعر عند الحلاق فى رأى شتيكل) . ولا بد من أن نفرق بوجه عام بين الأحلام ذات المنبه السنى وبين أحلام أطبة الأسنان كالتى يرويها كوربات (١٩١٣) .

عليها . ومن الأمثلة على هذا النقل أن يستبدل الوجه بأعضاء التناسل فى رمزية التفكير اللاشعورى . والعرف اللغوى يحذو هذا الحذو حين يماثل بين الـ Hinterbacken [١] وبين الخدين ، وحين يوازن بين شفرتى العورة عند المرأة وبين الشفتين اللتين تضمان فتحة الفم . والمقارنات بين الأنف والقضيب أمر شائع ، ويزيد الشبه اكتمالا وجود الشعر فى كل منهما . والعضو الوحيد الذى يخرجه تركيبه عن كل مقارنة ممكنة هو السن ، ولكن هذا الالتقاء على التحديد بين التشابه والاختلاف هو الذى يؤهل الأسنان لخدمة المقاصد التصويرية حين تشتد وطأة الكبت الجنسى .

ولست أدعى أننا حين نفسر أحلام المنبه السنى بكونها أحلام استمناء — وهو أمر لا أستطيع التشكك فى صحته — نأتى بتفسير يخلو كل الخلو من الغموض[٢] ، وإنما أعطى القدر الذى أستطيع من الإيضاح ، فأما الباقى فلا مناص من تركه على علاته . بيد أنى لا أجد غنى عن الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوى ؛ ففى بلدنا يشيع تعبير غير مهذب يطلق على فعل الاستمناء هو : « شد [أو انتزع] واحداً إلى خارج » أو « شد واحداً إلى أسفل »[٣] . ولست أدرى شيئاً عن منشأ هذين التعبيرين أو عن التخييل الذى أقيما عليه ، ولكن الأول منهما قد يناسب الحديث عن « السن » كل المناسبة .

وإذ كان الحلم بانتزاع السن أو سقوطه يعنى موت أحد الأقرباء فى زعم الاعتقاد الشعبى ، وكان التحليل النفسى لا يقر مثل هذا التفسير اللهم إلا بالمعنى المازح الذى أومأت إليه من قبل على أكثر تقدير ، فإنى أسوق هنا « حلماً ذا منبه سنى » مدنى به أوتو رانك :

« بعث إلى زميل بدأ يهتم منذ عهد قريب بمشكلات تفسير الأحلام بالمذكرة الآتية فى موضوع الأحلام ذات المنبه السنى :

« حلمت منذ زمن قريب بأننى فى عيادة طبيب الأسنان الذى كان يحفر سناً خلفية فى الفك الأسفل . وأعمل

---

(١) [ويعنى الردفين ، وترجمته الحرفية هى : الخدين الخلفيين .]

(٢) تحمل الأحلام ذات المنبه السنى عند النساء المعنى الذى لأحلام الوضع ، على حسب إفادة من يونج . والعنصر المشترك بين هذا التفسير والتفسير المقترح فيما فوق هو أن الأمر يتعلق فى كلتا الحالتين (الخصاء والولادة) بانفصال جزء من الجسم عن الكل .

(٣) أنظر ٥٢ الحلم « المؤرخ » فى ص٣٥٦ .

الطبيب الحفر بقوة حتى لم تعد فى السن جدوى ثم أمسكها بمقبض وانتزعها فى سهولة خلت من الجهد إلى حد أدهشنى. يخبرنى الطبيب ألا أكترث لذلك ؛ فهذه فى الحق ليست السن التى يعالجها . ثم وضع السن على مائدة حيث انقسمت (وقد بدا لى الآن أنها ذات علوى) طبقات متعددة . نهضت من المقعد واقتربت من المائدة مستطلعاً ، ثم سألت الطبيب سؤالا طبياً يهمنى . فجعل الطبيب — بينما كان يفصل أجزاء السن التى لاحت لى بالغة مبلغاً عجيباً من البياض ويلقيها بعدة من عدده (يحيلها إلى رماد) — جعل يشرح لى أن للسن علاقة بالمراهقة وأن الأسنان لا تخرج بمثل هذه السهولة إلا قبل المراهقة وأن العامل الحاسم فى حالة النساء هو أن يولد طفل .

وعندئذ لاحظت (وأنا نصف نائم فيما أعتقد) أن الحلم قد اصطحب بإنزال ، ولكننى لم أعرف بأى جزء من أجزاء الحلم ارتبط هذا الإنزال — وإن لاح لى أن الأرجح هو أن يكون حدوثه قد سبق خلع السن .

ثم بعد ذلك حلمت من جديد بحادثة لم أعد أذكرها ولكنها انتهت على هذا النحو : أترك سترتى وقبعتى فى مكان ما (ربما كان حجرة نزع الثياب بعيادة الطبيب) آملا أن يتبعنى البعض بهما وأسرع ولست أرتدى غير معطف إلى اللحاق بالقطار الذى كان آخذاً فى الرحيل . أفلح فى اللحظة الأخيرة فى القفز إلى عربة خلفية حيث أجد أحد الناس واقفاً . ولكننى لا أتمكن من شق طريقى إلى داخل العربة بل أراقى مضطراً إلى السفر فى موقف غير مريح أحاول التخلص منه وأفلح فى ذلك آخر الأمر . نتدخل فى نفق كبير ويأتى قطاران فى الاتجاه المقابل لنا ثم ينفذان من خلال قطارنا — كما لو كان قطارنا هو النفق . ألقى النظر إلى داخل إحدى العربات كما لو كنت ألقيه من خارجها .

إن المادة اللازمة لتفسير هذا الحلم تمدنا بها الخبرات والأفكار الآتية المستمدة من اليوم السابق :

١) كنت حقيقة آخذا فى علاج أسنانى منذ زمن قريب وكنت حين جاء هذا الحلم أعانى ألما مستمرًّا فى سن بالفك الأسفل هى التى كانت تحفر فى الحلم ، وكان الطبيب قد حفرها كذلك فى الواقع وقضى فى حفرها زمناً أطول مما أحببت . وكنت قد ذهبت فى صبيحة اليوم الذى سبق الحلم إلى طبيب الأسنان من جراء هذا الألم ، فأوحى إلى أن من الضرورى أن تخلع سن أخرى فى ذات الفك قائلا : إنها قد تكون السبب فى هذا الألم . وكانت هذه السن الأخرى ' ضرس عقل' كان ينبت فى ذلك الحين . ولقد أثرت بهذه المناسبة سؤالا يتعلق بالضمير المهنى للطبيب .

٢) اضطررت إلى أن أعتذر فى عصر ذلك اليوم إلى إحدى السيدات عما كنت

عليه من سوء المزاج من جراء هذا الألم. فأخبرتنى السيدة عندئذ أنها تخشى أن تضطر إلى أن تخلع ضرساً لها كان طربوشه يتفتت كل التفتت. إنها تظن أن خلع الأسنان يزيد ألما وخطراً فى أسنان العين[1] بخاصة ، وإن يكن بعض معارفها قد أكد لها من جهة أخرى أن أسنان الفك الأعلى — مثل سنها — أسهل خلعاً . وروى لهـا هذا الشخص أيضاً كيف كان الخطأ مرة سبباً فى أن تخلع له سن سليمة بعد التخدير ، فزاد ذلك ارتياعها من العملية المحتومة . ثم بعد ذلك سألتنى هل أسنان العين ضروس أو أنياب ، فأشرت إلى ما تحويه هذه المعتقدات جميعها من عنصر خرافى ، وإن أكدت لها فى الوقت عينه نواة الصدق المحتواة فى بعض الآراء الشعبية . وعندئذ استطاعت أن تروى لى ما تظنه معتقداً شعبياً قديماً جدا واسع الانتشار : إذا أصاب حاملا ألم فى أسنانها جاء المولود ولدا .

٣) وأثار جوابها هذا اهتمامى نظراً لما يقوله فرويد فى 'تفسير الأحلام' ، عن الأحلام النمطية ذات المنبه السنى باعتبارها بدائل من الاستمناء الطفلى ؛ إذ أن هذا المعتقد الشعبى يقيم أيضاً علاقة بين السن وبين أعضاء التناسل المذكرة (الولد) . وعلى ذلك أخذت فى مساء ذات اليوم أقرأ الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع من ' تفسير الأحلام ' ، فوجدت القضايا الآتية التى يسهل علينا أن نرى تأثيرها فى حلمى مثل الخبرتين السابقتين : يتحدث فرويد عن الأحلام ذات المنبه السنى قائلا : إن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمنائية فى زمن المراهقة [ص ٣٩٠] . ثم يقول : وأعتقد أن التعديلات المتعددة التى تطرأ على الحلم النمطى ذى المنبه السنى — كأن ينتزع سن الحالم شخص آخر ، الخ.— يمكن أيضاً فهمها فى ضوء التفسير الذى قدمناه. وقد ندهش إذ نرى المنبه السنى وقد صار له هذا المعنى ، ولكننى أنبه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه (فى هذا الحلم من الفك الأسفل إلى الأعلى) ، هذا النقل الذى يسخر لخدمة الكبت والذى يمكن لشتى الأفكار والمقاصد الهستيرية التى كان يجب — لولا الكبت — أن تدور حول أعضاء التناسل سبل التحقق فى أجزاء أخرى من الجسم على الأقل — أجزاء لا اعتراض عليها [ص ٣٩١]. ثم يقول: بيد أننى لا أجد غنى عن

(١) [يقال النياب .]

الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوى ؛ فنى بلدنا يشيع تعبير لغوى غير مهذب يطلق على فعل الاستمناء، هو : شد واحد إلى خارج أو شد واحداً إلى أسفل [ص٣٩٢ .] ولقد كنت أعرف هذا التعبير فى صباى وأعرف دلالته على الاستمناء ، ومن هنا لن يصعب على الخبير بتفسير الأحلام أن يجد طريقه إلى المادة الطفلية التى تكمن وراء هذا الحلم . ولست أضيف إلا أن السهولة التى خرج بها السن التى تبين بعد خلعها أنها من القواطع قد ذكرتنى بمناسبة من طفولتى فيها شددت بنفسى — دون عناء أو ألم — سنا علوية واهية فى مقدم الفم . ولقد وقع هذا الحدث الذى ما زلت أذكره بحذافيره أوضح الذكر فى ذات الفترة التى ترجع إليها محاولاتى الأولى فى الاستمناء (ذكرى ستارية) .

وإن إشارة فرويد إلى رأى يونج فى أن الأحلام ذات المنبه السنى تحمل عند النساء المعنى الذى لأحلام الوضع (تفسير الأحلام ، ص ٣٩٢ ، فى الهامش)، مع الاعتقاد الشعبى بمغزى ألم الأسنان عند الحامل — قد بعثا على المقابلة فى الحلم بين المعنى المؤنث [الوضع] والمعنى المذكر (المراهقة) . وأذكر فى هذا الصدد حلماً سبق ذلك ، جاءنى عقب زيارة إلى طبيب الأسنان ، وفيه حلمت بسقوط الطرابيش الذهبية التى لم يكد يفرغ تثبيتها ، وأزعجنى ذلك فى الحلم إزعاجاً كبيراً ؛ فقد كنت تورطت فى نفقات كثيرة لم أكن تغلبت عليها بعد إذ ذاك . وإنى لأفهم هذا الحلم الآن (بالإشارة إلى خبرة معينة مررت بها) من حيث هو مفاضلة بين المزايا المادية للاستمناء وبين الحب المتجه إلى موضوع ، فهذا الحب أشد ضرراً من الوجهة الاقتصادية فى كل صورة من صوره (الطرابيش الذهبية)[1] . وأعتقد أن ملاحظة السيدة على معنى ألم الأسنان عند الحوامل قد أيقظت عندى هذه الخواطر من جديد .

ذلك تفسير زميلى ، وهو تفسير واضح بذاته ولا أظن أننا نعترض عليه . ولست أجد ما أضيفه إليه سوى إشارة إلى المعنى المحتمل للجزء الثانى من الحلم . ذلك أنى أعتقد أن هذا الجزء يصور انتقال الحالم من الاستمناء إلى الجماع الجنسى انتقالا يبدو محفوفاً بالصعوبات (النفق الذى تدخل فيه القطارات وتخرج منه فى اتجاهات مختلفة) . كما

---

(١) [ويقال فى الألمانية Goldkronen أى الكرونات الذهبية . والكرونات أيضاً عملة .]

يصور مخاطر هذا الجماع (الحمل والمعطف [أنظر ص ٢٠٧]). وأما واسطة الانتقال إلى هذا الجزء الثانى من الحلم فكانت الجسر اللغوى الآتى : (Zahn-ziehen (. Zug و (Zahn-reissen (reisen [1]

ومن ناحية أخرى يلوح لى هذا المثال ذا أهمية نظرية من وجهتين : فهو أولا يشهد بصحة ما اكتشفه فرويد من أن الإنزال فى الحلم يصحب انتزاع السن . ونحن مضطرون — مهما كانت الصورة التى يظهر فيها الإمناء — إلى أن نعده إشباعاً استمنائياً يتم بغير تنبيه ميكانيكى . أضف إلى ذلك أن الإشباع الإمنائى لم يتحقق فى هذه الحالة — كما هو الشأن عادة — بإزاء موضوع من الموضوعات ، ولو كان موضوعاً متخيلا ، بل كان — إن جاز التعبير — إشباعاً لا موضوع له ، كان يحمل طابع العشق الذتى صرفاً ، أو هو على الأكثر كان يبدى أثراً لا يعتد به من الجنسية المثلية (طبيب الأسنان) .

وأما النقطة الثانية التى تبدو لى خليقة بأن نلح عليها فهى الآتية : قد نقول : إنه لا حاجة بنا إلى أن نرى فى هذا الحلم تأييداً لوجهة نظر فرويد ؛ لأن أحداث اليوم السابق تكفى وحدها فى جعل محتوى الحلم مفهوماً ، فزيارة الحالم إلى طبيب الأسنان وحديثه مع السيدة ثم قراءته ' تفسير الأحلام" تفسر كيف انتهى به الأمر إلى إحداث هذا الحلم تفسيراً كافياً ، وبخاصة أن نومه فى تلك الليلة كان نوماً مضطرباً لألم أسنانه ، بل إن هذه الأحداث تفسر — إذا أردنا — كيف وضع الحلم حداً للألم الذى كان يزعج النوم بفكرة التخلص من السن الموجعة مع إغراق إحساس الألم الذى يخشاه الحالم بالليبيدو . ولكن مهما كان تسليمنا بكل أولئك فمحال أن نذهب جادين إلى أن قراءة شروح فرويد كانت تكفى وحدها فى أن تربط عند الحالم بين خلع السن وبين الاستمناء ، بل هى ما كانت تكفى فى تحريك هذا الرباط إلى العمل لو لم يكن ذلك الرباط قد سبق له الرسوخ منذ زمن طويل ، كما يسلم به الحالم نفسه (فى جملة : انتزع واحداً إلى الخارج). ولعل الذى حرك هذا الارتباط لم يكن حديث الحالم مع السيدة وحسب ، بل ملابسة ثانوية ذكرها الحالم من بعد : ذلك أن الحالم حين قرأ ' تفسير الأحلام " قد وجد

---

(١) [الترجمة الحرفية للتعبير الأول هى : جر السن أو شدها ، وهو يذكر بالقطار لأن اسم القطار (Zug) فى الألمانية مشتق من فعل ziehen (جر أو شد) . والتعبير الثانى ترجمته : انتزع السن أو اقتلعها وهو يذكر بالسفر لأن فعل انتزع (reissen) لا يكاد يختلف فى الألمانية من الفعل الذى يعنى سافر (reisen) .]

ـ لأسباب مفهومة ـ بعض الغضاضة فى تصديق هذا المعنى النمطى للأحلام ذات المنبه السنى . وشعر بالحاجة إلى أن يعرف هل يصدق هذا المعنى على جميع الأحلام التى من هذا الطراز . فكان أن جاءه هذا الحلم يؤيد له أن الأمر كذلك ـ فيما يتعلق به على الأقل ـ ويريه بهذا عينه لماذا كان تشككه أمراً محتوماً . فالحلم من هذه الناحية أيضاً يحقق رغبة ، هى الرغبة فى أن يقتنع بمدى انطباق رأى فرويد وبصحته . »

وأما المجموعة الثانية من الأحلام النمطية فتشمل الأحلام التى يطير فيها الحالم أو يموج فى الهواء أو يسقط أو يعوم ، إلخ . فما معنى هذه الأحلام ؟ إن من المستحيل أن نجيب عن هذا السؤال بجواب عام ؛ فهذه الأحلام ـ كما سنرى ـ تعنى شيئاً مختلفاً فى كل حالة ، ومادة الإحساسات المحتواة فيها هى وحدها التى تنشأ دائماً من ذات المصادر .

والدروس التى يتلقاها المرء من التحليلات النفسية تلجئه إلى تلك النتيجة .. أن هذه الأحلام كذلك تعيد انطباعات من الطفولة ، أو هى تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً . فمن هو هذا العم الذى لم يعن طفلا على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة ، أو لم يتخذ من السقوط مادة لملاعبته ، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو فيرفعه عالياً ثم يهيئ إليه بحركة مفاجئة أنه يتخلى عنه . والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكلون من استعادة هذه الألعاب ، وبخاصة إن احتوت على ما يحدث بعض الخوف أو الدوار . وإنهم ليستعيدونها فى أحلامهم بعد أن تمضى بهم السنون ، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التى تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطيرون أو يسقطون أحراراً . وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب ـ كولعهم بالأراجيج بأنواعها ـ أمر معروف . فإذا رأوا فى « السيرك » بعض الأفانين البهلوانية جدد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب . وقد لا تخرج النوبات الهستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدى فى مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين . وليس من النادر أن تنبه هذه الألعاب الحركية ـ وإن كانت بريئة فى ذاتها ـ مشاعر جنسية . وإذا جاز لى أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته قلت : إن « هيجان » الأطفال هو ما يستعاد فى أحلام الطيران والسقوط والتأرجح وما شاكلها ، استعادة تنقلب فى خلالها اللذة إلى هيلة . ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهى فى الواقع كذلك بالشجار وبالعويل كما تعرفه كل أم .

وأنا إذن أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة : إن أحاسيسنا اللمسية فى أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرئتين وما أشبه ، هى التى تبعث على أحلام الطيران والسقوط . بل فى رأيى أن هذه الأحاسيس ذاتها تستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكرى التى يرتد الحلم إليها ، أى أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له [١] .

هذه المادة من الإحساسات المركبة المتماثلة نوعاً المتفقة مصدراً تستخدم الآن فى تصوير أفكار حلمية من كل ضرب ممكن . فأحلام الطيران والطواف فى الهواء — وهى أحلام يغلب عليها عادة طابع اللذة — تقتضى تفسيرات متنوعة غاية التنوع ، خاصة كل الخصوص عند بعض الناس ، ثم ذات طابع نمطى عند البعض الآخر . فهكذا يتفق أن تحلم إحدى مريضاتى بأنها تسير على ارتفاع معين فوق الطريق دون أن تمس قدماها الأرض ، وكانت هذه المريضة قصيرة جداً ، وكانت تخشى العدوى من كل صلة بالناس ؛ فحلمها هذا يحقق لها رغبتين إذ يرفع قدمها دون الأرض وإذ يُصَعِّد رأسها إلى طبقة أعلى من الهواء — هذا بينما تعرب أحلام الطيران عند بعض الحالمات عن ودهن : « لو كنت طائراً صغيراً ! » وبينما تصير أخريات ملائكة فى الليل لأنهن قد حرمن من أن يدعون كذلك بالنهار . وإن الصلة الوثيقة بين الطيران وبين فكرة الطير تجلعنا نفهم كيف صار لأحلام الطيران عند الرجال معنى حسى غليظ فى غالب الأحيان[٢] . ولن يدهشنا أن نسمع أن هذا الحالم أو ذاك كان شديد الفخر بقدرته على الطيران .

ولقد أعرب الدكتور پول فيدرن (من ڤيينا) عن رأى جذاب مؤداه أن جزءاً كبيراً من أحلام الطيران هو أحلام انتصاب ؛ لأن ظاهرة الانتصاب — تلك الظاهرة العجيبة التى شغل بها الخيال الإنسانى من غير انقطاع — لا يمكن إلا أن تسترعى الانتباه لما يبدو فيها من إبطال لقوة الجاذبية (أنظر بهذه المناسبة القضيب المجنح عند الأقدمين .) وإنه لأمر خليق بالانتباه أن نجد باحثاً تجريبياً ، متزناً ، صدوفاً عن كل ما هو تفسير ، مثل مورى فولد ، يؤيد التفسير العشقى لأحلام الطيران أو التأرجح (فولد ،

---

(١) قد كررنا ههنا هاتين الفقرتين الخاصتين بأحلام الحركة لمقتضيات السياق .

(٢) [ههنا إشارة إلى كلمة عامية ألمانية بمعنى " جامع " (vogeln) اشتقت من الكلمة الدالة على الطير (Vogel) .]

١٩١٠ — ١٩١٢ ، جزء ٢ ، ص٧٩١) . فهو يصف الدافع العشقى بقوله : « إنه أقوى الدوافع إلى أحلام الطواف فى الهواء » ويجذب الانتباه إلى إحساس الذبذبة الجسمية الشديدة التى تصحب أمثال هذه الأحلام ويشير إلى كثرة اقترانها بالانتصاب أو الإنزال .

فأما أحلام السقوط فيغلب أن تتسم بطابع الهيلة . ولسنا نجد صعوبة فى تفسيرها عند النساء ؛ فهؤلاء يكدن يسلمن دائماً بأن الاستخدام الرمزى للسقوط يصف الاستسلام لدافع عشقى . ونحن لم نحصر بعد المصادر الطفلية لأحلام السقوط ؛ فلا يكاد يكون ثمت طفل إلا وقع فى مناسبة أو أخرى ثم أقيل من عثرته ودلل ، فإن كان وقوعه من مهده فى أثناء الليل حملته المعنية بأمره إلى سريرها .

وأما الأشخاص الذين يحلمون كثيراً بالسباحة ويشقون الموج فى انشراح عظيم فهم فى العادة ممن كانوا يبللون فراشهم . وهم اليوم يعيدون فى أحلامهم لذة تعلموا الإقلاع عنها منذ زمن طويل . وسنعلم قريباً من أكثر من مثال أى شىء يسهل استخدام أحلام السباحة فى تصويره [ص ٤٠٣ .]

وأما أحلام الحريق فيؤيد تفسيرها هذا القانون التربوى الذى يحرم على الأطفال « أن يلعبوا بالنار » لكيلا يبللوا فراشهم فى الليل . ذلك أن هذه الأحلام أيضاً يكمن وراءها أثر ذكروى عن بلل الفراش فى فترة الطفولة . ولقد عرضت فى مقالى «طرف من من تحليل هستريا » (١٩٠٥) [1] تحليلا وتركيبا كاملين لحلم حريق من هذا القبيل وذلك من حيث صلة هذا الحلم بتاريخ الحالمة ، كما بينت أى دوافع سن الرشد يمكن استخدام هذه المادة الطفلية فى تصويرها .

وفى مقدورنا أن نذكر عدداً وفيراً من الأحلام « النمطية » إذا كنا نعنى بهذا الحد أن ذات المحتوى الظاهر يكثر وروده عند حالمين مختلفين . نستطيع أن نذكر مثلا الأحلام التى يسير فيها المرء فى أزقة ضيقة أو يمشى عبر حجرات متعاقبة ، أو أحلام سراق الليل الذين يحتاط منهم الأشخاص العصبيون حتى قبل أن يذهبوا إلى الفراش ،

---

(١) [١٩٠٥ م ، القسم الثانى ، حلم دورا الأول .]

ثم هناك الأحلام التى يطاردك فيها وحش كاسر (أو ثور أو حصان) وتلك التى يهدد فيها الحالم بسكين أو خنجر أو رمح — والنوعان الأخيران من الأحلام يميزان المحتوى الظاهر فى أحلام المصابين بعصاب الهيلة — وكثير غيرها . ولا شك فى أن بحثاً يندب لهذه المادة خاصة سوف يكون بحثاً مجزياً إلى أبعد مدى ، ولكننى — بدل ذلك — أدلى بملاحظتين وإن كانتا لا تنطبقان على الأحلام النمطية انطباقا مانعا .

كلما زاد المرء اشتغالا بحل مشكلة الأحلام زاد استعداده للتسليم بأن غالبية أحلام الراشدين تعالج مادة جنسية وتعرب عن رغبات عشقية . وأولئك الذى يحللون الأحلام فعلا — أى يذهبون من محتواها الظاهر إلى أفكارها الكامنة — هم وحدهم الذين يستطيعون أن يقطعوا برأى فى هذا الصدد ، ويعجز عن ذلك أبدا كل من قنع بتدوين المحتوى الظاهر (مثل نا كه فى كتاباته عن الأحلام الجنسية) . ولنقل دون إمهال : إن هذه الحقيقة ليست بالأمر الذى يدهشنا ، بل هى تتسق والمبادئ التى يستند إليها تعليلنا للأحلام أكمل اتساق ؛ فما من غريزة لاقت منذ الطفولة مثل الكبت الذى لاقته الغريزة الجنسية فى مقوماتها المتعددة ، وما من غريزة غيرها خلفت وراءها رغبات على هذا المدار من الكثرة والقوة تعمل اليوم على إحداث الحلم فى حالة النوم . فواجبنا عند تفسير الحلم هو ألا ننسى أبداً هذه القيمة التى للمركبات الجنسية ، وإن وجب كذلك بالطبع أن نتجنب المغالاة إلى الحد الذى يمنع غيرها .

ونستطيع أن نقول عن أحلام كثيرة — إذا عنينا بتفسيرها — : إنها أحلام تتسم بطابع الجنسية الثنائية ؛ لأنها تسلم من غير جدال إلى تفسير مضاعف تتحقق فيه للحالم رغبات جنسية مثلية ، أى رغبات تخالف نشاطه الجنسى السوى . ولكن أن نذهب إلى أن جميع الأحلام يجب تفسيرها على هذا النحو — مثلما يصنع شتيكل (١٩١١) وآدلر (١٩١٠) — ذلك ما يبدو لى تعميما مجرداً من البرهان ومن الرجوج على السواء ، تعميما لا أرانى مستعداً لأن أنتصر له . ولست أدرى بخاصة كيف أنكر تلك الحقيقة الواقعة ، وأعنى بها أن هناك أحلاماً تلبى حاجات غير الحاجات العشقية — وإن أخذنا الكلمة بأوسع معانيها — : أحلام جوع وعطش ، أحلام سهولة ، الخ . ثم القضايا التى من قبيل : « يكمن طيف الموت وراء كل حلم » (شتيكل) أو أن فى كل حلم « انتقالا من

المؤنث إلى المذكر » (آدلر) - تلك أيضاً أقوال تبدو لى بعيدة كل البعد عما يجيز لنا تفسير الحلم الآخذ به أخذاً مشروعاً . — وإن القول بأن جميع الأحلام تستلزم تفسيراً جنسياً — وهو القول الذى ثارت عليه محاجة لا تكل — لقضية غريبة عن « تفسير الأحلام » ؛ فأنت لا تجده فى طبعات الكتاب السبع ، ثم إنه يتناقض وسائر محتواه تناقضاً ظاهراً .

وقد سبق أن بينا أن بعض الأحلام التى ظاهرها السذاجة قد تضم رغبات غليظة ، وكان يسعنا أن نؤيد ذلك بأمثلة جديدة كثيرة . ولكن هناك كذلك أحلاماً ظاهرها اللامبالاة ، لا يسترعيك منها اتجاه ما أو شىء بعينه ، ثم إذا هى ترتد عند التحليل إلى رغبات جنسية لا شك فيها ، تكون فى أحيان كثيرة من نوع غير متوقع . من ذا الذى كان يستطيع — مثلا — أن يحذر وجود نزعة جنسية فى الحلم الآتى قبل تفسيره ؟ لقد رواه حالمه على هذا النحو : قصران عظيمان قام بينهما — إلى الخلف بعض الشىء — منزل صغير مغلق الباب . تقودنى زوجى فى جزء من الطريق يؤدى إلى المنزل الصغير ثم تدفع الباب فأدلف فى سرعة ويسر داخل فناء يميل بزاوية صاعدة .

ومع هذا فإن من له ولو قليل دراية بتفسير الأحلام سوف يذكر على الفور أن النفاذ فى أماكن ضيقة وفتح الأبواب المغلقة بين أكثر الرموز الجنسية شيوعاً ، وسوف يدرك فى غير عناء أن هذا الحلم يصور محاولة فى الجماع من الخلف (بين الردفين العظيمين فى جسم المرأة) . والممر الضيق الصاعد بزاوية هو المهبل بالطبع . وأما المساعدة التى ينسبها الحالم إلى زوجه فلا تفسير لها سوى أن مراعاة الزوجة هى المانع الأوحد الذى يحول بين الحالم وبين الإقدام على مثل هذه المحاولات فى الحياة الواقعة . وها نحن أولاء نعلم أن خادماً صغيرة السن قد جاءت يوم الحلم منزل الحالم وأنها حسنت فى عينيه كثيراً ، وأنه قد خيل إليه أنها لن تمانع محاولة من هذا القبيل إلا قليلا . والمنزل الصغير بين القصرين العظيمين أثر ذكروى من [قلعة] هارد شين فى پراج ، وهو بذلك يلمح إلى ذات الفتاة ؛ لأن پراج مدينتها .

وإذا أكدت لأحد مرضاى كثرة وقوع الأحلام الأوديبية التى يتصل فيها الحالم بأمه بصلة جنسية ، غلب أن يكون جوابه : لا أذكر أنى رأيت مثل هذا الحلم قط .

ولكن تنبعث على أثر ذلك ذكرى حلم ممحو ، لا يستلفت نظراً ، جاء الحالم مراراً ، وعندئذ يبين التحليل أن ذلك فى الحقيقة حلم له ذات المحتوى ، أى حلم أوديبى . وأستطيع أن أؤكد أن الأحلام المقنعة التى تدور حول الصلة بالأم تفوق السافرة فى كثرتها مرات ومرات[١] .

وهناك أحلام بمشاهد من الطبيعة أو بمحال يكون أظهر ما فيها يقين الحالم — وهو ما زال بحلمه — بأنه قد كان بذلك المكان من قبل . ولكن هذه « الرؤية السابقة »[٢]

---

(١) لقد نشرت فى موضع آخر (فرويد ١٩١٠ ل) مثالا نموذجيا على حلم أوديبى مقنع من هذا القبيل (تجده فى آخر هذا الهامش) ، كما نشر أوتورانك (١٩١١ أ) مثالا آخر قرنه بتحليل مفصل . وانظر كذلك مقالة رانك (١٩١٣) فيما يتصل بأحلام أوديبية مقنعة تتجلى فيها رمزية العين . وإن القارئ ليجد فى ذات الموضع الذى نشر فيه مقال رانك مقالات أخرى عن " أحلام العين " ورمزية العين كتبها ايدير وفرنتسى ورايتلر . وإن فقأ العينين فى أسطورة أوديب — كما فى غيرها — لهو بديل من الخصاء . هذا ولم يكن القدماء يجهلون التفسير الرمزى للأحلام الأوديبية المقنعة ، واقرأ فى ذلك رانك (١٩٠ ، ٥٣٤) حيث يقول : " وهكذا قيل : إن يوليوس قيصر قد حلم حلما رأى فيه أنه يجامع أمه ، فأوله مفسرو الأحلام قائلين : إنه يبشر بأن قيصر سوف يمتلك الأرض (الأرض الأم) . ومن الأمور المعلومة كذلك النبوءة المعطاة إلى التاركوينيين والتى أعلنت أن السيادة على روما سوف تكون من حظ أول من يقبل أمه (osculum matri tulerit) — وهو ما يفسره بروتوس بمعنى الأرض الأم (قبل الأرض قائلا : إنها الأم المشتركة لجميع المائتين. تيت ليف ١ ، ٥٦ [باللاتينية فى الأصل]) . » وانظر بهذه المناسبة حلم هيبياس الذى يرويه هيرودوت (٦ ، ١٠٧) إذ يقول : " أما الفرس فقد كان هيبياس يرشدهم إلى ماراثون . وكان هيبياس قد زاره فى الليلة الماضية منام رأى فيه أنه يضاجع أمه ، ففهم من الرؤيا أنه سيعود إلى أثينا ويسترجع سيطرته وأنه — فى شيخوخته — سيموت فى أرض وطنه . " هذه الأساطير والتفاسير تكشف عن بصيرة سيكولوجية صادقة ؛ فقد رأيت أن الناس الذين يعلمون أنهم مفضلون أو معززون لدى أمهاتهم يبدون فى حياتهم هذه الثقة الفريدة بالنفس وهذا التفاؤل الوطيد اللذين لا يندر أن يكون لهما مظهر البطولة وأن يطوعا النجاح لأصحابهما فعلا .

مثال نمطى على حلم أوديبى مقنع : حلم رجل أن له علاقة مستترة بسيدة يريد شخص آخر زواجها ، والحالم يخشى أن يعلم الآخر بهذه الصلة وألا ينتهى الزواج المقترح إلى نتيجة ، وهو لذلك يسلك تجاه هذا الرجل مسلكا ملؤه التودد ، يعانقه ويقبله . إن واقع حياة هذا الحالم لا يتفق وحلمه إلا فى نقطة واحدة : فقد كانت له علاقة بسيدة متزوجة أتى زوجها يوما — وكان صديقا للحالم — بملاحظة ذات معنيين جعلته يشك فى أن يكون الزوج قد لحظ أمرا . ولكن الحقيقة كانت تتضمن شيئا آخر لم يذكره الحلم مطلقا ، وهو مع ذلك الشىء ، الذى يعطينا المفتاح إلى فهم الحلم : ذلك أن الزوج كان مهددا بمرض عضوى ، وكانت الزوجة معدة لإمكانية موته فجأة ، وكان الحالم مشغولا بالتفكير الشعورى فى التزوج من الأرمل الشابة بعد موت زوجها . وهذا الموقف الخارجى يضع الحالم فى جو الحلم الأوديبى : فرغبة الحالم قادرة على قتل الرجل من أجل الظفر بامرأته ، والحلم يعرب عن هذه الرغبة فى صورة مشوهة ملؤها النفاق ؛ فبدل أن تظهر المرأة متزوجة بالفعل نرى شخصا غير الحالم يتقدم لزواجها — وهو ما يتفق وما للحالم نفسه من نيات مستترة — هذا بينما تختفى رغباته العدائية نحو الزوج وراء مظاهر من الود مستمدة من ذكرى الحالم عن علاقته بوالده فى أيام الطفولة .

(٢) ["Déja vu"]

لها فى الحلم معناها الخاص : فهذا المكان يعنى دائماً أعضاء التناسل عند الأم ، والواقع أنه ليس ثمت مكان آخر يستطيع المرء أن يقول عنه بمثل هذه الثقة : لقد كنت فيه من قبل . ومرة واحدة هى التى حيرنى فيها مريض بعصاب قهرى إذ قال : إنه حلم حلماً رأى فيه أنه يزور منزلا كان قد وجد فيه مرتين من قبل . ولكن هذا المريض على التحديد كان قد ذكر لى منذ زمن بعيد قصة ترجع إلى سنته السادسة ، حاصلها أنه شارك أمه سريرها مرة ، فأساء انتهاز الفرصة بأن دس إصبعه فى عضوها وهى نائمة .

وهناك طائفة كبيرة من الأحلام يغلب أن تصطحب بالهيلة وأن يكون محتواها المرور بأماكن ضيقة أو المكوث فى الماء ، تقوم على تخييلات تدور حول الحياة الجنينية والإقامة فى رحم الأم والولادة . والحلم الذى يلى كان حلماً لشاب انتهز فى مخيلته فرصة الحياة الجنينية لمشاهدة جماع بين والديه .

« إنه فى حفرة عميقة بها شباك كما فى نفق سمرينج [1] . يرى أول الأمر من النافذة مشهداً مقفراً ، ولكنه يتخيل صورة تناسب المكان ، ولا تلبث الصورة أن تتحقق دفعة واحدة وأن تملأ الفضاء . إن الصورة تمثل حقلا حرث حرثاً عميقاً بآلة من الآلات ، وكان الهواء العليل مع فكرة العمل الشاق الى تصحب المنظر ومع المدر الأزرق الأسود ، كان كل أولئك مما يحدث فى النفس تأثيراً جميلا . يستمر بعد ذلك فيرى كتاباً فى التربية مفتوحة أمامه . . . ويدهش لكل هذه الأهمية التى تعلق على المشاعر الجنسية (للأطفال) ويذهب به ذلك إلى التفكير فى . »

وها هو ذا حلم بديع لإحدى المريضات كان يخدم هدفاً بعينه فى العلاج : إنها فى مصيفها على شاطىء بحيرة . تقفز إلى الماء فى ذات البقعة التى كان ضوء القمر الشاحب قد انعكس فيها على صفحة الماء .

إن الأحلام التى من هذا القبيل أحلام ولادة . ونصل إلى تفسيرها بقلب الحدث الذى يرد فى الحلم الظاهر ، وهكذا يكون لنا « خروج من الماء » — أى ولادة — بدل « القفز فيه » [2] . ونستطيع أن نعرف المكان الذى يخرج منه الإنسان إذا نحن فكرنا فى الاستخدام الفكه لكلمة " la lune " [القمر] فى اللغة الفرنسية [بمعنى مؤخر الجسم] فالقمر الشاحب هو — إذن — المؤخر الأبيض الذى يبادر الطفل فيخمن أنه قد خرج منه . ولكن ما معنى أن ترغب الحالمة فى « أن تولد » فى مصيفها ؟ أسألها ذلك فتجيب من غير تردد : ألم أكن بالعلاج كمن ولدت من جديد ؟ وعلى ذلك فالحلم دعوة إلى متابعة

---

(١) [نفق يبعد نحو السبعين ميلا من فيينا على سكة الحديد الجنوبية .]

(٢) أنظر رانك (١٩٠٩) فيما يتصل بالمغزى الأسطورى الذى للولادة من الماء .

علاجها فى ذلك المصيف ، أى إلى عيادتها هناك . وربما كان الحلم يحوى كذلك إشارة حيية إلى رغبة المريضة فى أن تكون هى نفسها أما [١].

وأنقل من مقال لجونز (١٩١٠ ب) حلماً آخر من أحلام الولادة مع تفسيره :

« كانت تقف على شاطىء البحر وهى ترقب طفلا هيىء إليها أنه ولدها بينما كان يلعب فى الماء . وظل الولد يلعب حتى غمره الماء ، فلم تعد ترى إلا رأسه وهو يقلب ويغطس قريباً من سطح الماء . وعندئذ تغير المنظر إلى قاعة مزدحمة فى فندق . يتركها زوجها فتطرق حديثاً مع شخص غريب .

« يتبين عند التحليل أن الجزء الثانى من هذا الحلم إنما يصور رغبة الحالمة فى الفرار من زوجها والأخذ فى علاقة وثيقة بشخص ثالث . . . وأما الجزء الأول فتخييل ولادة مكشوف ؛ فمن المألوف فى الأحلام كما فى الأساطير أن يصور الخروج من مياه الرحم من طريق القلب — فى صورة الدخول فى الماء ، ومولد أدونيس وأوزوريس وموسى وباكوس ، كل هذه — والكثير غيرها — أمثله معروفة على ذلك . وتذكرها حركة الطفل وهو يطفو فوق الماء ويغطس تحته بما عهدته من حركات الجنين فى بطنها أثناء حملها الوحيد . ويذهب بها تفكيرها فى الطفل وهو ينزل فى الماء إلى حلم يقظة ترى فيه نفسها وهى تنشل الطفل من الماء وتحمله إلى محضنة حيث تغسله وتكسوه ثم تأخذه إلى دارها .

« وهكذا كان النصف الثانى من الحلم يصور أفكارا خاصة بالفرار تتصل بالنصف الأول من أفكار الحلم الكامنة ، ويوافق النصف الأول من الحلم المحتوى الكامن لنصفه الثانى : تخييل الولادة . ثم كل نصف من نصفى الحلم ينطوى على قلب آخر فى الترتيب الزمنى إلى جانب القلب الذى ذكرناه : ففى النصف الأول من الحلم ينزل الطفل فى الماء ثم تطفو رأسه وتغطس ، وأما فى أفكار الحلم الكامنة فيتحرك الطفل أولا ثم يغادر الماء (قلب مزدوج) ، وفى النصف الثانى من الحلم يتركها زوجها ، بينما فى أفكار الحلم الكامنة تترك هى زوجها . » (عن ترجمة ألمانية بقلم أوتو رانك .)

ويروى أبراهام حلم ولادة آخر ، أتى امرأة شابة كانت تنتظر وضعها الأول . فى

---

(١) لقد ظللت زمناً طويلا دون أن أقدر قيمة التخيلات والأفكار اللاشعورية التى قد تدور حول الحياة فى الرحم ؛ ففيها تفسير هذه الهيلة العجيبة عند الكثيرين من كونهم قد يدفنوا أحياء ، وفيها أعمق أساس لاشعورى يرتكز عليه الاعتقاد بحياة مستقبلة بعد الموت وهواعتقاد لا يعدو أن يصور إسقاطاً فى المستقبل لهذه الحياة الغامضة التى تسبق الولادة . والولادة بالإضافة إلى ذلك — هى أول خبرة بالهيلة ، وهى بذلك منهل هذه الحالة الوجدانية ونموذجها .

هذا الحلم نرى مجرى يجرى تحت الأرض من أرض حجرتها إلى الماء مباشرة (القناة الرحمية — السائل النخطى) ، ثم ترفع الحالمة غطاء فى أرض الحجرة فيبرز على الفور مخلوق مغطى بفراء أسمر اللون ، أشبه بسبع البحر ، ثم يتبين أن هذا المخلوق الصغير هو أخو الحالمة الأصغر الذى كانت الحالمة تقف منه دائماً موقف الأم .

وقد بين رانك (١٩١٢ أ) بطائفة من الأحلام أن أحلام الولادة تستخدم ذات الرموز التى تستخدمها أحلام المنبه البولى ؛ ففيها يصور المنبه العشق كما لو كان منبهاً بوليا ، وإن وجود طبقات من المعنى فى هذه الأحلام ليوافق تحويلا دخل على معنى الرمز من عهد الطفولة .

ومن المناسب—وقد بلغنا هذا الموضع—أن نعود ثانية إلى موضوع تركناه (فى ص٢٥٨) وهو نصيب المنبهات العضوية المزعجة للنوم فى تكوين الأحلام . فالأحلام التى تقع تحت تأثير هذا المنبهات لا يقف شأنها عند كونها تكشف علانية عن الميل إلى تحقيق الرغبة وعن طابع الأخذ بالأسهل وحسب ، بل هى — فى أحيان كثيرة جداً — قد تكشف أيضاً عن رمزية شفافة كل الشفافية ؛ إذ ليس من النادر أن يوقظ منبه حالماً بعد أن يكون الحالم قد حاول سدى إرضاء هذا المنبه فى الحلم تحت ستار رمزى . وينطبق ذلك على أحلام الإمناء كما ينطبق على الأحلام التى تحرك إليها حاجة إلى التبول أو التبرز . ولكن الطابع الخاص لأحلام الإمناء لا يمكننا فقط من أن نميط اللثام بطريقة مباشرة عن رموز بعينها كنا نعلم من قبل أنها رموز نمطية ولكنها كانت تلاقى مع ذلك إنكاراً عنيفاً ، بل هو يعيننا — فوق ذلك — على الاقتناع بأن بعض مواقف الأحلام الظاهرة البراءة لا تعدو أن تكون فاتحة رمزية لمناظر جنسية فظة — مناظر لا تلقى فى العادة تصويراً صريحاً إلا فى أحلام الإمناء النادرة ندرة نسبية ، على حين يكثر ، إنقلابها إلى حلم هيلة يدفع كذلك إلى اليقظة .

وأما رموز الأحلام ذات المنبه البولى فتتسم بشفافية خاصة ، كما أنها قد عرفت منذ أقدم الأزمنة ؛ فقد سبق هيبوقراط إلى القول بأن الينابيع والنوافير تدل على خلل فى المثانة (هافلوك إليس) . ودرس شرنر رموز المنبهات البولية الكثيرة ثم أكد أن « كل منبه بولى شديد بعض الشدة يستحيل من غير استثناء إلى تنبيه فى المنطقة الجنسية وإلى صور ترمز إليها . . . وكثيراً ما يكون الحلم ذو المنبه البولى ممثلا فى الوقت نفسه للحلم الجنسى . »

وإن أوتو رانك – الذى أتابع ههنا مقاله عن « التراص الطبقى للرموز فى الأحلام المؤدية إل الاستيقاظ » (١٩١٢ أ) – قد جعل من الراجح كل رجوح أن يكون عدد كبير من الأحلام ذات المنبه البولى ناجماً فى الحقيقة عن منبه جنسى بدأ بالتماس الإشباع من طريق النكوصى إلى صورة طفلية من العشق هى صورة العشق البولى . وإنا لنعلم الشىء الكثير بخاصة من تلك الحالات التى يؤدى فيها المنبه البولى – وقد استثير على هذا النحو – إلى اليقظة وإفراغ المثانة ، ومع هذا يتابع الحلم بعد ذاك إلى أن يتم الإعراب عن الحاجة فى صور عشقية صريحة [١].

وأما الأحلام ذات المنبه المعوى فتلقى الضوء بطريقة مماثلة على الرمزية المتضمنة فيها ، ثم هى – فى الوقت ذاته – تؤيد العلاقة بين الذهب والبراز – وهى علاقة تدعمها كذلك شواهد وفيرة من علم المجتمعات الإنسانية[٢]. « فهكذا تحلم امرأة كانت تعالج لمرض فى أمعائها برجل يدفن كنزاً على مقربة من كوخ أشبه بمرفق مياه ريفى معزول عن الدار ، ثم يتبع جزء ثان ترى فيه أنها تمسح است بنتها الصغيرة التى وسخت نفسها . »

وتتبع أحلام الإنقاذ أحلام الولادة : فالإنقاذ – وبخاصة الإنقاذ من الماء – له عند النساء معنى الولادة ، ولكن هذا المعنى يدخله التعديل إذا كان الحالم رجلا[٣].

فأما اللصوص وسراق الليل والأشباح الذين يوجس منهم البعض خيفة قبل أن يتوجهوا إلى فراشهم والذين يتبعون أحياناً ضحاياهم هؤلاء حتى بعد نومهم فيخرجون جميعاً من طبقة واحدة من الآثار الذكروية لا تتغير : إنهم زوّار يعودون الأطفال فى جنح الليل ويوقظونهم ويحملونهم لكيلا يبللوا فراشهم ، أو يرفعون عنهم الغطاء ليروا بأعينهم بأى موضع وضعوا أياديهم وهم نيام . ولقد مكننى تحليل بعض أحلام الهيلة هذه من أن

---

(١) " إن ذات الصور الرمزية التى تجىء بمعناها الطفلى فى الأحلام البولية تظهر بمعناها الحديث فى أحلام جنسية لا مرية فيها : ماء = بول = السائل النخطى ، schiff [سفينه] = schiffen [شخ] = رحم (صندوق) ، البلل = بلل الفراش أثناء النوم = الجماع = الحمل ، العوم = امتلاء مجرى البول = مقر من لم يولد ، المطر = البول = الرمز إلى الإخصاب ، السفر (الرحيل أو الخروج من العربة) = النهوض من الفراش = الجماع الجنسى (رحلة شهر العسل) ، تبول = أنزل " . (رانك ذات المرجع .)

(٢) أنظر فرويد ١٩٠٨ ب ورانك ١٩١٢أ وداتنر ١٩١٣ ورانك ١٩١٥ .

(٣) لقد أورد فيستر حلما من هذا النوع (١٩١٩ ح) . أنظر أيضاً رانك ١٩١١ ب ورايك ١٩١١ . ثم أيضا رانك ١٩١٤ .

أمضى إلى أبعد من ذلك فى إخراج شخص الزائر الليلى من مجهوليته : فى كل حالة كان السارق يقوم مقام الأب بينما تنوب الأشباح عن الأشخاص الأنثوية فيما يرتدينه ليلا من الغلل البيضاء.

و

أمثلة ـ عمليات الحساب والأقوال فى الحلم

قبل أن أحدد للعامل الرابع الذى يحكم تكوين الحلم موضعه الصحيح [القسم ط] ، أقترح أن أسرد بعض الأمثلة من مجموعتى . هذه الأمثلة سوف تفيد ـ من جهة ـ فى تصوير التفاعل بين العوامل الثلاثة التى عرفناها ، وسوف تفيد ـ من جهة أخرى ـ فى تزويدنا بدليل يؤيد بعض القضايا التى ظلت حتى الآن بغير سند أو فى بيان نتائج تازم منها ضرورة . فقد كنت وأنا أشرح عمل الحلم أجد صعوبة بالغة فى مساندة اكتشافاتى بالأمثلة ؛ فالأمثلة التى يراد بها تدعيم هذه القضية أو تلك لا تحمل على الاقتناع إلا إذا سيقت وسط تفسير كامل لحلم من الأحلام ، فإن انتزعت من محيطها فقدت أثرها ـ هذا بينما نجد من ناحية أخرى أن التفسير إذا عمق ولو قليلا لا يلبث أن يبلغ من الجسامة حدا نفقد معه حبل القضية التى كان يراد تصويرها . ولعل هذه الصعوبة الفنية تعذرنى إذا أنا حركت الآن أشياء من كل صنف لا يربط بينها رابط مشترك سوى اتصالها بما ورد فى الأقسام السابقة من هذا الفصل .

سأبدأ بأمثلة على طرائق فى التصوير غريبة أو غير مألوفة . حلمت سيدة الحلم الآتى : تقف خادم على سلم كأنما كانت تمسح الشباك ، وكانت تحمل قرداً وقطاً من نوع الفوريلا (وتستدرك السيدة بعدئذ قائلة : من نوع الأنجورا) . ترى الخادم الحالمة بالحيوانين ، ويلصق القرد بها ـ وهو ما يثير فى نفسها اشمئزازاً كبيراً . ـ لقد حقق هذا الحلم هدفه بطريقة غاية فى البساطة : فهو قد استعار مجازاً من مجازات الكلام ثم أجراه على حرفه ، « فالقرد » وأسماء الحيوان بوجه عام تستخدم على سبيل السباب ، ولا يعنى الموقف الذى عرض فى الحلم شيئاً آخر سوى قولنا :

رماه بالسباب . ولن تلبث مجموعتى دون أن تأتى بأمثلة جديدة على استخدام هذه الحيلة البسيطة فى عمل الحلم .

ونهج حلم آخر نهجاً يماثل السابق كل مماثلة : سيدة معها طفل شاه شكل جمجمته شوها ملحوظا ، تسمع الحالمة أن ذلك راجع إلى وضع الطفل فى الرحم . يقول الطبيب : إن من الممكن تحسين شكل الجمجمة بضغطها ، إلا أن ذلك قد يؤذى مخ الطفل . تفكر فى أن الطفل صبى فلن يضيره ذلك كثيراً . — إن هذا الحلم يحوى تعبيراً مصوراً عن فكرة مجردة : « انطباعات الطفولة » ، وهى فكرة كانت الحالمة قد سمعتها فى أثناء التوضيحات التى اقتضاها العلاج .

ولكن عمل الحلم قد سلك طريقاً مخالفاً بعض المخالفة فى المثال الآتى ، وكان ينطوى على ذكرى رحلة إلى هيلمتايش[1] بالقرب من جراتس : فى الخارج عاصفة مروعة ، نزل حقير ، يقطر الماء من الجدران ، الأسرة مبللة (هذا الجزء الأخير من الحلم قد روى فى صورة أقل صراحة مما ذكرت) . إن هذا الحلم يعنى « نافلة » ؛ فهذه الفكرة المجردة المتضمنة فى أفكار الحلم قد لاقت أول الأمر علاجاً متكلفاً صيرها إلى شىء من قبيل « فائض » أو « طائح » ، ثم تمثلت بعد ذلك فى عدة من الصور المشابهة : ماء فى الخارج ، ماء فى الداخل على الحوائط ، ماء فى أغطية السرير المنداة ، كل شىء يقطر أو « يطفح » . ولن يدهشنا أن نرى أن أصوات الكلمات تفوق نهجها بكثير من حيث أهميتها بالنسبة إلى التصوير الحلمى ، وبخاصة حين نذكر أن الشعر المقفى يستبيح لنفسه حرية مماثلة . فقد روى رانك (١٩١٠ ، ٤٨٢) فى كثير من التفصيل حلماً أتته فتاة وحلله تحليلا وافياً إلى مدى بعيد ، وفى هذا الحلم نسمع أن الفتاة قد سارت وسط الحقول وهى تقطع سنابل [Ahren] مثقلة بالقمح والشعير ، ثم أقبل عليها صديق فى سنها ، فحاولت أن تتجنب لقاءه . ويبين التحليل أن الأمر يتعلق بقبلة ، « قبلة فى شرف»[Kuss in Ehren][2] . فالسنابل [Ahren] التى كان يجب اقتطافها لااقتطاعها

---

(١) [شعبة ماء .]

(٢) [Ahren (سنابل) = Ehren (شرف) فى النطق ، فكأن معنى التعبير منطوقا هو : قبلة فى شرف أو قبلة بين السنابل . ومن المهم أن نلاحظ مع ستراشى أن هذا التعبير يشير إلى مثل ألمانى ترجمته الحرفية هى : ما من أحد يرفض قبلة فى شرف ، كما أن الفتاة كانت فى الحقيقة قد تلقت أول قبلاتها وهى سائرة فى حقل قمح ، فكانت قبلة " بين السنابل " .]

قد أفادت من حيث هى كذلك ومن حيث تكثيفها بكلمة Ehren [شرف] فى تصوير طائفة كاملة من أفكار أخرى .

وفى حالات أخرى نجد أن اللغة قد يسرت الأمور على الحلم تيسيراً كبيراً ؛ فاللغة تملك طوع يدها طائفة بأسرها من المفردات التى كانت تملك فى الأصل معانى عيانية مصورة ثم صارت اليوم تستخدم استخداماً مجرداً لا لون فيه ، وكل ما يحتاج إليه الحلم هو أن يسترجع لهذه الكلمات معانيها السابقة المليئة وأن يرجع بعض المسافة إلى مرحلة متقدمة فى تطور الكلمة. ومثال ذلك أن يحلم حالم بأن أخاه فى صندوق، ثم تذهب خواطر الحالم فى أثناء التفسير من صندوق إلى « دولاب » [Schrank ويعنى أيضاً الحد بالمعنى المجرد] ، فتكون فكرة الحلم الكامنة هى : أن على أخيه أن يلزم حده — أى أن يلزمه هو . وها هو ذا حالم آخر يعتلى جبلا يشرف منه على منظر « قصى الأطراف » ، وهو بذلك يعين ذاته بأخيه الذى كان يشرف على تحرير باب عنوانه « نظرة على الشرق الأقصى » .

وفى حلم يرد فى « هاينريخ اليانع » [رواية ذائعة لجوتفريد كيللر] نرى فرساً جموحاً وهو يتقلب فى حقل جميل من الخرطل كل حبة منه « لوزة حلوة وزبيبة ودرهم جديد . الكل ملفوف فى حرير قان ، معقود بسبائب الخنزير » . ولا يلبث الكاتب (أو الحالم) أن يفسر هذه الصورة الحلمية ؛ إذ يشعر الحصان بدغدغة تطيب له ، ويهتف قائلا : الخرطل ينغزنى . [وهو من مثل ألمانى بمعنى : أفسده الرغد .]

وفى رأى هنتسن أن الأحلام المشتملة على توريات وجمل لفظية تكثر كثرة خاصة فى الأساطير الشمالية القديمة ، فلا تكاد تخلو أسطورة منها من حلم ينطوى على بعض الاشتراك أو اللعب بالألفاظ .

وإنه ليكون عملا قائماً بذاته أن يجمع المرء أساليب التصوير وأن يقسمها بحسب المبادئ التى تقوم عليها ، وإن منها لأساليب تكاد أن تكون خليقة بأن تسمى نكات ، أساليب يحس المرء إزاءها أنه ما كان ليحذر قط معناها لو لم يفض به الحالم إليه :

١) حلم رجل بأن البعض يسأله عن اسم ما ولكنه لا يستطيع تذكره . إنه يقول : إن هذا يعنى أن ذلك لا يخطر لى ولو فى الحلم .

٢) أخبرتنى مريضة بحلم بدا الناس فيه طوالا إلى حد يتجاوز المألوف ، ثم مضت تقول : إن هذا يعنى أن الحلم يتناول أحداثاً وقعت فى طفولتى ؛ ففى هذا الوقت كان جميع الراشدين يبدون لى بالطبع طوالا ضخاماً . هذا ولم يظهر شخصها هى فى ذلك الحلم .

ومن الممكن أن نعرب عن كون الحلم يشير إلى الطفولة بطريقة أخرى ، هى ترجمة الزمان إلى المكان ، فتبدو الأشخاص والمشاهد كما لو كانت على بعد عظيم ، فى نهاية الطريق ، أو كما لو كان ينظر إليها من منظار أوبرا معكوس الوضع .

٣) حلم مرة رجل كان ينزع فى حياته إلى العبارات المجردة غير المحددة وإن كان — فيما خلا ذاك — قد وهب نكتة بارعة بأنه قد وصل إلى إحدى محطات السكة الحديدية وقت دخول القطار ، وإذا الرصيف يتحرك جهة القطار بينما القطار واقف بلا حراك — وهو عكس غير معقول لما يحدث فى الواقع . ولم يكن هذا القلب إلا إشارة تشير إلى أن الحلم لا بد مشتمل على قلب آخر فى محتواه [أنظر ص ٣٣٦] . فلما حللناه انتهى الحالم إلى أن تذكر كتاباً مصوراً حوى صور رجال وقفوا على رؤوسهم ومشوا على أيديهم .

٤) وفى مرة أخرى روى هذا الحالم نفسه حلما يذكر بطريقة الألغاز المصورة ؛ فقد رأى أن عمه كان يقبله فى السيارة [Automobil] . وبادر الحالم إلى تفسير الحلم تفسيراً ما كنت لأحذره قط : إن ذلك كان يعنى العشق الذاتى [Autoerotismus] . وقد كان من الممكن أن يخرج محتوى هذا الحلم فى الحياة المستيقظة على صورة نكتة .

٥) حلم رجل بأنه يجذب [hervorziehen] امرأة من وراء السرير ، وكان معنى ذلك أنه يؤثرها [vorziehen] .

٦) حلم رجل أنه يجلس إلى إحدى الموائد فى مواجهة الإمبراطور . وكان معناه أنه يعارض أباه .

٧) حلم رجل بأنه يعالج شخصاً ما أصيب بكسر فى أحد أطرافه . وأظهر التحليل أن

العظمة المكسورة[Knochenbruch] كانت تنوب عن الزواج المكسور [Ehebruch ويقال بمعنى الزنا .]

٨) ومن الشائع فى الأحلام أن يمثل الوقت عمر الحالم فى فترة معينة من فترات الطفولة . مثال ذلك أن « الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة » كانت تعنى فى أحد الأحلام « خمس سنوات وثلاثة أشهر » . وكان لذلك التاريخ أهمية ؛ إذ تلك كانت سن الحالم حين ولد أخوه الأصغر .

٩) وها هو ذا تصوير آخر للسن فى الحلم : فقد حلمت امرأة بأنها تسير مع فتاتين صغيرتين فرق السن بينهما خمسة عشر شهراً . ولا تعرف الحالمة أحداً من أسرتها يصدق عليه ذلك . ولكنها قد أتت بالتفسير حين قالت : إن كلتا الطفلتين تمثلها وإن الحلم إنما يذكرها بالصدامين اللذين عرفتهما فى طفولتها ؛ فقد كانت تفصل بينهما هذه الفترة على التحديد ، وقع أحدهما حين كانت تبلغ من العمر السنة الثالثة ونصف السنة ووقع الآخر حين كانت فى الرابعة والتسعة الأشهر .

١٠) ولسنا نعجب إذا رأينا أن الشخص الذى يتبع علاجاً تحليليا نفسياً يحلم كثيراً بعلاجه هذا ويعرب عن أفكار وتوقعات متعددة يبعث العلاج عليها . والصورة التى يغلب اختيارها فى تصوير العلاج هى صورة الرحيل ، والرحيل بالسيارة بنوع خاص ؛ لكونها عربة حديثة معقدة . وفى هذه الحالة تجد تهكمات المريض متنفساً بالإشارة إلى سرعة السيارة . وإذا أريد تصوير « اللاشعور » من حيث هو عنصر ورد بين أفكار اليقظة استبدلت به — استبدالا جد ملائم — أماكن تقع « تحت الأرض » — وهى أماكن تنوب عن جسم المرأة أو عن الرحم حين تجىء من غير علاقة بالعلاج التحليلى . ويكثر أن تشير « أسفل » إلى أعضاء التناسل ، بينما تشير « أعلى » — على العكس — إلى الوجه أو الفم أو الصدر . ويرمز عمل الحلم عادة بالحيوانات الوحشية إلى الانفعالات الاندفاعية التى يخشاها الحالم من نفسه أو من غيره على السواء، وهكذا يستطيع — بنقل جد طفيف — أن يرمز بهذه الحيوانات إلى الأشخاص الذين تغلب عليهم هذه الانفعالات . والمسافة هنا قريبة بين ما نحن فيه وبين الحالات التى يصور فيها الأب المخوف بوساطة

وحش كاسر أو كلب أو حصان وحشى ، على نحو يذكر بالطوطمية . وفى مقدورنا أن نقول : إن الحيوانات الوحشية تستخدم فى تصوير الليبيدو — والليبيدو قوة يفزع منها الأنا ويغالبها بالكبت. ومن الشائع أيضاً أن يُفصل العصاب فى ذاته — « الشخص المريض » — من الحالم وأن يتمثل فى الحلم فى صورة شخص مستقل .

١١) (عن هانس ساكس) « إننا نعلم من ' تفسير الأحلام ' أن عمل الحلم يسلك طرقاً مختلفة من أجل الوصول إلى تصوير الكلمات أو الجمل فى صورة حسية مرئية . فإذا اتفق — مثلا — أن كان لتعبير معنيان استطاع الحلم أن يستغل هذا الاشتراك باعتباره منعطفاً يترك عنده أول المعنيين — وهو المعنىّ فى أفكار الحلم — ليدرج الثانى بدلا منه فى محتوى الحلم الظاهر .

« ذلك ما قد وقع فى الحلم القصير الآتى ، ووقع بعد استغلال ماهر لانطباعات ملائمة من اليوم السابق باعتبارها مادة تصويرية :

« ذلك أنى كنت يوم الحلم قد عانيت بعض البرد ، فعزمت فى المساء على ألا أغادر الفراش فى الليل بقدر المستطاع . وجاء حلم لا يبدو منه إلا أنه يجعلنى أتابع فى الليل عملا من أعمال النهار : فقد كنت شغلت فى أثناء النهار بلصق قصاصات من الصحف فى دفتر لدى ، وكنت أحرص فى خلال ذلك على أن توضع كل قصاصة فى موضعها الملائم ، وكان أن جاء الحلم هكذا :

أجهد فى لصق إحدى قصاصات الصحف فى الدفتر ، فلا يتمشى ذلك مع الصفحة[1] ، وهو ما يثير فى نفسى ألماً كبيراً .

« وأستيقظ فأجد أن ألم الحلم لا يزال مستمراً فى صورة ألم جسمى حقيقى ؛ فقد أراد الحلم — من حيث هو حارس النوم — أن يهيئ إلى أن رغبتى فى المكث بالفراش قد تحققت متوسلا إلى ذلك بتصوير عيانى للجملة [الألمانية] المزدوجة المعنى . » [وتعنى ولكنه لا يماشى الصفحة ، وأيضاً : ولكنه لا يمشى إلى المرحاض أو لا يذهب إليه .]

إننا لنستطيع أن نذهب إلى حد القول : إن عمل الحلم يتوسل إلى التصوير المرئى لأفكار الحلم بكل وسيلة فى متناوله ، سواء أمقبولة لاحت لعين النقد المستيقظة أم

---

(١) [er geht aber nicht auf die seite]

مرفوضة، وذلك هو ما يجعل عمل الحلم عرضة للتشكك والسخرية عند كل من لم يَعْدُ أن يسمع عن تفسير الحلم دون أن يزاوله . وكتاب شتيكل « لغة الأحلام » (١٩١١) ثرى بالأمثلة التى من هذا القبيل ، غير أننى قد تجنبت مع ذلك الاستشهاد به ؛ لأن افتقار المؤلف إلى الحكم النقدى مع اتسام منهجه بطابع التعسف يحملان الذهن على التشكك حتى ولو خلا من كل فكرة سابقة .

١٢) فأما الأمثلة الآتية فمقتبسة من مقال كتبه تاوسك (١٩١٤) عن استخدام الثياب والألوان فى التصوير الحلمى :

ا — حلم أ . حلماً رأى فيه مربيته القديمة وقد ارتدت رداء ذا بريق [Lüster] أسود، والتصق بردفيها التصاقاً شديداً — وكان معنى ذلك أن تلك المربية كانت فى رأيه امرأة شهوانية [Lustern] .

ب — حلم ج . أنه يرى فتاة تسير فى طريق س . وقد غمرها ضوء أبيض وارتدت صداراً أبيض . كان الحالم قد بدأ فى ذلك الطريق أول علاقاته الوثيقة بآنسة لقبها : أبيض .

ج — حلمت السيدة د. بأنها ترى Blasel العجوز (وهو ممثل من قيينا بلغ الثمانين من العمر) وقد رقد على ديوان وهو شاكى السلاح [in voller Rüstung] ثم أخذ هذا الممثل يثب فوق الموائد والمقاعد، ثم استل خنجراً ونظر إلى نفسه فى المرآة ملوحاً بالخنجر فى الهواء كأنما يحارب عدواً موهوماً .

التفسير : كانت الحالمة تعانى ألماً مزمناً فى المثانة [Blase] ، ثم هى كانت تستلقى على ديوان فى أثناء التحليل ، وكانت إذا نظرت إلى نفسها فى المرآة أسرت إلى نفسها أنها على رغم سنها ومرضها — لا تزال صحيحة معافاة [rüstig] .

١٣) « عمل عظيم » فى الحلم .

حلم رجل فرأى نفسه راقداً فى السرير مثل امرأة حبلى ويثير هذا الموقف فى نفسه مضضاً شديداً . يصيح قائلا : لقد كنت أفضل . . . (فى أثناء التحليل أكمل الرجل عبارته — بعد أن تذكر شخص امرأة ممرضة — بتلك الكلمات . . . أن أكسر الأحجار .) كانت تعلو سريره خريطة ثبت شريط من الخشب بحافتها السفلى لكى يبقيها منشورة . ينتزع الحالم الشريط الخشبى بأن يقبض على طرفيه كليهما ، ولكن الشريط لا ينكسر عرضاً بل ينشق طولا . يحس الحالم عندئذ أنه قد تخفف كثيراً وأن هذا الفعل قد أعانه على الوضع .

يفسر الحالم من تلقاء نفسه انتزاع الشريط [Leiste] الخشبى بأنه يعنى إتيان

« عمل »["Leistung"] عظيم . ذلك أنه يريد التخلص من موقفه غير السار (فى العلاج) بأن ينتزع نفسه من وضعه المؤنث . . وأما تلك اللمحة غير المعقولة : ألا ينكسر شريط الخشب بل ينفلق شقين ، فتفسيرها ما يتذكره الحالم من أن هذا التضعيف مضافاً إلى التمزيق ينطوى على إشارة إلى الخصاء . ومن الأمور الشائعة غاية الشيوع أن يصور الحلم الخصاء بوساطة رمزين قضيبين تصويراً صادراً عن رغبة مضادة فيها التحدى . أضف إلى ذلك أن Leiste [الشريط ، ويعنى أيضاً « الحالب »] منطقة من الجسم قريبة من أعضاء التناسل . ويجمل الحالم تفسير حلمه بما معناه أنه — أعنى الحالم — يغالب وعيد الخصاء الذى أحوجه إلى اتخاذ هذا الموقف المؤنث [1].

١٤) وعرض مرة للتفسير — أثناء تحليل أجريته باللغة الفرنسية — حلم ظهرتُ فيه فى صورة الفيل . ودعانى ذلك بالطبع إلى أن أسأل الحالم لم صورت هذا التصوير ، فكان جوابه "Vous me trompez" [أى « أنت تخدعنى »] (trompe = زلومة).

وفى وسع عمل الحلم أن يصور مواد عَصِيَّة إلى أبعد حد — مثل أسماء الأعلام — باستخدام متكلف لروابط جد مستبعدة . فقد جاء فى أحد أحلامى أن بروكيه الشيخ كلفنى القيام بعملية من عمليات التشريح وأننى فرغت من تحضير أحد المركبات ثم التقطت شيئاً لاح مثل روق الفضة المجمد (وهو حلم سأعود إليه فيما بعد [ص ٤٥١]) . وكان المستدعى الذى ورد على ذهنى بعد شىء من الصعوبة هو : « ستانيول »[2] . وعندئذ عرفت أننى كنت أفكر فى اسم « ستانيوس » — وهو مؤلف كتب مقالا عن الجهاز العصبى لنوع من السمك أعجبت به إعجاباً شديداً فى شبابى . والحق أن أول عمل علمى كلفنى به أستاذى (بروكيه) كان يتعلق بالجهاز العصبى لنوع من السمك اسمه : « Ammocoetes » [فرويد ١٨٧٧ أ]. ومن الواضح أن ذلك الاسم كان يستحيل استخدامه فى لغز مصور .

ولست أستطيع أن أمنع نفسى من أن أسرد فى هذا الموضع حلماً عجيباً فى محتواه ، ثم هو حلم جدير بأن يعار التفاتاً لأنه حلم طفلة ، كما أنه يسهل استجلاؤه بالتحليل :

---

(١) أنظر فرويد ١٩١٤ هـ .

(٢) [ورق الفضة (واسمه عندنا ورق القصدير) عبارة عن شرائح مفضضة من الصفيح ، و" ستانيول " مشتق من "ستانيوم وهو" الصفيح .]

قالت سيدة : إننى لا أزال أذكر حلماً عاودنى مراراً فى طفولتى ، وكان فحواه أن الله يحمل قبعة مدببة فوق رأسه . ولقد كان من عادتى وأنا طفلة أن أرى هذه القبعة توضع كثيراً على رأسى حين أجلس إلى المائدة ؛ حتى لا أتمكن من التطلع إلى أطباق الأطفال الآخرين لأرى مقدار ما أخذوا . وإذ كنت سمعت من قبل أن الله عليم بكل شىء ، فمعنى الحلم أننى على علم بكل شىء رغم القبعة المدببة .

بيد أن طبيعة عمل الحلم والطريقة التى يتصرف بها فى مادته — وأعنى أفكار الحلم — تظهر على نحو حافل بالفائدة النظرية حين نجىء إلى بحث ما يعرض فى الحلم من الأعداد وعمليات الحساب . أضف إلى ذلك أن للأعداد فى الحلم — على حسب معتقد خرافى — دلالة خاصة على الغيب . ولهذا أنتقى من مجموعتى بضعة أمثلة من هذا الطراز .

(١) من حلم أتته سيدة قبل أن ينتهى علاجها بزمن قصير : تريد أن تدفع ثمن شىء ما ، تأخذ ابنتها ٣ فلورين و ٦٥ كرويتسر من كيسها . تقول الخالة : ماذا تفعلين ؟ إن هذا لا يكلف سوى ٢١ كرويتسر . لقد بدا لى هذا الطرف من الحلم واضحاً مفهوماً دون معاونة ما من جانب الخالة ، وذلك لما أعرفه من ملابسات حياتها . فالخالة سيدة أجنبية أدخلت فتاتها فى أحد المعاهد التربوية بثيينا ، ولم تكن تستطيع مواصلة علاجها إلا إذا بقيت ابنتها فى ثيينا . ولم يكن باقياً غير ثلاثة أسابيع تنتهى بعدها السنة الدراسية وينتهى معها العلاج . واتفق يوم الحلم أن ناظرة المعهد سألتها : هل تستطيع أن تقرر بقاء ابنتها عاماً آخر ؟ ولا شك فى أن خاطرها قد ذهب بها عندئذ إلى أنها سوف تتمكن فى هذه الحالة من الاستمرار فى علاجها سنة أخرى . وذلك هو محور الحلم : فى السنة ٣٦٥ يوماً، والأسابيع الثلاثة الباقية من السنة الدراسية تعدل ٢١ يوماً (وإن يكن عدد ساعات العلاج أقل من ذلك) . فالأرقام التى كانت تشير فى أفكار الحلم إلى فترات زمنية قد ترجمت فى الحلم إلى مبالغ من النقود — دون أن يخلو ذلك من معنى أعمق ؛ فإن « الوقت من ذهب »[1] . ولا تعدل ٣٦٥ كرويتسر سوى ٣ فلورين و ٦٥ كرويتسر . وإن ضآلة المبالغ المذكورة فى الحلم لتحقيق رغبة مكشوف ؛ فرغبة الخالة

---

(١) ["time is money"]

قد خفضت تكاليف العلاج وأقساط المدرسة على السواء .

(٢) وتسوقنا الأرقام المتضمنة فى حلم آخر إلى علاقات أشد تعقداً . فقد سمعت سيدة فى مقتبل العمر — وإن تكن تزوجت منذ سنوات متعددة — أن صاحبة من صواحبها تكاد تكون فى مثل سنها — هى إليز ل . — قد خطبت حديثاً، فحلمت على أثر ذلك الحلم الآتى : إنها فى المسرح مع زوجها وقد خلا أحد جوانب القاعة خلواً تاماً . يقول لها زوجها : إن إليز ل . وخطيبها كانا يريدان المجىء أيضاً، ولكنهما لم يجدا سوى مقاعد رديئة — ثلاثة مقاعد قيمتها فلورين ١ و ٥٠ كرويتسر — فلم يرضيا بها بطبيعة الحال . فتحدث نفسها قائلة : وما هناك ضرر لو قد فعلا .

ما منشأ هذا الرقم : ١ فلورين و ٥٠ كرويتسر ؟ منشؤه حدث من أحداث اليوم السابق كان فى الحقيقة خالياً من كل وزن : ذلك أن أخت زوجها قد أهدى إليها زوجها ١٥٠ فلورين ، فسارعت إلى تبديدها بأن اشترت بها حلية . ولا يفوتنا أن نلحظ أن ١٥٠ فلورين تعدل ١ فلورين و ٥٠ كرويتسر ١٠٠ مرة . والرقم ٣ — وهو عدد تذاكر المسرح — من أين أتى ؟ الرباط الوحيد الذى نجده هنا هو أن صديقتها المخطوبة تقل عنها فى السن بمثل هذا العدد من الشهور — ٣ .

وقادنا بعد ذلك إلى حل الحلم أن نكتشف إلام كانت تلمح المقاعد الشاغرة : فتلك كانت تشير إلى واقعة صغيرة هيأت لزوجها فرصة طيبة لمعاكستها ؛ ذلك أنها كانت قد عقدت العزم على أن ترى مسرحية أعلن أنها ستمثل فى أسبوع مقبل ، وتكلفت الذهاب لا بتياع التذاكر قبل الموعد بأيام متعددة — مع دفع ما يجره ذلك من فرق الحجز . فلما دخلا المسرح ألفيا أحد جوانب القاعة وقد كاد أن يكون شاغراً : لم تكن هناك حاجة إلى أن تتعجل كل هذا التعجل .

والآن أبدل بالحلم أفكاره الكامنة : « لقد كان جنونا منى أن أتزوج فى مثل هذه السن المبكرة ، وما كانت بى حاجة إلى كل هذه العجلة . وها هو ذا مثال إليز ل. يرينى أننى كنت مستطيعة دائماً أن أجد زوجاً ، بل لقد كنت أجد زوجاً أحسن مائة مرة (زوج ، كنز) لو أننى انتظرت بعض الشىء (على خلاف عجلة أخت زوجها)، وبنقودى (الدوطة) كان يسعنى أن أشترى ثلاثة رجال على هذه الشاكلة ! » إننا نلحظ أن معنى الأعداد والسياق الذى سيقت فيه قد نالهما فى هذا الحلم تحريف يفوق كثيراً

نظيره فى الحلم السابق . فعمليات التعديل والتشويه قد ضربت هنا بسهم أوفر ، ومعنى ذلك أن أفكار هذا الحلم كانت مكرهة على أن تتخطى مقداراً ذا شدة خاصة من المقاومة النفسية الداخلية قبل أن تبلغ إلى تصويرها فى الحلم . ولا نحن ننسى أن هذا الحلم قد تضمن عنصراً غير معقول ، وأعنى به أن يستأجر شخصان اثنان ثلاثة مقاعد . وهنا أستبق مبحث اللامعقولية فى الحلم فأشير إلى أن هذه اللمحة غير المعقولة كانت تهدف إلى تصوير الفكرة التى كان يلح الحالم عليها أشد الإلحاح : لقد كان جنوناً منى أن أتزوج فى مثل هذه السن المبكرة . والثلاثة المحتواة فى علاقة جد ثانوية بين الشخصين اللذين تنعقد بينهما المقارنة (ثلاثة الشهور فرق السن بين الحالمة وإليز ل.) قد استغلت استغلالا حاذقاً فى إحداث اللمحة غير المعقولة التى كان يتطابها الحلم . ثم خفض المائة وخمسين فلورين إلى فلورين وخمسين كرويتسر يوافق القيمة المنخفضة التى تضيفها الحالمة فى أفكارها الكامنة إلى زوجها (أو الكنز) .

٣) وأما المثال الآتى فيسوقنا إلى طرق الحلم فى الحساب ، تلك الطرق التى كان لها أكبر الأثر فى الاستهانة بالحلم : حلم رجل فرأى أنه كان يجلس فى مقعد لدى آل ب . (وهى أسرة سبقت له معرفتها) وأنه يتحدث قائلا : لقد كان خطأ كبيراً منكم ألا تعطونى Mali . ثم يواصل كلامه فيسأل الخادم : إذن ما عمرك ؟ فتجيبه قائلة : لقد ولدت فى ١٨٨٢ . — وأنت إذن فى الثامنة والعشرين .

وإذ كان الحلم قد وقع عام ١٨٩٨ فمن الواضح أن ذلك كان حساباً خاطئاً ، وإن ضعف الحالم فى الحساب لحرى بأن يُقَرِّبَ من ضعف المريض بعته الشلل إذا لم نجد له له تعليلا آخر . لقد كان مريضى ينتمى إلى هذه الطبقة من الرجال الذين لا يريحون من تفكيرهم امرأة وقع عليها ناظرهم . وكانت تاليته المنتظمة فى الدخول إلى حجرة استشارتى خلال بضعة شهور سيدة فى مقتبل العمر ، فكان يقابلها فى خروجه ويدأب على الاستعلام عنها ويتكلف التأدب معها . وكانت هى من يقدر عمرها بثمان وعشرين عاماً — وفى هذا الكفاية فى تعليل نتيجة الحساب المزعوم . وأما ١٨٨٢ فكانت السنة التى تزوج فيها هذا الحالم . وأذكر بعد أنه كان من بين الأمور التى لا يطيقها هذا الحالم ألا يفيض فى الحديث مع الشخصين المؤنثين الآخرين اللذين كان يلتقى بهما فى منزلى ، وأعنى بهما خادمين — كلتاهما على أبعد ما يكون من الصبا — كانتا تتناوبان

فتح الباب له ، فلما لم يجد منهما استرسالا كبيراً علل ذلك لنفسه بأنهما تحسبانه سيداً تقدم فى السن و « استقر » .

وها هو ذا حلم آخر يتميز بوضوح حتمه أو — بالأحرى — حتمه المضاعف ، وهو حلم أدين به وبتفسيره للدكتور ب . داتر .

« حلم صاحب المنزل الذى أسكن فيه — وهو من رجال الشرطة — بأنه يقوم بالخدمة فى أحد الشوارع — وهو ما يحقق له رغبة . ويمر به مفتش حملت بنيقته الرقم ٢٢ يتبعه الرقم ٦٢ أو ٢٦ ، وعلى أية حال كان الرقم يحوى العدد ٢ مكرراً .

« إن كون الحالم قد قسم الرقم ٢٢٦٢ قسمين فى أثناء رواية الحلم ظاهرة تجعلنا بذاتها ندرك أن لكل من شطريه معناه المستقل . ولقد خطر للحالم أن الحديث قد دار بالأمس فى مقر الشرطة حول طول مدة الخدمة ، وكانت مناسبة الحديث أن مفتشاً قد أحيل على المعاش بعد أن بلغ من العمر ٦٢ عاماً . والحالم قد قضى ٢٢ عاماً فى الخدمة ويلزمه الاستمرار فيها عامين وشهرين لكى يكون له الحق فى معاش قدره ٩٠ ٪ . فالحلم يحقق أولا رغبة داعبت فكره زمناً طويلا وهى الرغبة فى أن يرقى إلى درجة المفتش ؛ لأن الرئيس الذى يحمل الرقم ٢٢٦٢ على بنيقته ليس إلا الحالم نفسه . وإنه ليقوم بالخدمة فى الشارع — وهى رغبة أخرى أثيرة عنده. ثم هو قد استمر فى الخدمة المدة المتبقية : ٢ سنة و ٢ شهر مثل المفتش القديم ذى الـ ٦٢ عاماً ، وصار فى وسعه الآن أن يحصل على معاش كامل . » [١]

إذا ألقينا نظرة شاملة على هذه الأمثلة وأخرى تشبهها (أرويها فيما بعد [ص٤٤٧]) ، صرنا فى حل من أن نقول : إن عمل الحلم لا يعرف الحساب على الإطلاق سواء أكان صحيحاً أم كان غير صحيح . كل الأمر أنه يلتقط أعداداً ماثلة فى أفكار الحلم ويتخذ منها إشارات يلمع بها إلى مادة لا يمكن تصويرها بغير ذلك ، واضعاً إياها — هذه الأعداد — فى صورة العملية الحسابية . وهو فى ذلك يعامل الأعداد كما لو كانت مادة يتوسل بها إلى الإعراب عن مقاصده ، على نحو يطابق كل المطابقة أسلوب معالجته لكل فكرة أخرى بما فى ذلك أسماء الأعلام والأقوال الواردة صراحة فى هيئة صور لفظية .

---

(١) أنظر عند يونج (١٩١١) ومارسينوفسكى (١٩١٢ ب) وغيرهما تحليلات لأحلام أخرى كانت تشتمل على أرقام ، وكانت هذه الأحلام تتضمن فى أحيان كثيرة عمليات معقدة جدا أجراها الحالم فى دقةمدهشة. وانظر أيضا جونز (١٩١٢أ) .

ذلك أن عمل الحلم عاجز فى الحقيقة عن أن يخلق الكلام خلقاً . فمهما ورد فى الحلم من الأقوال والردود — سواء كانت معقولة فى ذاتها أم كانت هراء — فالتحليل يثبت فى كل حالة أن الحلم لم يعد أن يلتقط من أفكار الحلم نبذاً من أقوال قيلت بالفعل من قبل أو سمعت ، وأنه قد عالج هذه الأقوال معالجة طابعها التعسف إلى أقصى الحدود : فهو لم يقف عند انتزاعها من محيطها وتمزيق أوصالها ، يأخذ أجزاء ويترك أخرى ، بل هو فى أحيان كثيرة ينتظمها فى نسق جديد ، حتى لترى الكلام يبدو فى الحلم كلا مترابطاً فإذا التحليل يبين أنه قد تركب من ثلاث نبذ متفرقة أو أكثر . والحلم فى خلال هذا الصوغ الجديد يترك فى أحيان كثيرة المعنى الأول الذى كان للكلمات فى أفكار الحلم ويضيف إليها معنى جديداً كل الجدة [١] . وإذا أمعنا النظر فى الكلام الذى يشتمل عليه

---

(١) إن الأعصبة تسلك من هذه الناحية مسلكا لا يختلف مطلقا من مسلك الحلم . فأعرف مريضة كانت شكاتها أنها تسمع (أى تهلوس) أغنيات أو فقرات من أغنيات بدون إرادتها وعلى رغم هذه الإرادة ، وذلك دون أن تستطيع أن تدرك معنى هذه الأغنيات بالنسبة إلى حياتها النفسية — هذا و لم تكن حالتها قطعا بالبارانويا . لقد بين التحليل أنها كانت تستخدم نص هذه الأغنيات فى غير ما وضعت له بأن تستبيح لنفسها إدخال بعض التعديل عليها . مثال ذلك هذا السطر [من لحن أجاتا فى أوبرا ڤيبير " فرايشوتس "]

"Leise, Leise, fromme Weise"
[رفقا ، رفقا ، أيتها النغمة الخاشعة]

إنه كان يعنى بالنسبة إلى لاشعورها : "Leise, leise fromme Waise" [ولا تختلف "Waise" "من" "Weise" فى النطق ، ولكن المعنى يختلف ، فيصبح السطر : " رفقا ، رفقا ، أيتها اليتيمة الخاشعة "] — وما اليتيمة بالطبع إلا إياها . أو هذا السطر :

"O du selige, O du frohlich"
[أيتها الليلة المباركة ، أيتها الليلة السعيدة]

إنه مطلع أنشودة من أناشيد الاحتفال بليلة مولد اليسوع ، ولكن المريضة إذ تسكت عن بقية السطر : " يا ليلة ولد فيها يسوع " تحيل الأنشودة إلى أغنية عرس ، إلخ . . . ومن الممكن كذلك أن يعمل هذا التشويه عمله فى أفكار لا تعدو أن تكون أفكارا ، غير مصحوبة بهلاوس . لم كانت تلاحق أحد مرضاى ذكرى قصيدة حفظها فى صباه :

"Nachtlich am Busento lipseln..."
[فى الليـــل على همس البـــوزنتو] ؟

لأن مخيلته كانت تقنع بهذا القدر من البيت :

"Nachtlich am Busen"

[أى : فى الليل على الثدى . والبيت من قصيدة ذاعت أوسع ذيوع للشاعر الرومانسى پلاتن فون هالرموند =

الحلم ، أمكننا أن نفرق بين أجزاء واضحة مركزة نسبياً ، وأخرى كل نفعها أنها أداة وصل ، وأرجح الظن أنها قد أضيفت من بعد على سبيل التكملة ، كما يحدث حين نكمل عند القراءة حروفاً أو مقاطع اتفق سقوطها عند الطباعة . وهكذا يكون للأقوال فى الحلم التركيب الذى لبنيان مرصوص تألف من كتل ضخمة من أحجار مختلفة النوع شد بعضها إلى بعض بمادة مقواة .

وإذا أردنا الدقة فالوصف الذى قدمناه لا ينطبق إلا على الأقوال التى تحمل شيئاً من الطابع المحسوس للكلام والتى يصفها الحالم نفسه بأنها كانت « كلاما » . فأما سائر الأقوال التى لا يشعر الحالم — كما يقع أحياناً — بأنها قيلت أو سمعت (أى التى لا تقترن فى الحلم بمصاحبات سمعية أو حركية) فهذه لا تعدو أن تكون أفكاراً من بين مايدور بخلدنا فى أثناء نشاطنا الفكرى المستيقظ ، وهى فى العادة تنقل إلى الحلم كما هى . ويبدو أن القراءة مصدر آخر غزير ترد منه الأقوال غير المتميزة التى من هذا القبيل ، وإن تكن مصدرا يصعب تأثره . وعلى أية حال ، فكل ما يخطر فى الحلم متخذاً صورة الكلام على نحو ملحوظ من الأنحاء يقبل رده إلى أقوال حقيقية فاه بها الحالم أو سمعها .

وقد رأينا من قبل أمثلة تشهد بأن ذلك هو مصدر الأقوال فى الحلم ، رأيناها بينما كنت أحلل أحلاماً سردتها لمقاصد أخرى . مثال ذلك الحلم « البرىء » الذى ذكرته فى ص ٢٠٤ حيث كانت جملة « لم يعد الحصول على ذلك فى حيز الإمكان » تفيد فى

=(١٧٩٦ — ١٨٣٥) وأما البوزنتو فنهر فى إيطاليا .]

ومن المعروف أن الكتاب الهزليين لا يحجمون عن الالتجاء إلى هذه الحيلة الفنية . فقد نشرت "الصحائف الطائرة" [الصحيفة الهزلية المعروفة] فى بابها المعنون " عيون الأدب الألمانى مصورة"، نشرت رسما يصور قصيدة شيللر "Sieges fest" [عيد الظفر] ، وألحقت بالرسم هذين البيتين :

"Und des frisch erkampften Weib
Freut sich der Atrid und strickt..."
[« وبأنثاه الغضة المغتصبة
يفرح ابن أتروس ويعقد . . . »]

ثم سكتت عن البقية ، والبقية هى :

"Um den Reiz des schonen Leibes
Seine Arme hochbeglückt".
[« حول سحر جسمها المبدع
ساعده الشديد المؤيد . »]

تعيينى بشخص الجزار ، بينما أفادت تلك النبذة المقتبسة من سياق آخر : « لست أعرف ذلك ، لا آخذه » — أفادت على التحديد فى جعل الحلم حلماً بريئاً . فنحن نذكر أن الحالمة كانت فى اليوم الذى سبق الحلم قد ردت على مطلب لطاهيها بالعبارة الآتية : « لست أعرف ذلك ، الزم حدودك ! » والجزء الأول من هذا القول — الجزء الذى يلوح بغير شائبة — هو الذى انتقل إلى الحلم لكى يتحقق به التلميح إلى الجزء الثانى — وهو الجزء الذى كان يلائم نوع التخييل الكامن من وراء الحلم أكبر الملائمة ، ولكنه كان أيضاً كفيلا أن يفضحه .

وها هو ذا مثال يغنى عن أمثلة أخرى كثيرة تفضى جميعها إلى ذات النتيجة :

الحالم فى فناء كبير أحرقت فيه بعض الجثث . يقول : إنى ماض ، لست أطيق منظرها (لم يكن ذلك كلاماً متميزاً .) يقابل الحالم بعدئذ صبيى جزار فيسألهما : حسناً . هل كان مذاقها لذيذاً ؟ فيجيبه أحدهما : كلا ، كلا على الإطلاق . كأنما كان اللحم لحماً آدمياً .

إن المناسبة البريئة للحلم هى الآتية : ذهب الحالم وزوجه ذات مساء فى زيارة بعض الجيران ، وكانوا من طيبة الناس ولكنهم لم يكونوا بحال من الأحوال من النوع الذى « يفتح النفس » . وكانت ربة البيت العجوز المضيافة لا تزال تتناول عشاءها فحاولت أن ترغمه على أن يذوق بعض طعامها (هناك كلمة أخرى يستخدمها الرجال فيما بينهم على سبيل المزاح للإعراب عن فكرة الإرغام[1]) . فاعتذر متعللا بنقص شهيته ، ولكنها أجابته قائلة : « امض ، امض ، إن هذه الكسرة لن تعجزك » أو شيئاً من هذا القبيل . فكان أن اضطر إلى تذوقها ثم أطرى السيدة قائلا : « إن طعمها لذيذ جداً . » فلما خلا إلى زوجه من جديد تذمر من إلحاح الجارة ومن مذاق طعامها كذلك . وأما فكرة « لا أطيق منظرها » — وهى الفكرة التى لا تخطر حتى فى الحلم فى صورة الكلام بالمعنى الصحيح — فتلمح إلى الفتن البدنية للسيدة الداعية ، ولا ترجمة لها سوى أن الحالم لا يطيق النظر إليها .

غير أننا نجنى المزيد من الفائدة النظرية من حلم آخر أرويه فى هذا الموضع لما اشتمل عليه من كلمات جد متميزة كانت تكون نقطته الرئيسة ، وإن كان هذا الحلم

---

(١) [أرغم = "notigen" ، والكلمة المؤدى إليها هى "notzüchtigen" وتعنى الإرغام بالمعنى الجنسى أو الاغتصاب .]

لن يتضح إلا حين نعرض للحديث عن الحالات الوجدانية فى الحلم . حلمت الحلم الآتى فى وضوح تام : ذهبت ليلا إلى معمل بروكه . وقرع الباب قرعاً رفيقاً ففتحته للأستاذ (المتوفى) فلايشل الذى جاء يصحبه بعض الغرباء ثم جلس إلى مائدته بعد كلمات قليلة . وأعقب ذلك حلم ثان : جاء صديق ف . (فليس) إلى ڤيينا فى شهر يوليه على غير توقع . أقابله فى الطريق وهو يتحدث إلى صديق (المتوفى) ب. ، ثم أذهب معهما إلى مكان ما حيث يجلسان الواحد قبالة الآخر كأنما يجلسان إلى مائدة صغيرة ، وأجلس فى الصدر عند جانب المائدة الضيق . يتحدث ف . عن أخته ويقول : إنها ماتت فى خمس وأربعين دقيقة ، ثم يضيف بضع كلمات من قبيل : تلك كانت العتبة . ولا يفهم ب . مراده ، فيتحول ف . إلى ويسألنى : إلى أى حد أطلعت ب . على أخباره ؟ حينئذ تتولانى انفعالات غريبة وأحاول أن أشرح لصديق ف . أن ب . ما كان بالطبع ليستطيع أن يفهم شيئاً على الإطلاق ؛ لأنه ليس حياً . ولكن التعبير الذى أستخدمه بالفعل – وأنا ألحظ خطئى – كان Non Vixit (لم يعش) ثم بعد ذلك أصوب نظرة ثاقبة إلىب . فإذا هو يمتقع أمام نظرتى ، وتختلط صورته ، وتحول عيناه إلى زرقة مريضة ، وفى النهاية ينوب ويختفى . أطرب لذلك طرباً لا حد له وأدرك الآن أن إرنست فلايشل لم يكن هو الآخر إلا طيفاً ، شبحاً عائداً ، وأرى أنه من الممكن غاية الإمكان أن يكون أمثال هؤلاء الأشخاص إنما يوجدون بمقدار ما يريد لهم المرء أن يوجدوا وأن فى الوسع أن يتبددوا لو شاء الغير ذلك .

إن هذا الحلم البديع قد حوى عدة من الخصائص المحيرة لمحتوى الحلم [الظاهر] : كأن أمارس ملكة النقد فى أثناء الحلم نفسه فألحظ خطئى حين أقول : Non vixit [لم يعش] بدل : Non vivit [ليس حيا] ، ثم هذه الصلة الخالية من كل كلفة بموتى أعرف فى الحلم أيضاً أنهم كذلك ، ثم فساد استنتاجى الأخير وما أثاره هذا الاستنتاج من الطرب فى نفسى ! إنى « لأبذل حياتى طواعية » لو قد استطعت بذلك أن أورد حل هذه الألغاز كاملا . ولكن الحقيقة أنى لا أستطيعه : إنى لأعجز عن أن آتى ههنا ما آتيه فى الحلم من التضحية بأشخاص أكن لهم أكبر التقدير فى سبيل مطامحى . بيد أن كل استخفاء سوف يهدم مع هذا ما أعلم حق العلم أنه معنى الحلم . وعلى ذلك أقنع هنا ثم فى الموضع الآخر [ص ٤٧٨] بأن أنتقى قلة من عناصره لأفسرها .

لقد كان محور الحلم مشهداً أعدم فيه ب . بنظرة ، وتحول عيناه فى أثنائه إلى أزرق غريب يفارق كل مألوف ، ثم ينوب هو ويختفى . وما من خطأ فى أن هذا المشهد إنما ينسخ آخر قد عشته حقيقة . فقد عملت ممرنا فى المعهد الفيزيولوجى وكان الواجب يقتضى أن أبدأ العمل فى الصباح الباكر . ونمى إلى سمع بروكه أنى كنت أصل متأخراً

إلى معمل الطابة فى بعض الأحيان ، فتوجه إلى المعمل ذات صباح ساعة البدء فى العمل وانتظرنى : كانت كلماته موجزة وكانت فى الصميم . ولكن الذى هنى لم يكن كلماته وإنما اكتسحتنى عيناه الزرقاوان الرهيبتان اللتان سددهما إلى فأحالتانى إلى عدم — شأن ب . فى الحلم ، حيث انعكس الدوران بما يخفف عنى . وإن من يذكر عينى الأستاذ الجليل — هاتين العينين اللتين ظل لهما جمالهما العجيب وهو بعد شيخ طاعن — ويذكر أنه رآه فى سورة من الغضب ليستطيع فى غير عناء أن يتخيل ما ولى إذ ذاك الفتى الآثم من الانفعالات .

بيد أننى لبثت وقتا طويلا لا أفلح فى العثور على مأتى جملة "Non vixit" التى صغت فيها ذلك الحكم على ب ، . إلى أن خطر لى أن هاتين الكلمتين لم تحظيا فى الحلم بتلك الدرجة الشديدة من الوضوح لأننى سمعتهما من قبل أو فهت بهما ، بل لأننى رأيتهما . وحينئذ علمت على الفور من أين أتتا : فعلى قاعدة التمثال المقام للقيصر جوزيف فى القصر الإمبراطورى بڤيينا نقرأ تلك الكلمات الجميلة :

Saluti patriae **vixit**
non diu sed totus[1]

لقد أخذت من هذه الكلمات ما يلائم الخواطر للعدائية التى كانت تتضمنها أفكار الحلم ، وما كان معناه : «ليس لهذا الشخص رأى يُعتد به ؛ إنه ليس حيا على الإطلاق» . وإنى أذكر الآن أنى رأيت هذا الحلم أياماً قليلة قبل أن يرفع الستار عن نصب تذكارى أقيم لفلايشل فى ساحة الجامعة . وكنت آنذاك قد رأيت نصب بروكه مرة ثانية ، ولا بد أنى فكرت آسفاً (تفكيراً لا شعورياً) كيف كان الموت المبكر سبباً فى أن يفقد صديقى ب . الذى ندب حياته لخدمة العلم حقه المشروع المستحق فى نصب يقام له فى هاته الحرمات . وهكذا كان أن أقمت له فى الحلم هذا النصب — وأذكر بعد أن صديقى ب . كان اسمه الأول جوزيف[2] .

---

(١) [لخير الوطن عاش بكل نفسه وإن لم يعش طويلا .] الكلمات الصحيحة هى :

Saluti **Publicae** vixit
non diu sed totus.

وأكبر الظن أن ڤيتلز قد خمن السبب الصحيح للخطأ الذى جعلنى أضع **patriae** بدل **publicae** [أى " لخير الوطن " بدل " للخير العام "] .

(٢) وأضيف — كمثال على الحتم المضاعف ، أن معذرتى عن الوصول إلى المعمل متأخرا كانت أنى =

بيد أن قواعد تفسير الحلم لا تبرر حتى الآن كونى بدات بـ "non vivit" التى أحتاج إليها "non vixit" المستمدة من ذكرى نصب القيصر جوزيف . لا بد أن أفكار الحلم قد حوت عنصراً كان له أثره فى جعل هذا التبديل أمراً ممكناً . وهأنذا أنتبه الآن إلى أن هذا المشهد من الحلم قد حوى مجريين من المشاعر نحو صديقى ب. : الأول عدائى ، طاف على السطح والثانى ملؤه الود ، مستتر ، ولكنهما يبلغان جميعاً إلى التمثل فى تلك الجملة الواحدة : « non vixit » . لقد استحق ب . أطيب الجزاء من العلم ، فله أشيد نصباً ، ولكنه تذنب علىّ برغبة شريرة (أعرب عنها فى نهاية الحلم) ، ولهذا أعدمته . إنى ألحظ أن هذه الجملة الأخيرة قد أجريت على وتيرة خاصة ، ولا بد أنى كنت متأثراً فيها بنموذج احتذيته . أين نجد مثل هذا التقابل ، مثل هذا التجاور جنباً إلى جنب بين استجابتين متضادتين تجاه شخص بعينه ، استجابتين تدعى كل منهما أن لها ما يبررها كمال التبرير دون أن تعمل مع ذلك على أن تغير شيئاً من الأخرى ؟ نجده فى فقرة واحدة ولكنها فقرة تترك فى النفس أثراً عميقاً ، فى الخطاب الذى يلقيه بروتوس لكى يبرر فعله فى « يوليوس قيصر » لشكسبير : « أحبنى قيصر ، فعليه أبكى ، وكان مجدودا ، فله أسر ، وكان مقداما ، فإياه أبجل ، لكنه كان طموحا ، لهذا قتلته . » أليست بنية العبارة هنا وأليس التقابل فى المعنى هما هما اللذان رأيناهما فى فكرة الحلم التى كشفت عنها . وإذن كنت ألعب بروتوس فى الحلم . لو استعطت أن أجد فى محتوى الحلم أثراً آخر يؤيد هذه الرابطة الجانبية المدهشة ! إنى أفكر فى أن ما يأتى ربما كان شاهدا ممكنا : « جاء صديقى ف . إلى ڤيينا فى شهر يوليه . » إن هذه النبذة من الحلم لا أساس لها فى الحقيقة الواقعة ؛ فصديقى ف . — بقدر ما أعلم — لم يأت قط إلى ڤيينا فى شهر يوليه . ولكن يوليه شهر سمى باسم يوليوس قيصر ، وهو إذن قد يمثل حقيقة هذه الإشارة التى أبحث عنها إلى تلك الفكرة المتوسطة ، فكرة القيام بدور بروتوس [1]

والشىء العجيب هو أنى قد لعبت بروتوس حقيقة يوماً ما : فقد مثلت مرة أمام جمهور من الأطفال مشهداً من شيللر يدور بين بروتوس وقيصر . كنت أبلغ من العمر

كنت مضطرا — بعد العمل حتى ساعة متأخرة من الليل — إلى أن أقطع فى الصباح المسافة الطويلة بين شارع القيصر جوزيف وشارع ڤارينجر .

(١) ثم أيضا هذه الرابطة : قيصر [يوليوس] — قيصر [جوزيف] .

إذ ذاك أربعة عشر ربيعاً وكان يشاركنى المشهد ابن أخ يكبرنى بعام واحد ، وكان قد وفد حديثاً من إنجلترا ؛ فكان هو الآخر عائداً ! إنه كان رفيق السنوات الأولى من طفولتى يُبعث بمجيئه إلى الوجود من جديد . فقد كنا حتى نهاية السنة الثالثة من حياتى صنوين لا يفترقان ، أحب كلانا الآخر وناصبه العداء ، وكان لهاته العلاقة الطفلية — كما ألمعت إليه من قبل — أثر حاسم فى جميع علاقاتى التالية بمن كانوا فى مثل سنى . ومنذ ذلك الحين وابن أخى — جون — يجد له متقمصين عديدين يبعثون — على حسب الأطوار — هذا الجانب أو ذاك من شخصه المثبت فى ذاكرتى اللاشعورية تثبيتاً لا يتزعزع . ولا بد أنه — بين الحين والحين — قد أذاقنى شر المعاملة ، ولا بد أنى أظهرت شجاعة جمة فى وجه طاغيتى ؛ فكثيراً ما سمعت فى مستأنف السنين عن خطاب قصير ألقيته دفاعاً عن نفسى إذ سألنى والدى — وهو جد غريمى — الحساب : سألنى : لم تضرب جون ؟ فأجبته فى لغة الطفل لما يبلغ العامين : ض (ل) بته ؛ لأنه ض (ل) بنى .

ولا بد أن هذا المشهد الطفلى هو الذى حرف non vivit إلى non vixit ؛ فالضرب فى لغة سنوات الطفولة اللاحقة يسمى wichsen [ڤيكسن] ، وما يترفع عمل الحلم عن التوسل بأمثال هذه الروابط . والحق أن عدائى تجاه صديقى ب . لم يكن له من الحقيقة الواقعة إلا أقل المبررات ، وكان إذن يرجع يقينا إلى علاقتى الطفلية المعقدة بجون ؛ لقد كان صديقى ب . يفضلنى أضعافاً ، وهو — لهذا — كان مهيئاً لأن يبدو لى مثل نسخة جديدة من رفيقى فى اللعب .

وقد قلت : إن لى عوداً إلى هذا الحلم .

ز

الأحلام اللامعقولة — النشاط العقلى فى الأحلام

لقد صادفنا عنصر اللامعقولية مراراً من قبل بينا كنا نفسر الأحلام التى سبقت ولسنا نستطيع بعد الآن أن نرجئ البحث فى منشأ هذا العنصر وفى المغزى الذى قد يكون

له ؛ فما زلنا نذكر أن لا معقولية الأحلام قد زودت أولئك الذين ينفون قيمة الحلم بحجتهم الرئيسة فى أن الأحلام يجب أن تعد نتاجاً لا معنى له تولد عن نشاط عقلى منقوص متقطع .

وأبدأ بتقديم أمثلة قليلة ليست اللامعقولية فيها إلا شيئاً ظاهريا ، ولكنها لا تلبث أن تختفى حين نقرب النظر إلى الحلم . وها هى ذى بضعة أمثلة تتصل بالأب الميت (وهى صلة قد تبدو للوهلة الأولى وليدة الصدفة) .

حلم مريض كان قد فقد والده قبل الحلم بستة أعوام الحلم الآتى :

نزلت بوالده نكبة بالغة : ذلك أنه كان يسافر ليلا فخرج القطار عن السكة وانطبقت المقاعد بعضها فوق بعض وانضغط رأس والده حتى انطبق جانباً على جنب . يراه الحالم بعد ذلك راقداً فى سريره وفوق حاجبه الأيسر جرح ذو اتجاه رأسى . يعجب الحالم من أن ينزل بوالده مكروه (ويزيد فيقول وهو يروى : لأنه كان قد مات) . ما كان أفتح لون عينيه !

لو اتبعنا النظرية السائدة عن الأحلام لفسرنا محتوى هذا الحلم على ذلك الوجه : إن الحالم وهو يتخيل هذه الحادثة التى ألمت بأبيه قد نسى أول الأمر أن أباه هذا راقد فى قبره منذ سنوات متعددات ، فلما استمر فى حلمه استيقظت الذكرى وكانت النتيجة أنه عجب لحلمه وهو ما زال بنومه . بيد أن التحليل يعلمنا أن التماس أمثال هذه التعليلات لا يجدى شيئاً . لقد كان الحالم أوصى أحد الفنانين بصنع تمثال نصفى لأبيه ، ولم يكن رأى التمثال للمرة الأولى إلا قبل الحلم بيومين . وإن تكن من نكبة ، فالنكبة إنما حلت بهذا التمثال ؛ ذلك أن المثال لم يكن رأى والد الحالم قط وكان يعمل غير مستعين إلا إلا بالصور الشمسية وحدها . وحدث فى اليوم الذى سبق الحلم أن الحالم — مدفوعاً بتقواه البنوية — أرسل خادماً من خدم الأسرة القدماء ليرى بعينه هل كان الحالم محقاً فى حكمه على الرأس المرمرية — وكانت تبدو له شديدة الضيق فيما بين الجانبين عند الصدغين . ثم يمضى الحالم فيأخذ فى تذكر المادة التى شاركت فى تكوين هذا الحلم : لقد كان من عادة الوالد حين تعذبه هموم العمل أو متاعب الأسرة أن يضغط جانبى الجبهة بكلتا يديه كأنما كان يحس انبساطاً مفرطاً فى رأسه ويود لو ضمها . — وحدث مرة أن المريض — — وهو فى الرابعة من عمره — كان حاضراً حين انطلق مسدس اتفق أنه كان مليئاً

بالرصاص فاسودت عينا والده (ما كان أفتح لون عينيه !) — وأما تلك البقعة فوق الجبهة حيث مكان الجرح فى الحلم فكانت — ووالده على قيد الحياة — تحمل خطا غائراً يظهر كلما ولى الوالد فكر أو حزن . فأما أن يرتفع هذا الخط ويحل جرح فى موضعه فهذا ما يشير إلى المناسبة الثانية للحلم : ذلك أن الحالم التقط صورة شمسية لابنته الصغيرة وانزلقت اللوحة بين أصابعه ، فلما التقطها رأى بها شرخاً جرى فوق جبهة الفتاة الصغيرة فى اتجاه رأسى حتى حاجبها . ولم يملك الحالم إلا أن يتطير ؛ لأنه قبل أن تموت أمه بأيام قلائل قد كسر لوحة شمسية كانت تحمل صورتها .

وهكذا لا تخرج اللامعقولية فى هذا الحلم عن أن تكون نتاجاً لما فى التعبير اللغوى من إهمال يقعده عن التفرقة بين التمثال أو الصورة وبين الشخص الحقيقى ؛ فكلنا قد نقول [ونحن نتحدث عن صورة] « ألا ترى أن الوالد غير مضبوط ؟ » وقد كان من السهل تجنب ظهور اللامعقولية فى هذا الحلم ؛ فلو جاز للمرء أن يحكم مستنداً إلى مثال واحد لأغرينا بالقول : إن مظهر اللامعقولية هذا مظهر لاقى موافقة — إن لم يكن جاء عمداً .

(٢)

وها هو ذا مثال ثان يشبه السابق غاية الشبه ، أنتخبه من أحلامى (فقدت والدى عام ١٨٩٦) :

قام والدى بعد موته بدور سياسى كبير بين المجريين ، ووحد بينهم سياسياً . وهنا أرى صورة صغيرة غير واضحة : حشد من الناس كأنهم فى الراخشتاج ، يقف شخص على مقعد أو مقعدين وقد أحاط به آخرون . أذكر عندئذ كيف كان والدى — وهو على فراش الموت — شديد الشبه بغاريبالدى ، وأسر لأن هذا الوعد قد صار حقيقة .

لى هذا من اللامعقولية الكفاية ! إن هذا الحلم قد جاءنى فى وقت آل فيه الهنغاريون إلى حال انعدم فيها القانون من جراء العرقلة البرلمانية ، وكانوا يجتازون هذه الأزمة التى

خلصهم منها كولومان "سل"[١] . ولم تكن تلك الملابسة التافهة : أن المشهد المرئى فى الحلم قد تكون من صور صغيرة كل الصغر – خالية من الأهمية فيما يتعلق باستجلاء هذا العنصر من الحلم . ذلك أن الحلم يصور أفكارنا عادة فى صورة تقارب الحجم الطبيعى ، ولكن الصورة التى رأيتها فى حلمى إنما كانت تردد صورة محفورة من الخشب رأيتها منقولة فى كتاب مصور عن تاريخ النمسا ،وكانت هذه الصورة تمثل ماريا تيريزا فى رايخشتاج برسبورج إبان المشهد المعروف [حين هتف نبلاء المجر بمبايعتهم] : « نموت فداء مليكنا »[٢]. وقد وقف والدى محاطاً بالجموع مثل ماريا تيريزا ، ولكنه وقف على مقعد [Stuhl] أو مقعدين ، أى أنه كان قاضياً [Stuhlrichter وترجمته الحرفية هى : قاضى الكرسى بمعنى القاضى المترئس] . ثم هو قد وحدهم : إن الرابطة هنا هى هذا التعبير [الألمانى] الدارج : لن نكون بحاجة إلى قاض [أى سنكون متحدين لا متنابذين] . فأما أن والدى وهو على فراش موته قد لاح شبيهاً بغاريبالدى كل الشبه فذلك أمر لاحظناه جميعاً نحن الذين اجتمعنا من حوله فى هاته الساعة ؛ فقد ارتفعت درجة حرارته عقب الوفاة واحمرت وجنتاه حمرة زادت عمقاً بعد عمق . إن الخاطر لينساق هنا طواعية إلى تلك الكلمات : « ومن ورائه يجثم – فى مظهر خلو من كل حقيقة – هذا القيد الذى يغلنا جميعاً : الأمور المشتركة [أو المشاعة المبتذلة] . »[٣]

إن هذا العلاء فى أفكارنا يجعلنا نتوقع أننا لا بد آتون إلى هذا « المبتذل » على التحقيق فارتفاع درجة حرارة والدى « عقب الوفاة » هو المضمون الذى يقابل قول الحلم : « بعد موته » ، وقد كان أقسى ما لاقاه والدى من العذاب شلل الأمعاء شللا تاماً (العرقلة) فى خلال الأسابيع الأخيرة . وترتبط بذلك أفكار لا توقير فيها من كل صنف . من ذلك

---

(١) [رئيس الحكومة الائتلافية التى تألفت عام ١٨٩٨ فأنقذت المجر من أزمة سياسية عنيفة .]

(٢) ["moriamur pro rege nostro"] – لست أدرى أين قرأت عن حلم ازدحم بصور صغيرة على خلاف المألوف ثم تبين أن مصدرها كان صورا بماء الفضة من صنع چاك كاللو ، رآها الحالم فى خلال النهار . ولوحات كاللو هذه تحتوى فعلا على عدد كبير من صور صغيرة جدا ، وتمثل طائفة منها أهوال حرب الثلاثين .

(٣) [من قصيدة جوته المعنونة "Epilog zu Schiller's Glocke" .]

أن أحد أقرانى — وكان قد فقد والده ونحن لا نزال بالمدرسة الثانوية وكنت قد تأثرت له كثيراً إذ ذاك وبذلت له من صداقتى — قد قص على مستهزئاً أى ألم أصاب إحدى قريباته إذ سقط والدها ميتا فى الطريق ، وأحضر إلى المنزل محمولا ، فلما نزعت الثياب عن جسده تبين أن عمود البراز [Stuhl] قد نزح منه فى لحظة الوفاه أو عقب الوفاة . وكانت الابنة تشعر بتعس عميق إذ ترى هذه اللمحة الكريهة تنغص ذكراها لأبيها . ههنا نلمس الرغبة التى تجسمت فى هذا الحلم : أن يقف الأب بعد مماته طاهراً عظيما فى أعين أبنائه — ومن ذا الذى لا تجول بصدره هذه الرغبة ؟ ولكن ماذا عن لا معقولية الحلم ؟ إن مظهرها إنما يرجع إلى أن تعبيراً جارياً يستسيغه الجميع كل استساغة وألفنا أن نغض النظر عن اللامعقولية المتضمنة فى التناقض الذى بين مقوماته قد صور فى الحلم بحذافيره . وهنا أيضاً لا نستطيع أن نتجنب الشعور بأن مظهر اللامعقولية فى الحلم مظهر مقصود ، مستثار عمداً .

إن الكثرة التى يخطر بها الموتى فى أحلامنا ويعملون ويتصلون بنا كما لو كانوا أحياء كانت مثاراً لعجب لا داعى إليه وسبباً فى نظريات غريبة تبرز سوء فهمنا للأحلام إبرازاً قوياً . وتعليل هذه الأحلام قريب مع ذلك منا كل القرب . فكم من مرة نرانا فى موقف نتساءل معه : « ترى ماذا كان يقول الوالد لو كان حيا ؟ » ولا يستطيع الحلم أن يصور « لو » هذه بغير الحضور الفعلى فى موقف بعينه . مثال ذلك شاب ترك له جده ميراثاً كبيراً ، فلما أخذ يؤنب نفسه لأنه أضاع قدراً لا يستهان به من المال حلم بأن جده يناقشه الحساب . وإن ما نعتقد أنه نقد موجه إلى الحلم إذ نحتج استناداً إلى معرفتنا الوثقى بأن الرجل ميت مطمور بعد كل شىء ، ليس فى الحقيقة إلا عزاء يقول لك : إن الميت قد أغناه الموت عن أن يرى هذا كله ، أو ارتياح إلى ما آل إليه من العجز عن أن يتدخل بخير أو بشر .

وهناك نوع آخر من اللامعقولية يظهر فى أحلام الأقارب المتوفين ولكن دون أن يعرب عن سخرية أو زراية[1] ، وإنما عن استنكار بلغ منتهاه ، وبذلك يفيد فى تصوير فكرة مكبوتة يؤثر المرء أن ينظر إليها نظرته إلى أمر يستحيل مجرد التفكير

(١) [يفهم من هذه الجملة أن اللامعقولية فى الحلم تعرب عن سخرية أو زراية متضمنة فى أفكار الحلم وهى النتيجة التى يخلص إليها فرويد فيما بعد .]

فيه . وتبدو الأحلام التى من هذا النوع مستعصية على كل حل ما لم ننتبه إلى أن الحلم لا يفرق أقل تفرقة بين ما هو حقيقى وما هو موضوع رغبة . مثال ذلك رجل عنى بأبيه فى أثناء مرضه وألم لموته ألما بالغاً ثم بعد أن انقضى زمن على موته حلم هذا الحلم غير المعقول : كان أبوه حيا من جديد وكان يتحدث إليه كسابق عهده ولكنه (وهذا هو الشىء العجيب) كان مع ذلك ميتاً ، سوى أنه لم يكن يعلم أنه كذلك . إننا نفهم هذا الحلم حين نضيف إلى « كان مع ذلك ميتا » : « نتيجة ارغبة الحالم » ، وحين نكمل « دون أن يعلم » بـ : « أن تلك رغبة الحالم » . ذلك أن الحالم قد اشتهى الموت لوالده مراراً بينما كان يقوم بتمريضه ، وهذا يعنى أنه قد ساورته تلك الفكرة التى كانت فى الحقيقة مشربة بالرحمة : أن يضع الموت حدا لعذاب أبيه . فلما جاء الحداد فى أعقاب الموت أصبحت هذه الفكرة عينها مثاراً لتأنيب لا شعورى ، كأنما كان من أثرها أن قصرت بالفعل حياة المريض . ولقد أمكن الإفصاح عن هذا التأنيب فى صورة حلم ، لأن أقدم الدوافع الطفلية العدائية نحو الأب قد أثيرت ثائرتها ، إلا أن الفرق الساحق بين الحافز إلى الحلم وبين أفكار اليقظة — هذا الفرق على التحديد — هو الذى حتم خروج الحلم على تلك الصورة اللامعقولة . (أنظر فرويد ١٩١١ ب .)

والحق أن الأحلام المتعلقة بمن ماتوا من أحباء الحالم تثير فى وجه التفسير مشكلات صعبة ليس من المستطاع فى كل حالة الوصول إلى حلها حلا مرضياً . والسر فى ذلك ينبغى التماسه فيما يسيطر على علاقة الحالم بالشخص الميت من ازدواج عاطفى ذى شدة خاصة ملحوظة . ومن الشائع فى الأحلام التى من هذا القبيل أن يعامل الشخص الميت فى المبدأ كما لو كان حيا ، ثم ينقلب فإذا هو ميت ، ثم يعود إلى الحياة فى جزء تال من الحلم . وكل هذا سبب فى أن تختلط الأمور علينا . ولقد خطر لى فى النهاية أن هذا التداول بين الموت والحياة قد يكون القصد منه استواء الطرفين عند الحالم (« سواء عندى أن يكون حيا أو ميتا ») . وهذا الاستواء بالطبع ليس حقيقة بل موضع رغبة وحسب ، والقصد منه هو مساندة الحالم على أن ينبذ مواقفه العاطفية ذات الشدة المفرطة والتى يكثر تناقضها ، وهو لهذا يصير وسيلة يصور بها الحلم الازدواج الذى فى عاطفة الحالم . وهناك أحلام يتواصل فيها الحالم والميت ، وهنا تعيننا القاعدة الآتية على أن نجد طريقنا : إذا لم يذكر فى الحلم أن الميت ميت ، فالحالم يساوى نفسه بالميت ، أى أنه يحلم بموته نفسه ،

فإن صاح فجاءة فى دهش : « ولكنه قد مات يقينا منذ زمن طويل ! » فالحالم يطرح هذه المساواة وينبذ ما يحمله الحلم من معنى موته . بيد أننى أعترف بشعورى بأن تفسير الأحلام ما زال بعيداً عن أن يفض جميع الأسرار التى تنطوى عليها الأحلام التى لها هذا المحتوى .

(٣)

ولقد أمكننى فى المثال الذى سأرويه الآن أن أفاجئ عمل الحلم وهو يعمل عن عمد على خلق مظهر من مظاهر اللامعقولية دون أن تكون فى مادة الحلم أقل مناسبة لذلك . والمثال مأخوذ من الحلم الذى أثاره التقائى بالكونت تون وأنا أهم بالإجازة [ص٢٢٨] : « أركب عربة وآمر السائق بالتوجه إلى المحطة . أقول له بعد أن أثار اعتراضاً ما — كأن أكون أرهقته : إننى بالطبع لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها : وهنا يبدو الأمر كأنما كنت قد ركبت معه بالفعل المسافة التى يقطعها المرء عادة بالقطار . » إن التحليل يزودنا بما يلى فى توضيح هذه القصة المشوشة غير المعقولة : أجرت فى اليوم السابق عربة لكى تحملنى إلى شارع ناء فى دورنباخ [من ضواحى ڤيينا] ، ولم يكن الحوذى يعلم مكان الشارع ، ولكنه مع ذلك أخذ يسوق ويوغل على ما نعلم من عادة هؤلاء القوم الأماجد ، إلى أن انتبهت أخيراً فأعلمته أين الطريق الصحيح دون أن أبخل عليه ببعض الملاحظات الساخرة . وكانت هناك رابطة فكرية — سألتقى بها مرة أخرى فيما بعد — تقود من الحوذى إلى النبلاء . وأما الآن فلم تكن إلا تلك الفكرة العابرة ، وهى أن أشد ما يدهشنا نحن عامة البورجوازيين من النبلاء هو غرامهم بالجلوس فى مقعد السائق ؛ فقد كانت الكونت تون فى الحقيقة يقود عربة الدولة النمسوية . بيد أن أن الجملة التالية كانت تشير إلى أخى الذى عينته — إذن — فى الحلم بسائق العربة ؛ فقد حدث فى هذا العام أننى عدلت عن رحلة كنا عزمنا على القيام بها سوياً إلى إيطاليا (« إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها ») ، ولقد كان هذا العدول نوعاً من العقاب على ما كنت أسمعه من شكاياته : فأنا فى أمثال هذه الرحلات لا أكف عن إرهاقه (وهو ما ورد فى الحلم من غير تحريف) بالإصرار على الانتقال العاجل من مكان إلى آخر و على مشاهدة عدد لا يحصى من الأشياء الجميلة فى اليوم

الواحد . وكان أخى قد صحبنى ذلك المساء إلى المحطة ، ولكنه قفز قبلها بمسافة قصيرة عند محطة خطوط الضواحى الملحقة بمحطة الخطوط الرئيسة لكى يركب الخط الذاهب إلى بوركسدورف [على سبعة أو ثمانية أميال من ڤيينا] . وكنت فى حديثى إليه قد لاحظت أنه كان يستطيع أن يمكث معى فترة أطول او أنه سافر إلى بوركسدورف بالخط الرئيس بدل السفر بخط الضواحى . ومن هنا جاء فى الحلم أنى ركبت بالعربة جزءاً من المسافة التى يقطعها المرء عادة بالسكة الحديدية . ولقد كان ذلك عكس ما وقع فى الحقيقة (و « الركوب المعكوس هو أيضاً ركوب »)[1] ؛ فقد كنت قلت لأخى : تستطيع أن تركب معى على الخط الرئيس تلك المسافة التى تريد أن تقطعها فى خط الضواحى . وكنت أنا مبعث كل الخلط فى الحلم بأن وضعت « العربة » بدل « خط الضواحى » — وهو ما أفاد على أية حال فائدة طيبة فى الربط بين الحوذى وأخى . وهكذا أخلق فى الحلم شيئاً لا معنى له ، يبدو مختلطاً اختلاطاً يكاد يتعذر معه كل حل ، ثم هو يكاد يناقض ملاحظتى السابقة فى الحلم (« إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها ») كل المناقضة . وإذ لم تكن هناك أية ضرورة تدعونى إلى أن أخلط بين سكة حديد الضواحى والعربة ، فلا مناص من التسليم بأن كل هذه الأشغولة الملغزة إنما جاءت لغرض فى نفسى .

ولكن أى غرض؟ إن علينا الآن أن نكتشف معنى اللامعقولية فى الحلم والدوافع التى تدفع إلى قبولها أو خلقها خلقاً . وحل اللغز فى الحالة التى نحن فيها هو ما يأتى : إننى كنت محتاجاً إلى أن أحيك مظهرا من مظاهر اللامعقولية ، شيئاً غير مفهوم مرتبطاً بكلمة "fahren"[2] لأننى كنت أضمر بين أفكار الحلم معنى لم يكن بد من تصويره . وبيان ذلك أنه حدث ذات مساء أنى كنت فى منزل سيدة كريمة عالية الذكاء — هى التى ظهرت فى صورة « مدبرة المنزل » فى أحد مشاهد هذا الحلم عينه — وهناك سمعت أحجيتين طلب منى أن أجد

---

(١) ["Umgekehrt ist auch Gefahren" (أى أن الركوب أو السوق الذى ينعكس اتجاهه فيصير إلى الخلف هو أيضا ركوب أو سوق) . تعبير نمسوى لطيف بمعنى : والعكس أيضا يصدق . والمراد هنا هو : لم يركب أخى تلك المسافة فى الحقيقة ، إذن أركبها أنا فى الحلم ، وكله ركوب برغم العكس .]

(٢) [إن كلمة "fahren" التى ترجمناها حتى الآن ترجمة منتظمة بكلمة " ركب " تعنى فى الحقيقة : ركب العربة أو ساقها أو ركب القطار أو سافر .]

حلهما . وكانت بقية الجماعة تعرف هاتين الأحجيتين ، فكان منظرى وأنا أحاول سدى العثور على الإجابة باعثاً على الضحك . وكانت الأحجيتان تقومان على تورية فى معنى كلمتى "Nachkommen" و "Vorfahren" ، وكان نصهما — فيما أعتقد — هو الآتى :

Der Herr befiehlt's,
Der Kutscher tut's.
Ein jeder hat's,
Im Grab ruht's.

[السيد يطلبه
الحوذى ينفذه .
الجميع يملكه
فى القبر مرقده .]

الجواب : "Vorfahren" [وهو فعل بمعنى « تقدم بعربته » واسم بمعنى « السلف » أو « المتقدمون ».]

وكان مما يبعث على الارتباك أن النصف الأول من الأحجية الثانية كان مشتركاً بينها وبين الأولى :

Der Herr befiehlt's
Der Kutscher tut's.
Nicht Jed r hat's
Im der Wiege ruht's

[السيد يطلبه
الحوذى ينفذه .
ليس الكل يملكه
فى المهد مرقده .]

الجواب : "Nachkomm n" [ويعنى « تبع » وأيضاً « الخلف » أو « الذرية » أو « اللاحقون ».]

فلما رأيت الكونت تون تتقدم عربته على هذا النحو الفخم وتولانى عندئذ مزاج فيجارو بملاحظته عن طيبة السادة الذين كلفوا أنفسهم عناء المجىء إلى الحياة (أن يكونوا خلفا) ، اقتبس عمل الحلم هاتين الأحجيتين متخذاً منهما فكرتين متوسطتين (١) .

(١) [التأدية من فكرتى النبلاء والحوذية من ناحية إلى فكرتى السلف والخلف من ناحية أخرى .]

وإذ كان من السهل أن نخلط بين النبلاء والحوذية [أو السائقين] وكان هناك زمان فى بلدنا كنا نسمى فيه الحوذى : "Herr Sehwager" ["Schwager" يعنى « صهر » أو على الأدق « أخ بالمصاهرة »] ، فقد وسع التكثيف أن يدرج أخى فى ذات الصورة . وكانت فكرة الحلم التى تعمل عملها وراء هذا كله هى الفكرة الآتية : إن من الخرق أن يتيه المرء بسلفه ، إنى أوثر أن أكون أنا نفسى سلفاً ورأس سلالة .

ومن أجل هذا الحكم : « إن كذا خرق » ظهر الخرق فى الحلم . وهكذا يحل آخر لغز فى تلك الفقرة المعتمة من الحلم : أنى تقدمت مع الحوزى [على تلك المسافة] ، أنى كنت متقدماً [أو سابقاً ، أى سلفاً] .

الحلم — إذن — يُجعل لا معقولا أو فاسداً إذا كان بين العناصر المتضمنة فى أفكار الحلم حكم فحواه : إن ذلك خرق ، أى إذا كان بين أفكار الحالم اللاشعورية فكرة دافعها النقد أو الزراية . واللامعقولية على ذلك أحد المناهج التى يتوسل بها عمل الحلم إلى تصوير التناقض بجانب المناهج الأخرى : كأن تقلب علاقة بين المواد عند الانتقال من أفكار الحلم إلى محتوى الحلم [ص ٣٣٦] أو مثل استخدام إحساس الحركة المكفوفة [ص ٣٤٦] . غير أن اللامعقولية فى الحلم لا تنبغى ترجمتها بـ « كلا » وحسب ، بل المراد من ورائها هو استعادة ما يصحب أفكار الحالم من حالة مزاجية تجمع النقد أو الزراية إلى جانب المناقضة . فإن جاء عمل الحلم بما يجلب الضحك فلهذا الغرض وحده ، أى أنه — هنا أيضاً — إنما يضفى صورة ظاهرة على محتوى الحلم الكامن[1] .

والحق أننا مررنا من قبل بمثال مقنع من حلم غير معقول كان له مثل هذا المعنى : الحلم الذى فسرته من غير حاجة إلى تحليل ، حلم أوپرا ڤاجنر التى طالت حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، وكانت الفرقة الموسيقية تقاد فيه من برج ، إلخ .

---

(١) وهكذا يسفه عمل الحلم الفكرة المعطاة له على أنها فكرة مضحكة بأن يخلق هو شيئاً مضحكاً فى صددها . ولقد نهج هينه نهجا شبيهاً بذلك حين أراد أن يسخر من الأشعار الغثة التى كان ينظمها ملك باڤاريا ، فقد صاغ تخريته فى شعر أغث منها وأردأ :

السيد لودڤيج شاعر فحل ، من الفحول
ما أن ينشد حتى يخر أبوللو على ركبتيه
ساجدا أمامه ، راجيا ، متضرعا إليـــه :
" كفى ، وإلا أصابنى مس من الجنون "

(أنظر ص٣٥١) . فقد كان واضحاً أن هذا الحلم كان يعنى : « إنه لعالم مخبول ومجتمع مجنون ؛ فمن استحق شيئاً لم ينله ، ويناله من كان فى غنى عنه » — وكانت الحالمة إذ ذاك تقارن بين حظها وحظ قريبتها . وما كان على الإطلاق بالاتفاق المحض أن جاءت أمثلتنا الأولى على اللامعقولية فى الحلم متعلقة بأب ميت ؛ فى أمثال هذه الحالات تجتمع الشروط الضرورية لخلق الأحلام اللامعقولية على نحو مثالى . فالسلطة التى خص بها الأب تثير نقد الأبناء منذ سن مبكرة ، ووطأة المطالب التى يقتضيها منهم تجعلهم يعيرون كل ضعف يبدو منه انتباها ؛ لكى يتخففوا . غير أن الخشوع البنوى الذى يغمر به الأب نفوسنا — وخاصة بعد مماته — يشحذ الرقابة التى تقف دون كل إفصاح شعورى عن مثل هذا النقد .

(٤)

وها هو ذا حلم آخر غير معقول يدور حول أب ميت :

تلقيت من مجلس البلدة التى ولدت فيها رسالة تتعلق بمبلغ يجب سداده ؛ فى سنة ١٨٥١ احتجزت المستشفى رجلا لنوبة كانت قد حلت به وهو فى منزلى . ويثير ذلك ضحكى : فأولا لم أكن ولدت سنة ١٨٥١ ، وثانياً فإن والدى الذى ربما كانت هذه الرسالة تتعلق به قد صار فى عداد الأموات . أذهب إلى والدى فى الحجرة المجاورة حيث كان يرقد فى سريره وأسأله الخبر ، ولشد ما يكون دهشى حين يتذكر أنه قد سكر مرة فى سنة ١٨٥١ وأن الأمر قد أدى إلى حبسه أو احتجازه ، وكان ذلك فى الوقت الذى كان يعمل فيه لحساب شركة ت . أسأله : « إذن السكر أيضاً كان من عاداتك ؟ هل تزوجت عقب ذلك ؟ » أجرى الحسبة فأذكر أننى ولدت فى سنة ١٨٥٦ ويلوح لى أن تلك هى السنة التى أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة .

إننا إذ نرى إمعان هذا الحلم فى نشر مظاهر لا معقوليته سوف نخلص فى ضوء المناقشة السابقة إلى أن هذا الإمعان لا يمكن إلا أن يكون دليلا على أن أفكار الحلم قد انطوت على مجادلة بلغت مبلغاً خاصاً من المرارة وشدة الانفعال . ونحن إذن لن نزيد إلا دهشاً حين نلحظ أن المجادلة قد دارت فى هذا الحلم علانية وأن والدى كان الهدف الصريح للسخرية ؛ فمثل هذه العلانية تبدو شيئاً يتناقض وفروضنا المتعلقة بأثر الرقابة فى عمل الحلم . ولكن هذا الغموض لا يلبث ينجلى حين نعلم أن الأب فى هذا المثال لم يكن يعدو أن يكون حجاباً وأن رحى المنازعة إنما تدور مع شخص آخر لا يظهر أثره فى الحلم إلا فى إشارة

مفردة . فبينما المألوف هو أن يدور الحلم حول التمرد فى وجه شخص آخر يستتر الأب من ورائه ، إذا العكس هو الصحيح هنا : فالأب رجل من قش قصد من ورائه إلى تغطية البعض ، وللحالم أن يتعرض على هذا النحو المكشوف لشخص يلقى منه فى العادة تنزيهاً لأنى أعلم علم اليقين أن والدى ليس الشخص المعنى حقيقة . وتبين لنا مناسبة الحلم أن الأمر كذلك ؛ فقد جاءنى هذا الحلم بعد أن سمعت أن زميلا يكبرنى ، كان حكمه يوضع فوق كل نقد ، قد أعرب عن استيائه ودهشه لأن أحد مرضاى قد شارف علاجه التحليلى السنة الخامسة[1] . والجمل الأولى من الحلم تشير من خلال قناع شفاف إلى تلك الحقيقة : وهى أن هذا الزميل كان قد أخذ على عاتقه بعض الزمن التبعات التى لم يعد والدى يستطيع القيام بها (المبلغ الواجب السداد ، دخول المستشفى) ، وأننى حين أخذت آصرة الصداقة بيننا فى الوهن صرت أرانى فريسة هذا الصراع العاطفى الذى ينشأ حقاً حين تسوء العلاقة بين الأب والأبن ؛ للموضع الذى يشغله الأب ولسالف مآثره . وإن أفكار الحلم لتحتج احتجاجاً مرا على ما ألام عليه من التلكؤ — وهو لوم يجئ أول الأمر فى صدد علاج هذا المريض ولكنه يمتد بعد ذلك إلى أمور أخرى : أيعرف شخصاً آخر يستطيع أن يسرع عنى ؟ ألا يعلم أن أمثال هذه الحالات — إذا تركنا علاجى — لا تجد لها برءاً وأنها تدوم أبد الحياة ؟ وما أربع سنوات أو خمس بالقياس إلى العمر بأجمعه ، خاصة أن عبء الحياة قد يسر على المريض فى خلال العلاج يسرا كبيراً ؟

وقد كان جزء كبير من طابع اللامعقولية فى هذا الحلم يرجع إلى أن جملا مستعارة من أنحاء شتى فى أفكار الحلم قد أجريت معاً من غير وصل أو واسطة . مثال ذلك جملة : « أذهب إليه فى الحجرة المجاورة . . . إلخ . » إنها تترك الموضوع الذى كانت تدور من حوله جمل الحلم السابقة لتستعيد الملابسات التى أعلمت فيها والدى بنبأ خطبتى دون سابق استشارته استعادة أمنية . وهذه الجملة ترمى — إذن — إلى تذكيرى بما أظهره الرجل الشيخ إذ ذاك من إيثار رفيع وتقارن مسلكه هذا بمسلك شخص آخر ، شخص جديد . وإنى لألحظ هنا أن الحلم قد استباح لنفسه هذه السخرية بالأب لأننى

---

(١) [ذلك هو المريض الذى يشير إليه فرويد فى رسائله إلى فليس (فرويد ١٩٥٠ أ) بحرف E ولقد وردت فى إحدى هذه الرسائل (الخطاب ١٢٦) إشارة إلى هذا الحلم . وفى الرسالة ١٣٣ أعلن فرويد انتهاء علاج هذا المريض بخاتمة مرضية .]

فى اعتراف كامل بسموه قد نصبته قدوة للآخرين ؛ فمن طبع الرقابة — كل رقابة — أن تُحل لك كذب الكلام فى المحظورات مؤثرة إياه على الحق صراحاً . فأما الجملة التالية — عن كونه تذكر أنه قد سكر مرة واحتجز من جرائها — فقد انقطع فيها كل ما يمت فى الحقيقة بسبب إلى والدى . وإنما المستتر وراءه فى هذا الموضع ماينيرت العظيم لا أقل — ماينيرت الذى قفوت أثره فى إجلال يعلو على الوصف والذى انقلب مسلكه إزائى — بعد فترة قصيرة من الرضى — إلى عداوة لا تقنع فيها . والحلم هنا يذكرنى بأن ما ينيرت — بنفسه — قد أخبرنى يوماً أن شبابه لم يخل من فترة اعتاد فيها أن يدمن على تخدير نفسه بالكلوروفورم ، وأنه اضطر من جراء ذلك إلى النزول بإحدى المصحات .

ويذكرنى الحلم أيضاً بحادثة أخرى تتصل بماينيرت سبقت وفاته بزمن قصير : فقد كانت دارت بيننا فى الصحف العلمية مناقشة حامية الوطيس حول موضوع الهستريا عند الرجال (وهو الأمر الذى كان هو ينكر وجوده) ، فلما زرته فى خلال العلة التى مات فيها واستفسرته عن صحته أفاض بعض الإفاضة فى الحديث عن حاله ثم اختتم حديثه بتلك الكلمات : « أتعلم ؟ لقد كنت دائماً حالة من أجمل حالات الهستريا عند الرجال . » وهكذا سلم ماينيرت — تسليما أرضانى وأدهشنى — بما أصر على إنكاره كل هذا الزمن الطويل . ولكن السبب الذى مكننى من أن أتخذ من أبى حجاباً يحجب ماينيرت فى هذا المشهد من الحلم لم يكن يرجع إلى شبه اكتشفته بين كلا الشخصين ، بل إلى كون المشهد كان تصويراً موجزاً — ولكنه تصوير واف — لجملة شرطية تضمنتها أفكار الحلم ، هذا هو نصها الكامل : طبعاً ، لو كنت خليفة أستاذ أو عميد ، ابنا لهذا أو لذاك ، لكنت يقيناً قد أسرعت عن ذلك . وهكذا جعلت من والدى فى الحلم عميداً وأستاذاً . ولكن أنكر ما اشتمل عليه هذا الحلم من وجوه اللامعقولية وأشده إزعاجاً يقوم فى معالجة تاريخ سنة ١٨٥١ الذى بدا لى لا يفترق من عام ١٨٥٦ كما لو كان فرق سنوات خمس أمراً لا يعتد به على الإطلاق . ولكن تلك على التحديد كانت إحدى أفكار الحلم التى كان يراد الإفصاح عنها ؛ فأربع سنوات أو خمس تلك هى مدة الزمن الذى حظيت فيه بتأييد الزميل الذى أشرت إليه من قبل ، وهى أيضاً مدة الزمن الذى تركت فيه خطيبتى تنتظر زواجنا ، ثم هى كانت بعد ذلك — بصدفة عارضة حرصت أفكار الحلم على استغلالها — مدة الزمن الذى جعلت فيه أطول مرضاى تحليلا ينتظر كامل شفائه .

فأفكار الحلم تسأل : « وما خمس سنوات ؟ إنها بقدر ما يعنيني الأمر ليست زمناً على الإطلاق ولا يحسب لها حساب . وإني لأملك وقتاً كافياً أمامي ، وسأنجح أخيراً في هذا كما نجحت من قبل في ذلك — وإن لم تصدقوا . » هذا ، ثم إن الرقم ٥١ في ذاته ، مستقلا عن رقم القرن، قد حتمه معنى آخر يتجه يقيناً في وجهة مخالفة ، ومن هنا كان مجيئه في الحلم مرات متكررة : ذلك أن الحادية والخمسين — فيما يبدو — سن مفعمة بالخطر في حياة الرجل، هي السن التي رأيت فيها كثيراً من الزملاء يقضون نحبهم ، وكان منهم زميل رقي بعد طول انتظار إلى منصب الأستاذية قبل موته بأيام معدودات [1].

(٥)

وها هو ذا حلم آخر فاسد يتلاعب بالأرقام :

هوجم أحد معارفي — وهو السيد م . — في مقال ما مهاجمة كان من رأينا جميعاً أنها بلغت حداً من العنف لا مبرر له . وكان المهاجم جوته نفسه — لا أقل . ومن الطبعي أن السيد م . قد سحقه هذا الهجوم . إنه يشتكي منه مر الاشتكاء إلى صحبة في إحدى الولائم ، بيد أن هذه المحنة الشخصية لم تنل شيئاً من إجلاله لجوته . أحاول أن ألقي بعض الضوء على المعطيات الزمنية التي بدت لي بعيدة عن الرجوح : لقد مات جوته عام ١٨٣٢ ، وطبعي أن هجومه هذا على السيد م . قد سبق هذا التاريخ ، ولا بد إذن أن السيد م . كان في ذلك الوقت شاباً في مقتبل الشباب . يلوح لي أن من الراجح أنه كان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره . غير أنني لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها ، بحيث تتبخر حسبتي وتستبهم . هذا وقد وردت تلك المهاجمة في مقال جوته المعروف عن الطبيعة .

إننا لن نلبث طويلا دون أن نجد السبيل إلى تبرير ما في هذا الحلم من البله . فالسيد م. الذي اتفقت لي معرفته بين صحبة في إحدى الولائم كان قد سألني منذ زمن غير بعيد أن أفحص أخاه لما بدا عليه من علامات الاضطراب العقلي الشللي . وكان السيد م. مصيباً فيما خمنه . وقد وقعت في خلال هذه الزيارة واقعة مؤسفة : ذلك أن المريض — لغير سبب مفهوم — قد أحرج أخاه في خلال الحديث بإشارة إلى حماقات شبابه . هذا وقد كنت سألت المريض عن السنة التي ولد فيها ، كما جعلته يقوم — عدة مرات — بجمع أعداد صغيرة لكي أمتحن ضعف ذاكرته . وأذكر بعد

(١) [تلك من غير شك — على حسب ملاحظة ستراشي — إشارة إلى نظرية فليس عن الدورات البيولوجية . فالرقم ٥١ = ٢٨ + ٢٣ وهما زمنا الدورتين المذكرة والمؤنثة .]

أنه كان لا يزال قادراً على القيام بها خير قيام . وهأنذا ألحظ أننى قد سلكت فى الحلم كما يسلك مشلول (لم أكن واثقاً من السنة التى نحن فيها) . وهناك جزء آخر من مادة الحلم اشتق من مصدر آخر حديث العهد : ذلك أن ناشراً لإحدى الصحف الطبية ، كانت تربطنى به علاقات المودة ، قد نشر نقداً جارحاً إلى أبعد الحدود ، نقداً « ساحقاً » ، لكتاب صديقى ف . [فليس] الأخير ، وكان صاحب هذا النقد معلقاً فى مقتبل الشباب ، ضعيف القدرة على الحكم ، وارتأيت أن لى حقاً فى التدخل ، فناقشت الناشر الحساب . فأعرب لى إعراباً حاراً عن أسفه لنشر هذا النقد ، ولكنه لم يشأ الوعد بعلاج المسألة ، فقطعت صلتى بالصحيفة ، ولكننى أعربت فى خطاب استقالتى عن أملى فى ألا تنال هذه الحادثة من علاقاتنا الشخصية . فأما المصدر الثالث للحلم فرواية كانت لا تزال حية فى ذهنى سمعتها من مريضة وهى تصف مرضاً عقلياً أصاب أخاها ، وكيف أخذته الآخذة وهو يصرخ : « أيتها الطبيعة ! أيتها الطبيعة ! » . ولقد اعتقد الأطباء أن النداء كان وليد قراءته مقالة جوته الرائعة ، وأنه — هذا النداء — كان يبين إلى أى حد أنهكت المريض قراآته فى الفلسفة الطبيعية . ولكننى — من ناحيتى — كنت أفضل التفكير فى المعنى الجنسى الذى تستخدم فيه كلمة « الطبيعة » عندنا حتى على ألسنة من هم أقل ثقافة . وكان أن فكرتى هذه لم تجد على الأقل ما يكذبها حين قطع الشاب العاثر أعضاءه التناسلية . وكان عمر المريض ثمانية عشر ربيعاً حين وليته تلك النوبة .

فإذا أضفت أن كتاب صديقى الذى لقى كل هذا النقد القاسى (لقد قال عنه معلق آخر : « إن المرء ليعجب أهو المجنون أم المؤلف ») كان يعالج موضوع المعطيات الزمنية للحياة ويبين أن عمر جوته رقم مضاعف لعدد [من الأيام] له قيمته البيولوجية ، سهل أن نفهم أننى كنت فى هذا الحلم أضع نفسى فى موضع صديقى . (أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية) . بيد أننى سلكت كما يسلك مشلول فجاء الحلم ركاماً من الأباطيل ، وهذا يعنى أن أفكار الحلم تقول على سبيل التهكم : « طبعاً ، إن صديقى هو المجنون ، هو الملتاث ؛ وأنتم العباقرة الأحسن علماً . وكيف يكون العكس ؟ » وهذا العكس يتمثل بعد ذلك بإسهاب فى محتوى الحلم : فجوته يهاجم شاباً فى مقتبل العمر — وهو شىء غير معقول — فى حين يستطيع اليوم يافع أن يقدح فى جوته — وهو الخالد —

وأنا أجرى الحساب ابتداء من سنة موت جوته ، فى حين أننى جعلت المشلول يحسب عمره ابتداء من سنة ميلاده .

غير أننى كنت قد أخذت من قبل فى تبيان أن الحلم إنما تحركه دوافع الأثرة دون غيرها [ص٢٨٢] ، وعلى ذلك فلا مفر من أن أبين كيف اتفق فى هذا الحلم أننى جعلت قضية صديقى قضيتى ووضعت نفسى فى موضعه . إن اقتناعى النقدى [بآراء صديقى] فى حياة اليقظة ليس سبباً كافياً . ولكن ها هى ذى قصة المريض ذى الثمانية عشر ربيعاً والتفسيرات المختلفة فى أمر ندائه « أيتها الطبيعة ! » ؛ فهذه إشارات إلى التعارض الذى أرانى فيه تجاه معظم الأطباء لما أعتقده من أن للأعصبة عللا جنسية . ولى إذن أن أحدث نفسى قائلا : هذا النوع من النقد الموجه إلى صديقك سوف تدور عليك دائرته يوماً ما ، لا بل أنت قد ذقته بالفعل إلى حد . وعلى ذلك يسعنا أن نضع « نحن » فى أفكار الحلم بدل « هو » : « نعم ، أنتم العقلاء ونحن المجانين » . وفى الحلم أثر يذكرنى فى وضوح كبير بأننى « ما أهاجتنى سوى أشجانى »[1] ، هذا الأثر المذكّر هو تلك الإشارة إلى مقالة جوته الجميلة جمالا لا يعدله جمال[2] : ذلك أننى سمعت هذه المقالة تقرأ بصوت عال فى محاضرة عامة وكنت قد فرغت من الدراسة الثانوية حائراً لا أدرى ماذا أكون ، فكان هذا السماع دافعى إلى دراسة العلوم الطبيعية .

(٦)

وهناك حلم آخر كنت قد شرعت أبين فى صفحات سابقة من هذا الكتاب أنه كان حلماً أنانياً وإن لم يظهر فيه أنانى . فقد رويت فى ص٢٨٤ حلماً قصيراً كان مؤداه أن الأستاذ م. يقول : « يا بنى ، قصير النظر . . . » ثم قلت إن هذا الحلم لم يكن إلا مقدمة لحلم آخر كان لى فيه نصيب . وها هو ذا الحلم الرئيس الباقى الذى يطالعنا بصيغة لفظية غير معقولة ولامفهومة ، يحتاج أمرها إلى بعض الإيضاح :

---

(١) [“mea res agitur”]

(٢) [هذا المقال يتألف من مجموعة من الخواطر الشعرية الفلسفية كتبها جوته حوالى عام ١٧٨٠ ثم بعث بها إلى الدوقة آنا آماليا . فلما ماتت هذه بعد ذلك بثلاثين عاما ووقعت بين يدى جوته رسالته استطاع أن يعرف فيها أثراً من آثار شبابه .]

وقعت فى مدينة روما أحداث اقتضت نقل الأطفال إلى مكان أمين – وهو عمل تم. يجرى المشهب أمام أحد مداخل المدينة ، مدخل ذى بابين على الطراز القديم (هو « الباب الرومانى » الذى فى مدينة سيينا – كما وعيته فى الحلم نفسه) . أجلس على حافة إحدى النوافير وأنا شديد الاكتئاب أكاد أبكى . يقبل شخص مؤنث – وصيفة أو راهبة – وتحضر معها طفلين وتسلمهما إلى أبيهما – وكان شخصاً آخر عدای. الولد الأكبر هو من غير شك ابنى الأكبر ، لست أدرى وجه الآخر . تسأل المرأة التى أحضرت الطفل قبلة وداع منه . إن لها أنفاً أحمر يلفت النظر . يأبى الولد أن يقبلها ، ولكنه يقول لها وهو يمسك يدها مودعاً : Auf Geseres ، ثم يقول لنا كلينا (أو لأحدنا) : Auf Ungeseres. يدور بذهنى أن هذه العبارة الأخيرة تفيد التفضيل .

لقد بنى هذا الحلم على حزمة مختلطة من الأفكار أثارتها مسرحية شهدتها ، كان عنوانها : « الجيتو الجديد » . ومن السهل أن نرى أن للمشكلة اليهودية مكانها بين أفكار هذا الحلم : قلق المرء على أبنائه الذين لا يستطيع أن يوفر لهم وطناً يكون وطنهم ، القلق من أجل تعليمهم التعليم الذى يمكنهم من أن ينتقلوا عبر الحدود أحرارا .

« على أنهار بابل، هناك جلسنا وبكينا[1] . » – إن سيينا – مثل روما– قد عرفت بنافوراتها الجميلة ولم يكن بد من أن أورد مكاناً أعرفه يحل فى الحلم محل روما [التى لم أكن رأيتها بعد] (أنظر ص٢١٣) . ولقد كنا رأينا بالقرب من الباب الرومانى فى سيينا بناء ضخماً علمنا أنه المارستان . وكنت قد سمعت قبل هذا الحلم بوقت قصير أن رجلا من ديانتى قد اضطر إلى التخلى عن المنصب الذى بلغه بعد عناء كبير فى مارستان حكومى .

وتثير اهتمامنا عبارة : Auf Goseres التى تجىء فى موقف من الحلم كان المرء يتوقع فيه : Auf Wiedersehen [إلى اللقاء] ، كما يثيره ضدها الخالى من كل معنى : Auf Ungeseres .

إن Geseres – على ما علمته من بعض اللغويين – كلمة عبرية خالصة ، مشتقة من فعل goiser ، وأحسن ترجمة لها هى : « الألم المحتوم » أو « القضاء » . ويحدونا استخدامها فى اللغة العامية إلى أن نظن أنها تعنى « البكاء والعويل » . فأما Ungeseres فمصطلح جديد من عندى ، وقد كانت هى أسبق الكلمتين إلى جذب

---

(١) [« على أنهار بابل ، هناك جلسنا وبكينا ، عندما تذكرنا صهيون » . مطلع المزمار ١٣٩ ، وهو من مراثى اليهود المسبيين فى بابل، والترجمة الموردة هنا موضوعة عن النص اللاتينى مباشرة ؛ لأن الترجمة البروتستانتية المعروفة تختلف اختلافا لا تصلح معه للاقتباس فى هذا الموضع .]

انتباهى ، ولكننى وقد بدأت بها لم أستطع الخروج منها بشىء . غير أن الملاحظة القصيرة التى جاءت فى ختام الحلم بما معناه أن Ungeseres تفيد التفضيل قد فتحت الطريق إلى المستدعيات ، ومن ثم إلى فهم الكلمة . إننا نجد علاقة مماثلة فيما يتصل بالكاڤيار : فالكاڤيار غير المملح [ungesalzen] يفضل على الكاڤيار المملح [gesalzene] . كاڤيار للشعب ، « المشاعر النبيلة » : ههنا تكمن إشارة مازحة إلى عضو من أعضاء أسرتى آمل منها — وهى التى تصغرنى سناً — أن تعنى بأبنائى فى مستقبل الأيام . ويتفق وذلك أن عضواً آخر من أعضاء أسرتى — وهو مربيتنا العظيمة — قد صورت فى الحلم تصويراً لا يخطئ فى شخص الوصيفة (أو الراهبة) . ولكن هذا كله لا يرينا بعد أى فكرة توسطت بين الزوجين : « gesalzen - ungesalzen » و « Geseres - Ungeseres, » . إن الواسطة هى « gesaüret - ungesaüret » [مختمر — غير مختمر] ؛ فأبناء إسرائيل إذ فروا من مصر معجلين لم يجدوا متسعاً من الوقت لكى يخمر عجينهم ، وإنهم إلى يومنا هذا ليأكلون الخبز فى عيد الفصح غير مختمر ؛ تذكاراً . وهأنذا أذكر الآن فجأة كيف كنا — صديقى الذى من برلين وأنا — نسير فى عيد الفصح فى برسلاو — وهى مدينة كنا فيها غرباء — وإذا فتاة تسألنى الطريق إلى أحد الشوارع ، فلم أجد إلا أن أعترف لها بجهلى ، ثم عقبت أحدث صديقى : « أرجو لهذه الفتاة حين تتقدم بها السن أن تبدى مزيداً من التمييز فى اختيار الناس الذين تكل إليهم إرشادها . » ثم لمحت عقب ذلك لافتة كتب عليها : الدكتور هيرودوس مواعيد الزيارة . . . فعقبت قائلا : « أرجو ألا يكون زميلنا بالصدفة طبيب أطفال . »[1] وكان صديقى يحدثنى فى هذه الأثناء عن ظاهرة التوازن بين الجانبين ، وكان قد بدأ إحدى جمله بهذه العبارة : « لو أننا لم نكن نملك إلا عيناً واحدة فى وسط الجبهة مثل السيكلوب [Zyklop] . . » وهذا يؤدى بى إلى قول الأستاذ فى الحلم التمهيدى : « يا بنى ، قصير النظر [Myop] . » والآن أتوصل إلى المصدر الرئيس لكلمة « Geseres » : ذلك أنه حدث منذ سنوات متعددة حين كان ابن الاستاذ م . — وهو اليوم مفكر مستقل — لا يزال بمقعد الدراسة ، أنه أصيب

---

(١) [إشارة إلى ما هو معروف من أن هيرودوس الملك كان قد اعتزم أن يهلك الطفل يسوع ، فلما لم يجده غضب " وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون " . إنجيل متى ، الإصحاح الثانى .]

بمرض فى عينيه قال الطبيب : إنه يدعو إلى التخوف ، وأوضح أن الأمر يظل خالياً من الأهمية ما دام المرض مقصوراً على جانب واحد ، ولكنه يصبح خطراً إذا امتد إلى العين الأخرى . وحدث أن العين برأت برءاً تاماً ، ولكن ظهرت أعراض تدل على أن العين الأخرى قد أصيبت . وهلعت الأم فأرسلت على الفور فى طلب الطبيب إلى مقامهم النائى فى الريف . ولكن الطبيب أخذ الآن جانباً آخر ، وصاح فى وجه الأم : « ولم كل هذا العويل [Geseres] ؟ ما دام أحد الجانبين قد برئ فسيبرأ الآخر كذلك . » وهكذا كان .

ولا بد الآن من أن نبحث صلة هذا كله بى وبأسرتى : إن المقعد الدراسى الذى تلقى عليه ابن الأستاذ م. أول حظه من المعرفة قد انتقلت ملكيته فيما بعد إلى ابنى الأكبر الذى وضعت على لسانه كلمات الوداع فى الحلم ؛ فقد أهدت المقعد إليه أم الغلام . ومن السهل أن نحذر إحدى الرغبات التى أثارها ذلك الانتقال . بيد أن هذا المقعد كان أيضاً قد صنع بحيث يقى الطفل من أن يصبح ضعيف النظر أو مبصراً بعين واحدة . ومن هنا كان ظهور "Myop" (ومن ورائها « Zyklop ») فى الحلم ، وكانت الإشارة إلى التوازن بين الجانبين . ولقد كانت خيفتى من وحدانية الجانب تحمل أكثر من معنى : فهى لم تكن تشير إلى وحدانية الجانب بالمعنى البدنى وحسب ، بل كانت تشير كذلك إلى النظر فى الأمور من جانب واحد فيما يتصل بالتطور العقلى . أفلا يمكن أن يكون هذا التخوف على التحديد هو ما أراد الحلم دفعه بطريقته غير المعقولة ؟ فبعد أن استدار الغلام إلى أحد الجانبين ليلقى كلمات الوداع ، استدار إلى الجانب الآخر ليقول الضد ، كأنما كان يريد إعادة التوازن : إنه يسلك كما لو كان يولى التوازن بين الجانبين العناية التى تنبغى .

وهكذا تكون الأحلام فى كثير من الأحيان أعمق ما تكون حتى لا يبدو منها غير الجنون . وفى كل عصر من عصور التاريخ كان أولئك الذين يملكون شيئاً يقولونه دون أن يملكوا قوله آمنين يرتدون مسوح المجانين ؛ فالتسامح يهون على السامع الذى يتجه إليه مقالهم المحرم إن هو مُكِّن من الضحك ومن أن يتملق نفسه ظناً منه أن هذه الكلمات غير المستحبة ليست إلا هراء جلياً . وما يسلك الحلم فى الحقيقة إلا كما يسلك فى الرواية

الأمير وهو يلجأ إلى التقنع بثوب من الجنون ، حتى ليسعنا أن نقول عن الحلم ما يقوله هاملت عن نفسه وهو يخفى حقيقة حاله تحت رداء من التنكيت والاستعجام : « ولست بالمجنون إلا والريح مشمالة ، شمالا بغرب ، فإن أجنبت عرفت الباز من البلشون »[1].

وهكذا أكون قد انتهيت إلى حل مشكلة اللامعقولية فى الحلم على هذا النحو : إن أفكار الحلم لا تكون أبداً أباطيل — أو لا تكون كذلك فى أحلام الأصحاء على الأقل — وإن عمل الحلم إنما تحدث عنه أحلام لا معقولة أو أحلام مشتملة على عناصر لامعقولة إذا كان بين أفكار الحلم نقد أو سخرية أو استخفاف تدعو الضرورة إلى تصويرها . ومهمتى الآتية هى أن أبين أن عمل الحلم إنما يقوم فى فعل العوامل الثلاثة التى ذكرتها مجتمعة — مع عامل رابع لما أذكره — وأنه لا يفعل شيئاً آخر سوى ترجمة أفكار الحلم وفاقاً لهذه الشروط الأربعة ، وأن السؤال هل تعمل النفس فى أثناء الحلم بكل قواها العقلية أو بجزء منها سؤال خاطئ الصياغة ، يغفل الوقائع . بيد أن هناك أحلاماً كثيرة يعرض فيها الحكم والنقد والمعرفة ، أحلاماً يعجب فيها المرء لعنصر من عناصر الحلم ويحاول التعليل ويشرع فى المحاجة . لهذا لا أجد مفراً من مواجهة الاعتراضات المبنية على أمثال هذه الوقائع ، وذلك بإيراد بعض الأمثلة المختارة .

وسيكون الجواب الذى أخلص إليه هو هذا : إن كل ما يخطر فى الحلم فى صورة نشاط ظاهره أنه صادر عن وظيفة الحكم يجب ألا يعد نتاجاً عقلياً حققه عمل الحلم ، بل الواجب أن نعتبره منتميا إلى مادة أفكار الحلم ، ومنها انتقل إلى محتوى الحلم الظاهر كشىء جاهز الصنع من قبل . بل إن فى وسعى أن أمد هذه القضية إلى أبعد من ذلك : فالأحكام التى يصدرها المرء عقب اليقظة فى صدد حلم تذكره ، والمشاعر التى تنبعث فى

(١) [هاملت : المشهد الثانى من الفصل الثانى . بيت من الأبيات الشكسبيرية التى تتعذر ترجمتها لشدة ما فيها من "التكثيف" . ويكفى أن نشير إلى أن التمييز بين هذين الطائرين يصبح عسيرا كل العسر — فيما يقال — إذا أخذت الريح هذا الاتجاه ؛ فالمعنى المراد من البيت والذى من أجله كان الاستشهاد به هو : إن كنت مجنونا فلنفرض ، فإن جد الجد لم يكن مثلى تمييزا .] إن هذا الحلم يزودنا أيضا بمثال جيد على قضية أخرى شاملة الصدق : إن جميع الأحلام التى تقع فى خلال الليلة الواحدة تنبت من تربة فكرية واحدة ، ولو تذكرناها متفرقة . وأذكر بعد أن الموقف الذى ورد فى الحلم عن الفرار بأبنائى من مدينة روما قد شوه بربطه بحادث مماثل وقع فى طفولتى . والمعنى هو : أننى أحسد بعض أقاربى ممن سنحت لهم الفرصة بأن ينقلوا أبناءهم منذ سنوات متعددة إلى بلد آخر .

نفسه عند استحضار هذا الحلم ، كل هذه أيضاً تكون إلى حد كبير جزءاً من المحتوى الكامن للحلم ، ومن الواجب إدراجها فى تفسيره .

(١) لقد ذكرت من قبل مثالا على ذلك يستلفت النظر : امرأة تأبى أن تذكر حلمها لأنه « لم يكن واضحاً الوضوح الكافى » ؛ فهى قد رأت البعض فى الحلم ولكنها لا تعلم أزوجها هو أم أبوها . ثم أعقبت ذلك فقرة ثانية من الحلم ورد فيها ذكر مزبلة ، وهو ما يسوقها إلى تلك الذكرى : حدث ذات مرة وهى زوجة حديثة العهد بأعمال ربة المنزل أنها قالت مازحة فى محضر قريبة شابة من قريباتها : إن أول ما ستعنى به سيكون شراء « مزبلة » جديدة ، فلما جاء اليوم التالى إذا واحدة تُهدى إليها ، ولكنها كانت مليئة بالسوسن . وقد كان هذا الجزء من الحلم يفيد فى تصوير ذلك التعبير [الألمانى] الدارج : « ما نما ذلك من زبلى[1] » . ولما تم تحليل الحلم تبين أن أفكار الحلم كانت تدور حول الأثر البعدى الذى كان لقصة سمعتها الحالمة فى حداثتها عن فتاة ولدت ولداً لم يتضح من هو أبوه . ومن هذا نرى أن تصوير الحلم قد امتد فى ذلك المثال إلى أفكار اليقظة تاركاً أحد عناصر أفكار الحلم يتمثل فى صورة حكم مستيقظ أطلق على الحلم فى مجموعة .

(٢) وها هى ذى حالة ثانية مماثلة : حلم أحد مرضاى حلماً لاح له ذا أهمية ؛ لأنه لم يكد يستيقظ حتى حدث نفسه قائلا : [2] لا بد من أن أتحدث إلى الطبيب بذلك . وحلل الحلم فانبعثت إشارات من أوضح ما يكون إلى صلة جنسية بدأها الحالم فى خلال علاجه وعقد العزم على ألا يحدثنى بها .

(٣) ثم ها هو ذا مثال ثالث أنتخبه من بين أحلامى : كنت ذاهباً إلى المستشفى برفقة صديق ب . مارين بمنطقة انتشرت فيها المنازل والبساتين . وفى هذه الأثناء كانت تدور بخلدى فكرة مؤداها أننى قد رأيت تلك المنطقة مراراً من قبل فى الأحلام . لم أكن أعرف الطريق معرفة طيبة . أرانى ب . شارعاً ينتهى بمطعم على ناصيته (وكانت قاعة الطعام فى الداخل لا فى حديقته) . أسأل هناك عن السيدة دونى ، فيقال لى :

---

(١) [« الزبل » هو ما تصلح به الأرض أو « السباخ » ، والمراد بالمزبلة — عدا معناها الشائع — هو ما يوضع فيه الزبل . والتعبير الألمانى المشار إليه معناه : « لست مسئولا عن ذلك » أو « لست أعترف بهذا الولد ».]

(٢) إذا جاء فى خلال العلاج التحليلى حلم يحدث فيه الحالم نفسه قائلا : « لا بد من أن أخبر الطبيب بذلك » فمعنى هذا أن هناك مقاومة شديدة فى وجه الإفضاء بهذا الحلم ولا يندر عندئذ أن يؤدى ذلك إلى نسيانه .

إنها تسكن مع ثلاثة أطفال فى حجرة صغيرة خلفية . أسير إلى تلك الحجرة ، ولكننى – قبل أن أصل إليها – ألتقى بشخص غير متميز تصحبه ابنتاى الصغيرتان . آخذهما معى بعد أن أمكث معهما برهة قصيرة . يدور بخاطرى شىء يشبه اللوم أوجهه إلى زوجتى لكونها تركت الفتاتين هناك .

فلما استيقظت شعرت برضا كبير علته بأننى كنت وشيكاً أن أعلم من تحليل هذا الحلم معنى : قد حلمت بذلك من قبل .[1] ولكن الواقع أن التحليل لم يعلمنى شيئاً من هذا القبيل . وإنما الذى تبين لى منه حقيقة هو أن الشعور بالرضا كان يرجع إلى أفكار الحلم الكامنة ولم يكن يرجع بحال من الأحوال إلى حكم من الأحكام عليه : إنه كان الرضى لأن زواجى قد أعقب . ذلك أن ب . شخص سايرت حياته حياتى زمناً ثم بعد ذلك سبقنى مسافات من الناحيتين الاجتماعية والمادية ، ولكنه ظل لا ينجب من زواجه خلفاً . وإن مناسبتى الحلم لكافيتان فى الدلالة على معناه دون حاجة إلى أن نسوق تحليله كاملا . فقد حدث فى اليوم الذى سبق الحلم أننى قرأت فى إحدى الصحف نبأ وفاة السيدة دونا أ . . . ى (وهو الاسم الذى حرفته فى الحلم إلى دونى) ، وكانت وفاتها فى أثناء الوضع . وسمعت من زوجى أن القابلة التى كانت تعنى بالمتوفاة هى هى التى عنيت بزو ى عند ولادة طفلينا الأصغرين . وكان اسم دونا قد استوقفنى لأننى كنت – منذ قريب – قد صادفته للمرة الأولى فى رواية إنجليزية . فأما المناسبة الثانية للحلم فكانت تاريخ وقوعه : فقد وقع الحلم فى الليلة التى سبقت عيد ميلاد ابنى الأكبر الذى يبدو على بعض الموهبة الشعرية .

(٤) ولقد تركنى وأنا أستشعر هذا الرضا عينه ذلك الحلم غير المعقول الذى دار حول أبى وما كان له من مشاركة سياسية فى حياة المجريين ، وعللت لنفسى هذا الشعور بأنه كان امتداداً للشعور الذى صحب الجزء الأخير من الحلم [أنظر ص ٤٢٧] : (تذكرت كيف كان والدى وهو على فراش موته شديد الشبه بجاريبالدى وشعرت بالسرور لأن ذلك قد تحقق ... (يعقب ذلك جزء منسى) . لقد مكننى التحليل من أن أملأ تلك الثغرة فى الحلم . فقد ورد فيها ذكر ابنى الثانى الذى أطلقت عليه اسم شخصية من عظماء التاريخ [كروميل] اجتذبتنى اجتذاباً شديداً فى صباى وبخاصة منذ أن

---

(١) لقد كان هذا الموضوع مثار مناقشة مستفيضة دارت فى السنوات الأخيرة على صفحات " المجلة الفلسفية " تحت عنوان : " التذكر المشوه فى الأحلام " .

زرت إنجلترا ، وكنت قد انتويت فى خلال السنة التى سبقت مولد الطفل أن أطلق عليه هذا الاسم إن جاء المولود ذكراً ، وكان أن جاء كذلك فخلعت عليه الاسم وأنا أشعر برضا عظيم . ومن السهل أن نلحظ كيف ينتقل جنون العظمة عند الآباء إلى تفكيرهم فى أبنائهم ، وتلك فى أغلب الظن إحدى الطرق التى يتم بها قمع هذا الشعور — وهو قمع تجعل منه الحياة الواقعة ضرورة لا مفر منها . فأما الحق الذى خول لابنى الصغير أن يظهر فى محيط هذا الحلم ، فكان مستمدا من كونه قد وقع إذ ذاك فى تلك العثرة التى تسهل مغفرتها للطفل وللرجل على سرير الموت ، وأعنى بها توسيخ الفراش — قارن هنا بين "Stuhlrichter" وبين الرغبة التى يعرب عنها الحلم فى أن يقف المرء عظيماً طاهراً فى أعين أبنائه . [ارجع إلى ص ٤٢٩ .]

(٥) وأتحول الآن إلى النظر فى الأحكام التى تطلق فى أثناء الحلم نفسه ولكنها لا تتابع حتى حياة اليقظة أو تنقل إليها . وتسهل مهمة البحث عن الأمثلة على ذلك إلى درجة كبيرة إذا التجأت إلى الأحلام التى سقتها من قبل لغايات أخرى . خذ حلم « حوته يهاجم السيد م . » إنه يبدو مشتملا على طائفة من أفعال الحكم ، مثل : « أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية التى تبدو لى بعيدة عن الرجوح » . ألا يبدو ذلك نقداً موجهاً إلى تلك الفكرة الفاسدة ، وأعنى بها أن جوته قد شن هجوماً أدبياً على شاب من معارفى ؟ ثم تلك الجملة : « يلوح لى أن من الراجح أنه كان إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره » ، إنها تبدو وليدة عملية حسابية وإن يكن الحساب — والحق يقال — حساب أبله . وأخيراً فإن قول الحلم : « لم أكن واثقاً من السنة التى نحن فيها » قد يبدو مثالا على التردد أو الشك يعرض فى الحلم .

ومع هذا فإنا نعلم من التحليل أن تلك القضايا الذى تبدو فى صورة أفعال حكم تطلق فى الحلم للمرة الأولى يمكن أن يفهم منطوقها فهماً آخر تغدو فى ضوئه لازمة كل اللزوم من أجل تفسير الحلم فى حين يرتفع عنها فى الوقت نفسه كل أثر من اللامعقولية . فجملة : « أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية » كانت تضعنى فى مكان صديقى [فليس] الذى كان يسعى فى الحقيقة إلى إلقاء الضوء على المعطيات الزمنية للحياة . وهكذا تفقد الجملة معنى الحكم يحتج على فساد القضايا السابقة . فأما جملة الصلة : « التى تبدو لى بعيدة عن الرجوح » فترتبط بتاليتها : « يلوح لى أن من الراجح » ؛

فتلك على التقريب هى الكلمات التى كنت استخدمتها فى حديثى إلى السيدة التى قصت على كيف جن أخوها ، قلت لها : « إنه ليبدو لى أمراً بعيدا عن الرجوح أن يكون لندائه أيتها الطبيعة ! أيتها الطبيعة ! ، أدنى علاقة بجوته ، وإنما الذى يلوح لى أرجح من ذلك كثيراً هو أن يكون لتلك الكلمات معنى جنسى تعرفينه . » و صحيح أننى قد أطلقت هنا حكماً ، ولكننى لم أطلقه فى الحلم بل فى الواقع ، وفى مناسبة رجعت إليها أفكار الحلم بالذكرى واستغلتها . ثم جاء محتوى الحلم فاستحوذ على هذا الحكم كما يستحوذ على أية نبذة أخرى من فكر الحلم .

وكذلك الرقم ١٨ الذى ارتبط به الحكم الذى أطلق فى الحلم دون أن يكون لذلك معنى ما ، إنه ليحتفظ بأثر من السياق الحقيقى الذى انتزع منه الحكم . فأما جملة : « لم أكن واثقاً من السنة التى نحن فيها » فلم تكن — أخيرا — تعرب عن شىء سوى تعيينى بالمريض المشلول الذى أثيرت تلك النقطة بالفعل فى خلال فحصه .

إن حل أفعال الحكم الظاهرة فى الحلم قد يذكر المرء بالقواعد الأساسية التى نص عليها فى مبتدأ هذا الكتاب فيما يتصل بالقيام بعملية التفسير . فقد قلنا : إن من الواجب أن نترك الاتساق الظاهر بين مقومات الحلم كما نترك وهما لا حقيقة له وأن نتأثر مصدر كل عنصر من عناصر الحلم فى ذاته . فما الحلم إلا حزمة يقتضى البحث تفكيكها أجزاء من جديد . غير أننا قد نلحظ من جهة أخرى أن هناك قوة نفسية تعمل عملها فى الحلم ، هى التى تخلق هذا الترابط الظاهر ، قوة تخضع المادة الناجمة عن عمل الحلم لمراجعة ثانوية . وههنا نرانا نواجه تلك القوة الرابعة التى سوف نزن فيما بعد أهميتها باعتبارها رابعة العوامل المشتركة فى تكوين الحلم .

(٦) وها هو ذا مثال آخر على عملية من عمليات الحكم حدث فى حلم ذكرته من قبل : فى الحلم غير المعقول الذى جاء فيه أننى تلقيت رسالة من المجلس البلدى [ص٤٣٥] أرانى أسأل أبى : « وهل تزوجت عقب ذلك مباشرة ؟ » أجرى الحسبة فأذكر أننى ولدت فى سنة ١٨٥٦ ويلوح لى أن تلك هى السنة التى أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة . وكل هذا قد ألبس صورة الاستدلال : تزوج أبى سنة ١٨٥١ بعد النوبة المشار إليها ، وأنا — يقينا — أكبر أبناء الأسره ، مولود سنة ١٨٥٦ ، ويلزم — إذن — أن سنة ١٨٥٦ هى السنة التى أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة . وهذه النتيجة الكاذبة قد استخلصت — كما نعلم —

وفقاً لمقاصد تحقيق الرغبة ؛ فقد كانت الفكرة المسيطرة على الحلم هى الآتية : إن أربع سنوات أو خمس ليست زمناً على الإطلاق ، ولا يحسب لها حساب . بيد أن كل خطوة من خطوات هذا الاستدلال كانت محتومة أيضاً بأفكار الحلم من حيث المحتوى ومن حيث الصورة على السواء ، فالمريض الذى ضاق زميلى بطول علاجة هو الذى كان قد عقد العزم على الزواج عقب الفراغ من العلاج . ثم إن الطريقة التى تحدثت بها إلى والدى كانت تذكر باستجواب أو بامتحان وإنها لتذكرنى بأستاذ فى الجامعة كان من عادته أن يدون معلومات مستفيضة عن كل طالب يسجل اسمه للاستماع فى محاضراته : « تاريخ الميلاد ؟ » — « ١٨٥٦ » — « اسم الأب ؟ » — وهنا كان على الطالب أن يجيب بذكر اسم أبيه منتهياً بنهاية لاتينية ، وكنا نحن معشر الطلبة نقدر أن الأستاذ كان يستنتج من اسم الأب نتائج لا يتسنى دائماً استنتاجها من اسم الطالب نفسه . وهكذا لم يكن الاستنتاج فى الحلم إلا ترديداً للاستنتاج الذى يظهر بين أفكار الحلم كجزء من مادتها . وفى هذا ما يطالعنا بجديد : إذا وردت فى محتوى الحلم نتيجة ، فلا جدال فى أن تلك النتيجة مستمدة من أفكار الحلم . غير أن هذه النتيجة قد تكون داخلة فى هذه الأفكار كجزء من مادتها المتذكرة أو هى قد تصل ما بين سلسلة من أفكار الحلم باعتبارها رابطة منطقية . وفى كلتا الحالتين تمثل النتيجة فى الحلم نتيجة فى أفكار الحلم[1] .

ونعود فنستأنف تفسير هذا الحلم : إن استجواب الأستاذ يسوقنى إلى تذكر سجل الطلبة بالجامعة — وكان فى أيامى يملأ باللغة اللاتنية — ثم إلى ذكرى دراستى الجامعية : إن السنوات الخمس المقررة لدراسة الطب كانت هى الأخرى تقل عما يلزمنى ؛ فقد سرت فى العمل وئيداً وأبطأت بعد السنوات الخمس ستوات . وعدنى معارفى شخصاً متعطلا وتشككوا فى أن أفرغ يوماً مما أخذت فيه . وعندئذ قررت على عجل أن أتقدم للامتحان وأن أجتازه رغم التأخير . وفى هذا معزز جديد لأفكار الحلم التى كنت أواجه بها نقادى متحدياً إياهم : « سأفرغ مما بدأت ، وإلى نتيجة سأنتهى ، وإن لم تصدقوا لما ترونه من تمهلى . وكم انقلبت الأمور من قبل هذا المنقلب . »

(١) إن هذه الاكتشافات تصحح من بعض النواحى ما ذكرته من قبل (ص٣٢٣) عن تصوير العلاقات المنطقية فى الحلم . فكلامى هناك يصف مسلك عمل الحلم بوجه عام ، دون أن يحسب حساباً لبعض مظاهر نشاطه التى تفوق غيرها دقة واعتناء .

ولقد حوى هذا الحلم فى مطلعه جملة من القضايا لا يكاد يستطيع المرء أن يأبى عليها اسم الحجة . بل هى لم تكن بالحجة المجافية للمعقول ، بل قد كان يمكن أن تصدر عن الفكر المستيقظ : أضحك فى الحلم لتلك الرسالة التى يرسلها إلى المجلس البلدى ؛ فأولا لم أكن حثت إلى الدنيا بعد فى سنة ١٨٥١ ، وثانياً فإن والدى الذى ربما كانت هذه الرسالة متعلقة به قد صار فى عداد الموتى . إن كلا من هاتين القضيتين لم تكن صحيحة وحسب ، بل هى تتفق كل الاتفاق والحجج التى ما كنت أتردد فى إطلاقها لو قد تلقيت مثل هذه الرسالة حقيقة . ولقد تبين من التحليل الذى سبق (ص٤٣٥) أن هذا الحلم قد صدر عن أفكار حلمية شديدة المرارة ، مشربة بالزراية . فإذا فرضنا بعد ذلك أن دوافع الرقابة كانت بالغة الشدة ، أمكن أن نفهم أن عمل الحلم قد دعته كل الدواعى إلى أن يخلق نقضاً لا خلل فيه لفكرة غير معقولة على المنوال المتضمن فى أفكار الحلم . غير أن التحليل يرينا أن عمل الحلم — هنا أيضاً — لم يكن مطلق الخيار فى أن يخلق خلقه كيفما شاء ، بل كان مضطرا — لبلوغ غرضه — إلى أن يستخدم مادة مستمدة من أفكار الحلم . فالأمر أشبه بمعادلة جبرية حوت — بالإضافة إلى الأعداد — علامات على الزائد والناقص وعلى الأسس والجذور ، ثم جاء البعض يريد نسخ المعادلة وهو لا يفهمها ، فنقل علامات العمليات ونقل الأرقام ، لم يترك شيئاً ، لكنه خلطها خلطاً . فالحجتان المشار إليهما يمكن تأثرهما إلى المادة الآتية : إنه لأمر يمضنى أن أرى أن من شأن بعض المسلمات التى تنبنى عليها حلولى السيكولوجية لمشكلة الأعصبة أن تثير الشك والضحك حين تعرف للمرة الأولى . مثال ذلك أننى لا أجد مهرباً من القول بأن انطباعات ترجع إلى السنة الثانية — بل إلى السنة الأولى أحياناً — قد تركت أثراً لا يمحى فى الحياة الانفعالية لمن قدر لهم المرض فيما بعد ، وبأن هذه الانطباعات — وإن شوهتها الذاكرة وحسمتها على أكثر من نحو — قد تكون أول أسس الأمراض الهستيرية وأعمقها . وكان من عادة المرضى الذين أشرح لهم ذلك فى موضعه المناسب أن يطلقوا العنان لسخريتهم من المعرفة الجديدة ، معلنين استعدادهم لأن يبحثوا عن ذكريات ترجع إلى زمن ما قبل الولادة . وكان اكتشافى لما يؤديه الأب من دور لا يطرأ على البال فى بواكير الدفعات الجنسية عند النساء المريضات يُقَابَل — كما كنت أتوقع — بترحيب مماثل . (أنظر المناقشة التى فى ص ٢٧٣ .) ومع هذا فاقتناعى المؤسس على أسس طيبة هو أن

كلتا القضيتين صحيحة . وإنى لأفكر — على سبيل التأييد — فى أمثلة نرى فيها الأب يموت والطفل ما زال بسن مبكرة جداً ، ثم تجىء بعد ذلك أحداث — لا يمكن تفسيرها بغير ذلك — تثبت أن الطفل قد حفظ مع ذلك ذكريات لا شعورية عن الشخص الذى اختفى فى هذا الزمن المبكر . وكنت أعلم أن قضايای هذه تقوم على استنتاجات قد تنازع صحتها . وعلى ذلك فعمل الحلم يحقق رغبة حين يستخدم على التحديد مادة تلك النتائج التى كنت أخشى معارضتها لكى يستخلص منها نتائج لا يمكن الاعتراض عليها .

٧) وهناك حلم تركته إلى الآن دون أن أكاد ألمسه [أنظر ص ٤١٤] ظهر فى مطلعه تعبير واضح عن عجب أحسسته لفكرة انبعثت فى الحلم :

يكلفنى بروكه الشيخ مهمة ما ، والشىء العجيب أنها كانت تتعلق بتشريح الجزء الأسفل من جسمى ، بتشريح الحوض والساقين التى أراها أمامى كما لو كان ذلك فى حجرة التشريح ولكن دون ألحظ غيابها عندى ودون أن يساورنى أثر من الشعور بالفظاعة . كانت لويز ن . تقف إلى جانبى وتؤدى معى عملا ما . أفرغ الحوض من الأحشاء وصار مرئياً ، طوراً من أعلى وطوراً من أسفل وقد اختلط المسقطان . تظهر زوائد لها لون كلون اللحم (تذكرنى فى الحلم نفسه بالبواسير) . علا هذه شىء أشبه بورق الفضة المتجعد[1] كان من الضرورى التقاطه فى حذر . صرت بعد ذلك حائزاً على ساق من جديد وأخذت أشق طريقى وسط المدينة ، ولكننى (لتعبى) أركب عربة . شقت العربة طريقها — لدهشى — خلال باب منزل انفتح تاركاً العربة تمر وسط ممر انعطف عند نهايته ليؤدى إلى الهواء الطلق مرة أخرى[2] . وأخيراً أرانى أقوم برحلة وسط مناظر طبيعية متقلبة مع مرشد من مرشدى جبال الألب كان يحمل متاعى . حملنى المرشد جزءاً من الطريق مراعاة منه لساق المتعبتين . كانت الأرض موحلة . سرنا حول الحافة ، وكان هناك قوم جلسوا على الأرض مثل الهنود الحمر أو الغجر ، حول الحافة . كنت قبل ذلك أشق طريقى قدماً وسط الأرض الزلقة وقد ساورنى شعور بالدهش لما كنت أبديه فى ذلك من المهارة بعد التشريح . وصلنا أخيراً إلى منزل صغير من الخشب فى نهايته شباك مفتوح . هناك وضعنى المرشد على الأرض ثم أتى بلوحين من الخشب كانا معدين هناك من قبل وأسندهما إلى عارضة النافذة كأنه كان يقيم بذلك جسراً فوق الهاوية التى لم يكن بد من عبورها للخروج من المنزل . حينئذ شعرت فعلا بالخوف على ساق ولكننى بدل أن أعبر الهاوية — كما كان متوقعاً — رأيت رجلين راشدين وقد رقدا على دكتين من الخشب كانتا تحاذيان جدران المنزل الخشبى ، ورأيت أيضاً ما لاح لى أنه طفلان نائمان بجوارهما . كأن وسيلتنا فى عبور الهاوية لن تكون لوحى الخشب بل الطفلين . أستيقظ فى حالة من الرعب العقلى .

---

(١) ستانيول ، إشارة إلى كتاب ستانيوس عن الجهاز العصبى للأسماك (أنظر ص ٤١٤) .

(٢) هذه صورة تستحضر فناء العمارة التى كنت أقطنها ، حيث كان المستأجرون يتركون عربات أطفالهم . ولكن الصورة كانت — فيما عدا ذلك — متعددة الحتم من وجوه كثيرة .

إن من كون ولو أقل فكرة عن مدى التكثيف الذى يقع فى الأحلام يتخيل من غير عناء أى عدد من الصفحات يستغرقه تحليل هذا الحلم تحليلا كاملا . ولكنى لحسن الحظ لا أحتاج فيما نحن فيه سوى إلى أن أبحث نقطة واحدة : تلك التى تزودنا بمثال على الدهش فى الحلم كما يتبين فى كلمة « والشىء العجيب » . وأبدأ بذكر مناسبة الحلم : إنها زيارة من لويز ن . — السيدة التى وقفت إلى جانبى وأنا أؤدى عملى فى الحلم . فقد سألتنى : « أعرنى شيئاً أقرأه » فاقترحت عليها « هى » لرايدار هاجارد ، ثم انطلقت فى الشرح قائلا : « إنه كتاب عجيب ، ولكنه ملىء بالمعانى الدفينة ، الأنوثة الخالدة ، أبدية مشاعرنا ... » وهنا قاطعتنى لويز ن . قائلة : « أعرفه ، أليس عندك شىء من تأليفك ؟ » — « كلا فإن كتبى الخالدة لم تظهر بعد . » — فسألتنى ساخرة بعض الشىء : « متى إذن تظهر شروحك المسماة بالنهائية والتى وعدت بأن تكون مقروءة ولو كان القارئ نحن ؟ » وهنا لاحظت أن شخصاً آخر هو الذى يتحدث بلسانها ، وسكت . أخذت أفكر فيما يكلفنى إياه من مغالبة باهظة للنفس أن أنشر على الملأ كتابى عن الأحلام حيث لا أجد محيدا عن الإفضاء بالشىء الكثير من دخيلة طبعى : « وخير ما تستطيع علمه قد لا تملك قوله للصبيان . »[1] وهكذا نرى أن ما يفرض على فى الحلم من تشريح جسمى إنما يعنى تحليلى أنا الذى لا بد من اقترانه برواية أحلامى . وإن بروكه الشيخ ليجد هنا بحق موضعه المناسب ؛ فقد حدث من قبل وأنا ما أزال بالسنوات الأولى من اشتغالى بالبحث العلمى أننى اكتشفت اكتشافاً ثم تركته معطلا إلى أن حملنى بروكه على نشره حملا بأمر شديد . وأما سائر الخواطر التى أثارها حديثى مع لويز ن . فكانت أعمق غوراً من أن تصير إلى الشعور . لقد عرجت هذه الخواطر ناحية المادة التى اتفق أن أثارها فى نفسى ذكر « هى » لرايدار هاجارد . فإلى هذا الكتاب وإلى كتاب آخر لذات المؤلف « قلب العالم »[2] يرجع الحكم المتمثل فى قولى : « والشىء العجيب » . ومن هاتين الروايتين الحافلتين بالخيال استقيت الكثير من عناصر الحلم : فالطريق الموحلة التى يحمل المنتقلون عليها والجسر الذى لا يجدون بدا من عبوره بألواح يحضرونها معهم — كل أولئك مأخوذ من « هى » ، فأما الهنود الحمر والفتاة والمنزل الخشبى فمن « قلب العالم » .

(١) [أنظر ص ١٦٦ ، فى الهامش .]

(٢) ["The heart of the World"]

والرائد فى كلتا الروايتين امرأة ، وكلتا الروايتين تصف تجوالا يحفل بالمخاطر ، بينما تصف « هى » طريقاً كله مغامرة يمتد إلى المجهول ، لم تكد تطؤه قدم من قبل . فأما التعب الذى يساق فإحساس حقيقى كنت قد عانيته فى النهار — بحسب ملاحظة أجدها مدونة حين سجلت الحلم . وأكبر الظن أن هذا التعب قد كان له صداه فى مزاج من الكلل وفى سؤال موسوم بالشك : « ترى إلى متى ستحملنى قدماى بعد ذلك ؟ » وإن المغامرة المروية فى « هى » لتختتم بالمرأة الرائدة وهى تهلك فى النار المجهولة المستعرة فى جوف الأرض بدل أن تجد الخلود لنفسها ولمن معها . وما من خطأ فى أن خوفاً من هذا القبيل كان ناشطاً بين أفكار الحلم . ومن المؤكد أن المنزل الخشبى كان يعنى النعش ، إذن القبر . بيد أن الحلم قد بلغ أوج مهارته حين صور تلك الفكرة التى لا ينفر المرء من شىء قدر نفوره منها بأن حقق رغبة . ذلك أننى كنت قد رأيتنى فى الحقيقة مرة بجوف أحد القبور ، إلا أنه كان قبراً إترووريا كشف عنه بالقرب من مدينة أورڤيتو ، وكان القبر حجرة ضيقة بداخلها دكتان امتدتا بحذاء الجدران وامتد عليهما هيكلا رجلين راشدين . وقد كان داخل المنزل الخشبى فى الحلم شبيهاً بهذا القبر أتم الشبه ؛ فكأنما كان الحلم يقول : « إذا لم يكن من القبر بد ، فليكن القبر الإتروري . » ، وبهذا الاستبدال يقلب الحلم أظلم الممكنات إلى شىء أرغب فيه رغبة صادقة . غير أن الحلم لسوء الحظ — كما سنراه قريباً [ص ٤٥٩] — قد لا يغير سوى الفكرة التى تصحب حالة وجدانية معنية دون أن يغير هذه الحالة ذاتها . ولهذا استيقظت فى فزع على رغم النجاح فى تصوير تلك الفكرة : أن الأبناء قد يفلحون فيما أخفق فيه آباؤهم — وهى إشارة جديدة إلى الرواية العجيبة التى نرى أحد أشخاصها يظل هو هو خلال أجيال متعاقبة بلغت العشرين قرناً .

(٨) وهناك حلم آخر من أحلامى يظهر فيه أيضاً التعبير عن الدهش لأمر وقع فى الحلم . . . ولكن الدهش قد اصطحب بمحاولة فى تعليله بلغت حدا من الغرابة والبعد — وأكاد أقول : من الألمعية — حتى أنها تكفى وحدها فى حثى على تحليل هذا الحلم كله ، بغض النظر عن اشتماله على مسألتين أخريين جديرتين بأن تجذبا اهتمامنا . ذلك أننى كنت أسافر على سكة حديد الجنوب فى الليلة من ١٨ إلى ١٩ من شهر يوليه حين سمعت

وأنا نائم ، صوتاً يصيح : « هولتورن [Hollthurn] (١) ، وقوف عشر دقائق . » فاتجه خاطرى على الفور إلى Holothurien — فإلى متحف للتاريخ الطبيعى — فإلى أن تلك هى البقعة التى ثار فيها رجال شجعان فى وجه حاكم بلدهم فشنوا على قواته المتفوقة حرباً لم يخرجوا منها بطائل — نعم . إنها الحركة المناهضة للإصلاح فى النمسا ! — كأنما كانت تلك البقعة مكاناً فى شتيريا أو التيرول . أرى بعد ذلك متحفاً صغيراً حفظت فيه بقايا هؤلاء الرجال أو متعلقاتهم ، وكانت الرؤية غير متميزة . أود لو استطعت مغادرة القطار ، ولكننى أتردد فى ذلك . على الرصيف نساء يحملن ثماراً ، إنهن يجلسن القرفصاء على الأرض وقد أمسكن بالسلال على نحو جد مشوق . إننى أتردد لأننى لست واثقاً من أنى أملك متسعاً من الوقت ، ولكن القطار يظل دون أن يتحرك . أرانى فجاءة فى مقصورة أخرى ضاقت فيها الأرائك والمقاعد حتى أن ظهر المرء كان يستند مباشرة إلى مؤخر العربة(٢) . أدهش لذلك ، ولكنى ربما كنت انتقلت من عربة إلى أخرى فى خلال حالة النوم . ههنا أناس كثيرون بينهم إنجليزيان ، أخ وأخت . على أحد الرفوف صف من الكتب يراها المرء رؤية متميزة . ألحظ بينها «ثروة الشعوب» و « المادة والحركة »(٣) (لكلارك ماكسويل) ، إنه مجلد سميك مغلف فى قماش ذى لون بنى . يسأل الرجل أخته عن كتاب لشيللر : هل نسيته ؟ كأنما كانت الكتب كتبهم طوراً ، وطوراً كتبى . أشعر هنا برغبة فى التدخل فى الحديث مؤيداً أو مؤكداً . . . أستيقظ وأنا أتصبب عرقاً ، فقد كانت كل النوافذ مغلقة . كان القطار واقفاً فى ماربورج [فى شتيريا] .

وبينما كنت أدون هذا الحلم خطرت لى نبذة جديدة منه كانت ذاكرتى قد حاولت إغفالها : قلت (باللغة الإنجليزية) للأخ والأخت وأنا أشير إلى كتاب ما : "It is from..." ثم أصحح قائلا : "It is by..." ، فيعقب الرجل على كلامى قائلا لأخته : « لقد قال ذلك دون أن يخطىء . »

إن هذا الحلم قد بدأ باسم المحطة ، ولا شك فى أن مناداة هذا الأسم كانت قد أيقظتنى إيقاظاً جزئياً ، إلا أننى غيرت الاسم فجاء هولتورن بدل ماربورج والشاهد على أننى سمعت ماربورج عندما نودى اسمها للمرة الأولى — أو ربما بعد نداء تال — هو ما

---

(١) [اسم لا يصدق على أى مكان حقيقى .]

(٢) حتى أنا لا أفهم هذا الوصف : ولكننى أتبع هنا تلك القاعدة الأساسية ، وهى أن أروى الحلم بالكلمات التى تخطر لى عند تدوينه ؛ فإن الصيغة اللفظية هى نفسها جزء من التصوير الحلمى [أنظر ص ٥٠٨ .]

(٣) ["Wealth of Nations", "Matter and Motion"]

جاء فى الحلم من ذكر شيللر الذى ولد فى ماربورج – وإن لم تكن ماربورج التى فى شتيريا[1] . وقد صحبت سفرى فى هاته الليلة ملابسات متعبة إلى آخر مدى ، مع أننى كنت أسافر فى الدرجة الأولى . ذلك أن القطار لم يكن فيه موضع لقدم ، ثم إننى وجدت فى مقصورتى سيدة وسيداً بدت عليهما كل مظاهر الغطرسة وتجردا من الأدب ، أو هما لم يتكلفا أن يخفيا عنى شعورهما بالضيق لدخولى عليهما ، فظلت تحيتى المؤدبة لا تلقى منهما ردا . ومع أن الرجل وزوجته كانا جالسين جنباً إلى جنب (وظهراهما إلى القاطرة) ، فإن المرأة سارعت إلى احتلال المقعد الذى كان يواجهها بجوار النافذة ، فوضعت عليه مظلتها . وأغلق الباب على الفور وتبودلت ملاحظات فى موضوع النوافذ وفتحها . وأكبر الظن أنهما قد أدركا على الفور أننى كنت ظامئاً إلى بعض الهواء الطلق ؛ فقد كانت ليلة حارة ، ولم يلبث الجو أن صار خانقاً فى المقصورة المغلقة إغلاقاً محكماً . وقد كانت تجاربى فى السفر علمتنى أن مثل هذا المسلك المجرد من الأدب ومراعاة ما للغير شىء مما يتميز به أولئك الذين يسافرون بالمجان أو بنصف أجر . فلما جاء جامع التذاكر وأريته تذكرتى التى كلفتنى ما كلفتنى خرجت من فم السيدة كلمات ألقتها فى نبرات متعالية كادت أن تكون متوعدة : إن زوجى يحمل ترخيصاً مجانياً . لقد كانت سيدة ذات هيئة مسيطرة وملامح غضوبة ، فى سن لا تبعد كثيراً عن تلك التى يأخذ فيها جمال المرأة فى الذبول ، فأما الرجل فما نبس بحرف وظل حيث هو لا يريم . وكان أنى تحايلت على النوم ، وهأنذا أثأر فى الحلم من رفيقى غير المستحبين ثأراً مخيفاً ؛ فما من أحد يستطيع أن يحذر أى صنوف من السباب ومن الإذلال تستقر وراء الأجزاء المتقطعة التى تكون منها الشطر الأول من الحلم . فلما اكتفت هذه الحاجة انبعثت أخرى ، هى الحاجة إلى تغيير المقصورة . ومن الأمور الشائعة أن يتغير المشهد فى الحلم دون أن يلقى ذلك اعتراضاً ما ، فإذا كنت بادرت فاستبدلت برفيقى فى السفر آخرين من ذاكرتى أكثر منهما لطفاً ، فما كان ذلك ليكون بالشىء العجيب أو الملحوظ . ولكننا نجد هنا حالة دعا فيها أحد

---

(١) إن البلد الذى ولد فيه شيللر لم يكن أى ماربورج ، بل ماربخ ، كما يعلمه كل تلميذ ألمانى وكما كنت أعلمه أنا أيضا وتلك إذن هفوة أخرى (أنظر ص ٢١٧ هـ ١) من الهفوات التى تتسرب لكى تعوض عن تزييف متعمد فى موضع آخر – وهى هفوة حاولت تفسيرها فى كتابى "سيكوباثولوجية الحياة اليومية " . [١٩٠١ ب ، الفصل العاشر ، المقال الأول .]

اللواعى إلى أن يلقى تغيير المشهد اعتراضاً وإلى أن يعد أمراً يتطلب تعليلا : كيف صرت فجأة فى حجرة أخرى ؟ إننى لم أكن أذكر أننى انتقلت وليس إلا تعليل واحد لا ثانى له : لا بد أنى تركت العربة وأنا نائم — إنه حادث نادر الوقوع ولكننا نرى أمثلة منه فى خبرة طبيب الأمراض العصبية ؛ فنحن نعرف أناساً سافروا بالسكة الحديدية وهم فى حالة شفقية[1] دون أن تبدر منهم بادرة تنم عن وضعهم الشاذ ، إلى أن يبلغوا حدا من رحلتهم فإذا هم راجعون إلى أنفسهم ، يدهشون للثغرة التى فى ذاكرتهم . وهكذا أعلن وأنا ما زلت فى الحلم أن حالتى من حالات « الأوتوماتية التنقيلة »[2] .

ولكن التحليل يمكننا من حل آخر . فهذه المحاولة التعليلية التى تبدو لى على هذا المبلغ من العجب لوكنت مضطرا إلى أن أعزوها إلى عمل الحلم — ليست فى الحقيقة محاولة مبتكرة من عندى ، بل هى قد نسخت من عصاب أحد مرضاى . فقد سبق أن تحدثت فى موضع آخر [ص ٢٧٦] عن شاب عالى الثقافة ، حم العطف فى حياته الواقعة ، كيف أخذ بعد موت والديه بزمن قصير يتهم نفسه بنوازع قتالة ، ثم بعد ذلك سقط فريسة للحيطة التى لم يكن يرى مفرا من التزامها حماية لنفسه من هذه النوازع . كانت حالته حالة أفكار قهرية مع قدرة على إدراك حاله ظلت غير منقوصة . ففى أول الأمر صار السير فى الطرقات عبئاً أليماً عليه ؛ إذ كان به دافع قهرى يدفعه إلى ألا يترك مارا به دون أن يسجل غدوه ورواحه ودون أن يرى أين اختفى . فإن أفلت أحدهم من عينه المتتبعة تخلف عنده شعور أليم واحتمال لا مسرح له غير فكره ، مؤداه أنه ربما كان قد أجهز على هذا الشخص . والذى يستتر وراء هذا كله كان — ضمن أشياء أخرى — [تخييلا تجوز تسميته] تخييل قايين ؛ أفليس « كل الناس إخوة » ؟ وإذ كانت مهمة المتابعة تلك شيئاً محالا ، فقد ترك المريض كل نزهة وقضى حياته حبيس جدرانه الأربعة . ولكن أخبار الجرائم المرتكبة فى الخارج كانت تنفذ والصحف إلى غرفته . وأمره ضميره فى صورة الشك بأنه قد يكون هو القاتل المطلوب . بيد أن يقينه من أنه قد لبث أسابيع دون أن يبارح منزله ظل يحميه زمناً من هذه التهمات ، إلى أن طاف بخلده يوماً احتمال أن

---

(١) [أى حالة يقظة لكن دون وعى كامل ، فكأن الشعور فيها كالضوء ساعة الشفق .]

(٢) ["automatisme ambulatoire"]

يكون قد ترك المنزل وهو فى حالة لاشعورية ، فاستطاع بذلك أن يرتكب الجريمة دون أن يعلم من أمرها شيئاً . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً أوصد باب منزله وسلم المفتاح إلى خادمه العجوز آمرا إياها أمراً مشدداً ألا تترك أبداً هذا المفتاح يقع بين يديه ولو طلبه .

وهذا إذن هو منشأ محاولتى التعليلية حين قلت : إننى ربما كنت غيرت العربة وأنا فى حالة لا شعورية . لقد نقل هذا التعليل جاهزا من مادة أفكار الحلم إلى الحلم — ومن البين أن القصد منه هو أن يفيد فى تعيينى بشخص هذا المريض . وأما تذكرى للمريض فقد أثاره استدعاء قريب من الذهن : ذلك أن هذا الرجل عينه كان يصحبنى فى آخر مرة سافرت فيها ليلا ، قبل ذلك ببضعة أسابيع . كان قد شفى وكان يسافر معى إلى الأقاليم ليزور أقارب له ، كانوا أرسلوا فى طلبى . وكانت لنا مقصورة خاصة بنا وتركنا كل النوافذ مفتوحة طيلة الليل وقبل النوم قضينا وقتاً من أطيب ما يكون . وكنت أعلم أن الأصل فى مرضه دفعات عدائية نحو الأب ترجع إلى زمن الطفولة ولها ارتباطها بمواقف جنسية . وأنا إذن من حيث أعين نفسى به إنما أنشد الاعتراف بشىء مماثل . والحق أن المشهد الثانى فى الحلم قد انتهى بتخييل مغرب بعض الإغراب حاصله أن رفيقىّ المسنين فى السفر قد سلكاً نحوى ذلك المسلك النافر لأن مقدمى قد أفسد عليهما ما كانا يزمعانه من تبادل الود فى ليلهما . بيد أن هذا التخييل يرجع بدوره إلى مشهد من مشاهد الطفولة المبكرة ، حين يزج الطفل بنفسه — مدفوعاً فى أكبر الظن بتطلعه الجنسى — إلى حجرة نوم والديه ثم يخرج منها بأمر من الوالد لا مرد له .

لا طائل — على ما أعتقد — فى حشد أمثلة أخرى . فهى إنما تذهب جميعاً إلى تأييد ما تحصل من الأمثلة السابقة : أن فعل الحكم فى الحلم ليس إلا ترديداً لنموذج موجود فى أفكار الحلم ترديدا يتسم فى معظم الأحيان بسوء التصرف ويجىء وسط محيط غير مناسب ، ولكنه قد يساق أحياناً — كما فى مثالنا الأخير — سوقاً ماهراً حتى يخيل إلينا للوهلة الأولى أن ثمت نشاطاً عقلياً مستقلا يتم فى الحلم . ولنا وقد بلغنا هذا الموضع أن ندير انتباهنا إلى هذه القوة النفسية التى تبدو ولا شك بعيدة عن أن تشارك دائماً فى تكوين الأحلام ، إلا أنها حين تفعل توجه همها إلى إدماج عناصر الحلم المتفرقة الأصول فى كل خال من التناقض ، ذى معنى . ولكننا — قبل أن نطرق هذا الموضوع نشعر

بحاجة ملحة إلى أن ننظر أولا فيما ورد فى الأحلام من التعبيرات الوجدانية ، وإلى أن نقارن بينها وبين الحالات الوجدانية التى يكشف عنها التحليل فى أفكار الحلم .

ج

الحالات الوجدانية فى الحلم

لقد نبهتنا ملاحظة حصيفة لاحظها شتريكر إلى أن التعبيرات الوجدانية فى الحلم لا يمكن أن تقابل بهذا النوع من الاستخفاف الذى اعتدنا أن نعرف به محتوى الحلم : « حين يخاف المرء فى الحلم غائلة اللصوص ، فاللصوص يقيناً من صنع خياله ، لكن الخوف حقيقى » . والأمر كذلك إذا أحسسنا فى الحلم مرحا . فشعورنا يحدثنا بأن الحالة الوجدانية التى يخبرها المرء فى الحلم لا تقل بأى وجه من الوجوه عن حالة نخبرها فى اليقظة معادلة فى الشدة ، وإن حق الحلم فى أن يدرج ضمن خبراتنا النفسية الحقيقية لأقوى بمحتواه الوجدانى منه بمحتواه الفكرى . غير أننا نعجز فى اليقظة عن هذا الإدراج ؛ لأننا لا نستطيع أن نزن القيمة النفسية لإحدى الحالات الوجدانية إلا مرتبطة بمحتوى فكرى ما ، فإن انعدم التناسب بين الحالة الوجدانية والفكرة من حيث النوع والشدة وقف حكمنا المستيقظ ولم يحر جواباً .

وإن من سمات الأحلام لسمة حدت إلى العجب منها فى كل وقت ، تلك هى : أن محتواها الفكرى لا يحمل معه الأثر الوجدانى الذى ما كنا فى فكرنا المستيقظ إلا لنتوقعه كما نتوقع أمراً ضرورياً ، حتى أعلن شترومبل أن الأفكار تجرد فى الحلم من قيمها النفسية . غير أن الأحلام لا تعوزها أمثلة على الضد ، أمثلة يخطر فيها تعبير وجدانى شديد مقترناً بمحتوى لا يبدو فيه أقل مبرر يبرر انطلاق مثل هذا الوجدان : فقد أرانى فى الحلم فى موقف بشع ، خطر ، باعث على الاشمئزاز ، ولا أحس خوفاً أو نفوراً ، وعلى العكس : قد أروع أحياناً وليس ما يروع ، أو أفيض حبوراً وما يحبرنى سوى موضوع طفلى .

هذا اللغز هو — فى الغالب — أسرع ألغاز الحلم إلى الاختفاء وأتمها تبدداً حين ننتقل من محتوى الحلم الظاهر إلى محتواه الكامن . ولن تكون بنا حاجة إلى أن نشغل بفضه ؛ فقد فض من قبل . فالتحليل يعلمنا أن المحتوى الفكرى قد مسه الشىء الكثير من النقل والتبديل ، على حين ظلت الحالات الوجدانية من غير تحريف ، ولا غرو بعد ذلك إذا فقد المحتوى الفكرى المغير بفعل التشويه الحلمى كل تناسب يقرب بينه وبين الحالة الوجدانية المحفوظة كما هى ، ولا نحن نجد مدعاة للعجب حين يعيد التحليل المحتوى الصحيح إلى نصابه .[1]

وحين يخضع مركب نفسى لتأثير الرقابة التى تفرضها المقاومة فالحالات الوجدانية هى أقل مقوماته تأثراً ، وهى وحدها التى تهدينا الطريق إلى التكملة الصحيحة . وإن هذا الوضع لأظهر فى الأعصبة منه فى الأحلام . فالحالة الوجدانية فى العصاب لها دائماً سببها الذى يبررها ، من حيث الكف على الأقل — وإن جاز بالطبع أن تكون قد زادت شدة لما يصيب الانتباه العصابى من النقلات . فإذا كان المستَرى يعجب لكل هذا الخوف يركبه تجاه تفاهة من التفاهات ، أو إذا استعجب رجل يعانى أفكاراً قهرية لما يوجهه إلى نفسه من هذا اللوم المنبعث من لا شىء ، فكلاهما ضال عن سبيل الفهم من حيث يتوهم أن المحتوى الفكرى — أن تلك التفاهة أو ذلك « اللاشىء » — هو الشىء الجوهرى ، وإنه ليدافعن عن نفسه بغير طائل من حيث يتخذ من هذا المحتوى نقطة البدء فى تفكيره . ولكن التحليل النفسى يريهما بعد ذلك الطريق الصحيح إذ يسلم — على العكس — بأن للحالة الوجدانية ما يبررها ، ثم يبحث عن الفكرة المتصلة بها والتى

---

(١) إذا لم أكن أخطأت كثيراً ، فأول حلم استطعت أن أستشفه عند حفيدى الأكبر البالغ من العمر عشرين شهراً يدل على أن الحلم قد نجح فى تحويل مادة أفكار الحلم إلى رغبة محققة ، على حين بقيت الحالة الوجدانية المرتبطة بها دون أن تتغير أثناء حالة النوم . فهو فى الليلة التى سبقت رحيل والده إلى الجبهة قد استيقظ وهو ينشج نشيجا حارا : " بابا ، بابا — بيبى " . والترجمة الوحيدة لذلك هى : « بابا وبيبى باقيان معا » ، بينما البكاء تسليم بالرحيل المرتقب . ولقد كان الطفل فى ذلك الوقت قادرا تمام القدرة على الإعراب عن فكرة الفراق ؛ إذ كان بين أوائل ما نطق به هذا الطفل كلمة "Fort" [" بعيدا "] (وكان الطفل يفخم حرف o تفخيما خاصا ويمطه مطا طويلا : o — o — o) ، ثم هو — قبل هذا الحلم الأول بشهور — كان يطوح بكل ما يقع تحت يديه من لعبه وهو يصيح : " بعيدا " — وهى لعبة كانت ترجع إلى نجاح مبكر فى السيطرة على النفس وغزوها بترك الأم تذهب بعيدا . [أنظر ما ورد عن ذلك فى " ما وراء مبدأ اللذة " (فرويد ١٩٢٠ ز) .]

نالها الكبت وحل محلها بديل . وكل هذا يتضمن مسلمة ، هى أن الاستجابة الوجدانية والمحتوى الفكرى لا يكونان تلك الوحدة العضوية التى لا تنفصم عراها ، بل قد يكون كل من هذين الجزأين ملفوقاً بالآخر بحيث يمكن الفصل بينهما بالتحليل . وتفسير الأحلام يرينا أن الأمر كذلك فى الحقيقة .

وأبدأ بمثال يفسر لنا فيه التحليل ما ظهر من تخلف الحالة الوجدانية دون المحتوى الفكرى ، مع أن هذا المحتوى كان يستلزم انطلاقها .

(١)

ترى فى صحراء ثلاثة أسود يضحك أحدها ولكنها لم تكن خائفة منها . لاشك فى أنها قد ولت فراراً منها بعد ذلك لأنها كانت تحاول أن تتسلق شجرة ، غير أنها وجدت أن إحدى قريباتها — وهى مدرسة للغة الفرنسية — قد سبقتها إلى هناك .

لقد جاء التحليل بالمادة الآتية : إن مناسبة الحلم التافهة جملة وردت فى موضوع الإنشاء الإنجليزى : العرف زينة الأسد . إن والدها كان يحمل لحية تحف بوجهه مثل العرف . وكانت مدرستها للغة الإنجليزية تسمى الآنسة Lyons (Lions = أسود) وكانت إحدى معارفها قد أرسلت إليها أشعاراً من نظم Lœwe [وهو « الأسد » فى الألمانية] . تلك إذن أسودها الثلاثة ؛ فلم الخوف منها ؟ — إنها قد قرأت قصة تروى كيف حث زنجى رفاقه على الثورة فطورد وأرسلت فى أثره كلاب الصيد فتسلق شجرة لكى ينقذ نفسه . تعقب ذلك ذكريات شتى ترويها الحالمة فى مرح شديد ، مثل تلك النصحية فى صيد الأسد — عن مجلة « الصحائف الطائرة » — : ضع صحراء على المصفاة ، ينساب الرمل وتبقى الأسود . ثم قصة جمة الطرافة وإن لم تكن بالنظيفة كل النظافة عن موظف سؤل لم لا يتكلف بعض العناء ليظفر بحظوة رئيسه الأعلى ، فأجاب بأنه قد حاول بالفعل أن يشق طريقه من الباب الخلفى ولكن الموظف المتقدم عليه كان قد سبقه إلى هناك . وتغدو كل هذه المادة شيئاً مفهوماً حين يتبين أن السيدة كانت فى اليوم الذى سبق الحلم قد تلقت زيارة من رئيس زوجها فى العمل . وكان الرجل جم الأدب وقبل يدها ولم تشعر هى بأقل خوف منه مع أنه كان « وحشاً كبيراً » وكان « مستأسداً » فى

مجتمع عاصمة البلد الذى أتت منه . وعلى ذلك فهذا الأسد أشبه بالأسد الذى فى « حلم ليلة من منتصف الصيف » والذى افتضح أمره فلم يكن يخفى ورائه سوى سنج النجار [1] ، والأمر كذلك فى كل أسود الحلم التى لا يستشعر منها المرء رهبة .

(٢)

وأسوق كمثال ثان حلم الفتاة التى رأت الابن الأصغر لأختها ميتاً فى نعشه [ص ١٥٥ وص ٢٦٥] ولكنها — كما تسعنى الآن إضافته — لم تستشعر لذلك ألما ولا حزناً . إننا نعلم من التحليل لم كان ذلك كذلك : فالحلم إنما كان يخفى رغبتها فى أن ترى الرجل الذى أحبته مرة أخرى ولم يكن بد من أن تجىء حالتها الوجدانية مجانسة لرغبتها تلك وليس لما تقنعت به هذه الرغبة . وعلى ذلك لم تكن ثمت مدعاة إلى الحزن .

وهناك أحلام تظل فيها الحالة الوجدانية مرتبطة على الأقل بالمحتوى الفكرى الذى حل محل ذلك الذى كانت تلك الحالة مقترنة به فى الأصل . ولكن هناك أحلاماً أخرى يذهب فيها تفكيك المركب [الفكرى الوجدانى] إلى أبعد من ذلك ؛ فتظهر الحالة الوجدانية منفصلة كل الانفصال من الفكرة المتصلة بها وتدرج فى موضع آخر حيث تتسق والترتيب الجديد لعناصر الحلم . والموقف حينئذ أشبه بما قد رأيناه فى حالة أفعال الحكم فى الأحلام [ص٤٤٤] : إذا تضمنت أفكار الحلم نتيجة هامة اشتمل الحلم كذلك على نتيجة ، ولكن النتيجة التى فى الحلم قد تنقل فتجىء فى صدد مادة متخلفة كل الاختلاف . ولا يندر أن يتم هذا النقل وفقاً لمبدأ التضاد .

هذه الإمكانية الأخيرة تتمثل فى الحلم التالى الذى أخضعته لتحليل بلغ غاية الاستيفاء :

---

(١) [سنج النجار أحد أصحاب الحرف الممثلين الذين اجتمعوا لكى يمثلوا رواية ما احتفالا بعرس دوق أثينا ، فى مسرحية " حلم ليلة من منتصف الصيف " لشكسبير . وقد وكل إلى سنج أن يمثل الأسد ، ولم يكن أحد يبعد عن الأسد بعد سنج هذا وبعد الأسد الذى لعبه .]

(٣)

حصن على شاطىء البحر ، ثم لا يعود الحصن على شاطىء البحر مباشرة بل على قناة ضيقة مؤدية إلى البحر . الحاكم رجل يدعى السيد ب . كنت واقفاً معه فى قاعة استقبال كبيرة ذات ثلاث نوافذ تواجهها شرفات مقفلة تشبه مكامن إطلاق النار فى الحصون . كنت ملحقاً بالحامية على أننى ضابط بحرى متطوع أو شىء من هذا القبيل . إننا نخشى وصول سفن الأعداء ؛ فقد كنا فى حالة حرب . السيد ب . ينتوى الرحيل ويعطينى تعليمات فيما يجب عمله إذا وقع ما نخشاه . كانت زوجه المريضة فى الحصن المهدد مع أطفالها . إذا بدأ ضرب القنابل فالواجب إخلاء القاعة الكبيرة على الفور . إنه يتنفس تنفساً ثقيلا ويستدير لينصرف . أمسك به وأسأله : كيف أتصل به عند الضرورة ؟ يقول شيئاً ما على سبيل الجواب ولكنه لا يلبث أن يسقط ميتاً على الفور . لا شك فى أننى قد حملته بأسئلتى ما لا يطيق . أسائل نفسى بعد موته — موتاً لا يترك فى نفسى أى أثر آخر — هل كان ينبغى أن تبقى أرملته بالحصن وهلا ينبغى أن أنقل نبأ موته إلى القيادة العليا وأن أتولى قيادة الحصن بعده باعتبارى تاليه فى المرتبة . كنت واقفاً بالنافذة أراقب السفن وهى تمر . كانت سفناً تجارية تندفع بسرعة عبر الماء الداكن وكان لبعضها مداخن كبيرة ولبعضها الآخر أسطح محدبة (تشبه كل الشبه مبانى المحطة فى الحلم التمهيدى — غير المذكور) . بعد ذلك يقف أخى بجانبى وينظر كلانا من النافذة إلى القناة . نرتاع لمرأى إحدى السفن ونصيح : ها هى ذى السفينة الحربية ! ولكن يتضح أنه لم يكن هناك سوى السفن التى أعرفها من قبل فى طريقها إلى العودة . تقبل الآن سفينة صغيرة انفطرت عند الوسط فلم يبق سوى نصفها على نحو يثير الضحك ، نرى على سطحها أشياء غريبة تشبه الفناجين أو العلب فى شكلها . نصيح فى صوت واحد : تلك سفينة الإفطار .

إن حركة السفن المسرعة مع لون المياه الأزرق الداكن والدخان الأسمر المتصاعد من المداخن — كل أولئك قد ائتلف ليحدث فى النفس شعوراً شديد التوتر ، قاتماً .

ولقد نقلت الأماكن التى ظهرت فى الحلم عن رحلات متعددة قمت بها فى البحر الأدرياتى (إلى ميرامار — ودونيو والبندقية وآكيليا) . وكانت لا تزال حية فى ذاكرتى رحلة ممتعة قمت بها مع أخى إلى آكيليا ، قبل الحلم ببضعة أسابيع . ويحتوى الحلم كذلك على إشارات إلى الحرب البحرية بين أمريكا وأسبانيا وإلى ما أثارته إذ ذاك من القلق على مصير بعض أقاربى ممن يقيمون فى أمريكا . وقد ورد ذكر الحالات الوجدانية فى موضعين من هذا الحلم : فى موضع تغيب حالة وجدانية متوقعة ، إذ نص صراحة على

أن موت الحاكم لم يترك أثراً فى نفسى ، كما أننى فى موضع آخر — حين أقبلت السفينة الحربية — قد ارتعت لمرآها وشعرت بكل أحاسيس الفزع فى نومى . ووزعت الحالات الوجدانية فى هذا الحلم الحسن التركيب توزيعاً كان من شأنه أن اجتنب كل تناقض يلفت النظر ؛ فلم يكن ثمت سبب يدعونى إلى الفزع من موت الحاكم وكان من المعقول كل المعقولية — وأنا قائد الحصن — أن أفزع لمرأى السفينة الحربية . بيد أن تحليل الحلم يبين أن السيد ب . لم يكن إلا بديلا منى (فى الحلم كنت بديله) ؛ فأنا الحاكم الذى سقط ميتا ، وأفكار الحلم تدور حول مصير أسرتى إذا مت قبل الأوان . تلك كانت بين أفكار الحلم الفكرة الوحيدة الأليمة ، ولا بد أن الفزع قد فصل منها ثم وصل فى الحلم بمرأى السفينة الحربية . ويبين التحليل من جهة أخرى — أن منطقة أفكار الحلم التى استقيت منها السفينة الحربية كانت تحفل على العكس بأشد الذكريات مرحا : كان ذلك منذ عام مضى فى البندقية ، وكنا فى صبيحة يوم ساحر جميل ، وقوفاً إلى نوافذ حجرتنا المطلة على الريفا سكياڤونى ننظر عبر البحيرة الزرقاء حيث كانت الحركة فى ذلك اليوم أكثر منها فى كل يوم ؛ فقد كان القوم يتوقعون مقدم بعض السفن الإنجليزية ويتهيأون للاحتفال بها . ثم إذا زوجتى تهتف مرحة كالطفل : « ها هى ذى السفينة الحربية الإنجليزية ! » وإنى أفزع فى الحلم لهذه الكلمات بالذات (وهو مثال آخر على أن أقوال الحلم إنما تستقى من أقوال قيلت فى الحياة [أنظر ص٤١٩] ، كما أنى لن ألبث دون أن أبين أن العنصر « إنجليزى » لم يفلت هو الآخر من فعل عمل الحلم) . وأنا إذن فى عملية تصيير أفكار الحلم إلى محتوى الحلم الظاهر قد قلبت المرح هنا إلى خوف ، ولست أحتاج إلى غير الإلماع إلى أن هذا القلب نفسه كان يعرب عن جزء من محتوى الحلم الكامن . وأيا كان الأمر ، فهذا المثال دليل على أن عمل الحلم حر فى أن يفصل الحالة الوجدانية من روابطها بأفكار الحلم وفى أن يدرجها بأى موضع يشاء من محتوى الحلم الظاهر .

وأنتهز هذه الفرصة لكى أسوق تحليلا مفصلا بعض التفصيل لـ « سفينة الإفطار » التى ظهرت فى الحلم فكان ظهورها خاتمة لا معنى لها لموقف ظل يدار حتى ذلك الحين فى مستوى معقول . إننى حين أستحضر سفينة الحلم استحضارا أدق يفجأنى منها أنها كانت سوداء اللون وأنها — نتيجة لكونها قد فطرت فى منتصفها حيث أوسع عرضها — كانت

جمة الشبه — عند هذا الطرف — بطائفة من أشياء جذبت انتباهنا فى متاحف المدن الإترورية : تلك كانت صينيات من الخزف الأسود ذات مقبضين ، وضعت عليها أشياء تشبه فناجيل القهوة أو الشاى ولا تخلو من كل شبه بأوانى الأفطار فى مدنيتنا الحديثة . فلما استفسرنا علمنا أن تلك كانت عدد « التواليت » لسيدة إترورية بما تحويه من أوعية للدهون والمساحيق ، فقلنا مازحين : إنها تكون فكرة طيبة لو أنا حملنا معنا أحدها لربة المنزل . وعلى ذلك فالسفينة التى تظهر فى الحلم كانت تعنى « تواليت أسود » ، أى ثوب حداد ، وكانت تشير بإشارة مباشرة إلى الموت . وأما الطرف الآخر لسفينة الحلم فيذكرنى بالقوارب الجنائزية[1] التى كانت توضع عليها أجسام الموتى ويترك للبحر دفنها . وهذا يؤدى إلى عودة السفينة فى الحلم :

« وفى سكون يحمل الماء الشيخ إلى المرسى ، سالماً على قاربه . »[2]

إنها عودة من سفينة غارقة ["Schiffbruch" وبالحرف : سفينة مكسورة] ، ولقد كانت سفينة الإفطار مكسورة فى منتصفها . ولكن ما منشأ ذلك الاسم : سفينة « الإفطار » ؟ ههنا قد استغل لفظ « الإنجليزية » الذى تركناه عند الحديث عن السفن الحربية . ذلك أن الكلمة الإنجليزية الدالة على « الإفطار » ("breakfast") تعنى « كسر الصيام » ، وإن الكسر ليرجع من جديد إلى السفينة الغارقة [وبالحرف : المكسورة] ، بينما يتصل الصيام بالرداء [التواليت] الأسود .

غير أن الحلم لم يبتدع جديداً سوى اسم مركب الإفطار ، فأما الشىء نفسه فقد وجد ، وإنه ليذكرنى بجزء من أمتع أجزاء رحلتى الأخيرة . فقد ساورنا الشك فى جودة الطعام الذى قد يقدم لنا فى آكيليا ، فأحضرنا معنا زاداً من جوريزيا واشترينا فى آكيليا زجاجة من نبيذ إيستريا الممتاز . وبينما كانت باخرة البريد الصغيرة تشق طريقها وئيدة فى قناة دل مى عبر البحيرة المهجورة إلى جرادو كنا نحن ، الراكبان الوحيدان ، نتناول طعام الإفطار على السطح ونحن أشد ما نكون حبورا ، وكان إفطارا ندر أن ذقنا مثله من قبل . تلك إذن « سفينة الإفطار » ، ووراء هذه الذكرى من ذكريات الاستمتاع

---

(١) إن كلمة "Nachen" (القوارب الجنائزية) قد اشتقت — على ما علمت من صديق فيلولوجى — من الأصل اليونانى nekus (جثة) .

(٢) [Schiller, Nachtrage zu den Xenien]

بالحياة فى أهنأ صورة — وراءها دون غيرها — يخفى الحلم أظلم الأفكار عن غيب مجهول مفارق للمألوف .

إن فصل الحالات الوجدانية المتولدة من أفكار الحلم هو أعجب ما يقع لها فى أثناء تكوين الحلم ، ولكنه ليس بالشىء الوحيد الذى يقع لها ، ولا هو أهم ما يعتورها من التغيير فى طريقها من أفكار الحلم إلى الحلم الظاهر . فلو أننا قارنا الحالات الوجدانية التى تصحب أفكار الحلم وبين تلك الظاهرة فيه ، لاتضح أمر على الفور : كلما عرضت فى الحلم حالة وجدانية وجدت هذه الحالة فى أفكار الحلم ، ولكن العكس غير صحيح . فالحلم بوجه عام أفقر وجداناً من المادة النفسية التى نجم الحلم عن معالجتها ، فأنا فى العادة إذ أركب أفكار الحلم من جديد أرى بينها أشد الدوافع النفسية وهى تجهد لكى تبلغ الحس وأراها فى معظم الأحايين وهى تصارع دوافع غيرها تخالفها مخالفة بينة . فإن رجعت بعد ذلك إلى الحلم ، لم يندر أن أجده حائل اللون ، خالياً من كل نغمة انفعالية ذات شدة يعتد بها . فعمل الحلم لا يهبط إلى مرتبة التساوى بمحتوى أفكارى وحده ، بل إن نغمتها الانفعالية تلقى كذلك ذات المصير فى كثير من الأحيان . ولقد يصح القول بأن عمل الحلم يجلب معه قمعاً للحالات الوجدانية . دعنا نأخذ — مثلا — حلم البحث النباتى : إن الأفكار التى كان يعرب عنها هذا الحلم كانت تقوم فى دفاع حار مهتاج عن حريتى فى أن أسلك كيفما أختار وفى أن أوجه حياتى على النحو الذى يبدو لى — ولى وحدى — صواباً ، ولكن خرج من ذلك حلم سماه التساوى : كتبت مبحثاً ، المبحث أمامى ، إنه يشتمل على لوحات ملونة ، أرفقت بكل نسخة نباتات مجففة . لفى ذلك ما يذكر بالسلام الذى يخيم فوق ساحة قتال انتثرت الجثث فى رحابها ؛ فكل أثر ينم عن الصراع الذى دارت رحاه فوق أرضها قد انمحى .

غير أن الأمور قد تختلف : قد تنفذ إلى الحلم نفسه تعبيرات وجدانية مشتدة . سوى أننى أقف فى الوقت الحاضر عند تلك الحقيقة التى لا منازعة فيها : أن عدداً كبيراً من الأحلام يبدو متساوياً ، على حين يستحيل أن يلج المرء أفكار الحلم دون أن يتولاه انفعال عميق .

وليس هنا مقام الإتيان بالتعليل النظرى الكامل لما يقع فى خلال عمل الحلم من هذا القمع للحالات الوجدانية ؛ فذلك ما يستلزم التمهيد له ببحث من أشق ما يكون فى نظرية الحالات الوجدانية وفى ميكانيكيه الكبت [أنظر ص٥٨٨ وما بعدها] ، وإنما أريد الإدلاء

هنا بفكرتين : إنني مضطر — لأسباب أخرى — إلى أن أتصور انطلاق الحالات الوجدانية فى صورة عملية نازحة عن المركز متجهة إلى داخل الجسم مثل عمليات التعصيب[1] الحركى والغددى . وكما أن إرسال الدفعات الحركية إلى العالم الخارجى يبدو معطلا فى أثناء حالة النوم ، فإن إثارة الحالات الوجدانية بوساطة التفكير اللاشعورى قد تزيد كذلك صعوبة فى خلال النوم . وفى هذه الحالات تكون الخلجات الوجدانية التى تخطر فى ثنايا أفكار الحلم ضعيفة فى ذاتها وبذاتها ، ومن ثم لا يكون ما ينفذ منها إلى الحلم بأقل ضعفاً . ويلزم من هذه النظرة أن " قمع الحالات الواجدانية " ليس نتيجة لعمل الحلم على الإطلاق ، بل ينجم عن حالة النوم . وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه لا يمكن أن يكون كل الحقيقة . فلا بد أن نذكر أن كل حلم — مهما قل حظه من التعقيد — يتبين فى النهاية أنه وليد تصالح بين قوى نفسية متعارضة . فالأفكار التى تبنى بها الرغبة لا تجد مفرا من مكافحة المعارضة المنبعثة من العامل القائم بالرقابة — هذا من جهة . ثم نحن — من جهة أخرى — قد رأينا فى أحيان كثيرة أن التفكير اللاشعورى لا يحوى فكرة إلا كانت مشدودة إلى ضدها الذى ينقضها . وإذ كانت هذه الأفكار جميعاً قادرة على إثارة الحالات الوجدانية فنحن ولا ريب بمأمن من مجانبة الصواب حين نقدر أن قمع الحالات الوجدانية هو نتيجة للكف الذى تعمله هذه الأضداد بعضها فى بعض وتعمله الرقابة فى النوازع المقموعة بوساطتها . وعلى ذلك يكون كف الحالات الوجدانية هو النتيجة الثانية لرقابة الحلم كما كان التشويه الحلمى نتيجتها الأولى .

وأسرد هنا مثالا من حلم يسعنا فيه أن نعلل ما يطبع محتوى الحلم من تساوى النغمة الانفعالية بما بين أفكار الحلم من التضاد . إنه حلم قصير يملأ كل قارئ اشمئزازا .

(٤)

تل علاه شىء أشبه بمرحاض فى الهواء الطلق : مقعد طويل جداً فى نهايته ثقب كبير ، غطيت حافته الخلفية بغطاء سميك من أكوام صغيرة من الغائط ، من جميع الأحجام ودرجات الطزاجة . وراء المقعد شجيرات .

(١) [فى بيان استخدام فرويد لهذه الكلمة انظر الهامش الذى فى ص ٥٢٩ .]

أتبول على المقعد ، يغسل مسيل طويل من البول كل شيء ، فأكوام الغائط تنزاح فى يسر وتسقط فى الفتحة . كأنما ظل بعضها متبقياً فى النهاية .

لم انتبى عندى كل شعور بالاشمئزاز فى خلال هذا الحلم ؟

لأن هذا الحلم — كما يبينه التحليل — قد اشتركت فى تكوينه أشد الأفكار مجلبة للسرور وأكثرها بعثاً على الرضى . فما يخطر لى على الفور عند تحليل هذا الحلم هو حظائر أوجياس [1] التى نظفها هرقل . وهرقل هذا كان إياى . فأما التل والشجيرات فتأتى من آوسى حيث كان يقيم أطفالى فى ذلك الوقت . وإنى قد اكتشفت أن للعصاب عللا ترجع إلى الطفولة وبذلك جنبت أطفالى المرض . وأما المقعد فكان (إذا استثنينا الثقب بالطبع) صورة طبق الأصل من قطعة من الأثاث أهدتها إلى مريضة عارفة للجميل ، وهو — إذن — يذكرنى بمدى التكريم الذى ألقاه من مرضاى . لا ، بل إن متحف البراز الإنسانى نفسه ليجد تفسيراً من شأنه أن يثير سرورى ؛ فإنه — مهما بلغ اشمئزازى منه فى الحياة الواقعة — كان فى الحلم أثراً ذكروياً من أرض إيطاليا الجميلة حيث تهيأ المراحيض فى المدن الصغيرة — كما نعلم جميعاً — على هذا النحو عينه . وأما سيل البول الذى يغسل كل شيء فعلامة لا تخطئ على العظمة . فهكذا أطفأ جاليفر الحريق الكبير الذى شب فى ليليبيت — وإن يكن هذا العمل قد جر عليه يقيناً غضب الملكة الرقيقة . ولكن جارجنتوا — رجل رابليه الفائق — قد أخذ هو الآخر بثأره من أهل باريس بأن امتطى متن كنيسة نوتردام وصب سيل بوله على المدينة [2] ولقد اتفق يوم أمس على التحقيق أننى — قبل التوجه إلى الفراش — تصفحت رسوم جارنييه لكتاب رابليه . ومن العجب أن ههنا شاهداً جديداً على أننى الإنسان الفائق : فرصيف نوتردام كان كنفى المفضل فى باريس ، كلما فرغت فى عصر يوم جلت هنا وهناك على أبراج الكنيسة بين المسوخ والشياطين . فأما اختفاء كل الغائط بتلك السرعة تحت سيل البول فيذكر بشعار " نفخ فتبعثروا " الذى كنت انتويت أن أتخذه عنواناً لفصل فى علاج الهستريا . [أنظر ص ٢٣٤ .]

وعلينا الآن بالمناسبة الحافزة على الحلم . كان ذلك فى عصر يوم قائظ من أيام

---

(١) [ملك أغرقت الأساطير فى وصف ثروته حتى قيل : إن البراز المتراكم فى حظائره قد بلغ عنان السماء لكثرة مواشيه . ولم يستطيع تنظيفها إلا هرقل .]

(٢) [أنظر الهامش ٤ فى ص ٢٣٥ .]

الصيف ، وكنت — بعد الظهر — قد ألقيت محاضرتى فى الصلة بين الهستريا والانحرافات الجنسية . وكان كل ما قلته يبعث الاستياء فى نفسى ويبدو لى مجرداً من القيمة كل التجرد . كنت متعباً لا أستشعر أثراً من السرور بعملى المضنى ، تواقاً إلى البعد عن هذا التنبيش فى القاذورات الإنسانية إلى حيث يقيم أبنائى ثم — بعد ذلك — إلى روائع إيطاليا . وفى هذا المزاج مضيت من قاعة المحاضرة إلى أحد المقاهى حيث تناولت لقمة متواضعة ؛ فلم تكن بى شهية إلى الطعام . بيد أن واحداً من مستمعى جاء معى ورجا منى أن أدعه يجلس إلى جانبى ريثما أحتسى قهوتى وأتبلغ كسرتى ، ثم أخذ يتملقنى : كم من أشياء تعلمها منى ، وكيف أصبح ينظر إلى الأشياء بعين جديدة ، كيف نظفت حظائر أوجياس من الأخطاء ومن الآراء السابقة بنظريتى عن الأعصبة ، وبالاختصار قال قال لى : إننى رجل عظيم جداً . ولم أكن فى مزاج يتفق وهذا التقريظ ، فغالبت شعورى بالاشمئزاز ثم ذهبت إلى المنزل مبكراً لكى أفلت منه . وكان أن تصفحت رابليه قبل الذهاب إلى الفراش وقرأت قصة قصيرة من قصص ك . ن . ماير بعنوان " أحزان صبى " .

تلك هى المادة التى خرج منها الحلم . أضف أن قصة ماير القصيرة قد أثارت فى نفسى ذكريات عن مشاهد من الطفولة (أنظر الجزء الأخير من حلم الكونت تون [ص٢٣٥]) . ولقد استمر فى الحلم مزاج النفور والاشمئزاز الذى عرفته فى خلال النهار ، حتى أنه زود الحلم بكل مادة محتواه الظاهر تقريباً . سوى أن مزاجاً مضاداً من توكيد الذات توكيداً قوياً بل مغالياً قد استيقظ فى أثناء الليل ونحى الأول دون أن يبطله . ولم يكن لمحتوى الحلم بد من أن يجد صورة تمكنه من الإعراب عن هجاس الشعور بالضآلة وعن جنون العظمة فى آن واحد . وكان من نتيجة هذا التلاقى محتوى حلمى طابعه الاشتراك ، ولكن نجمت كذلك نغمة انفعالية متساوية نتيجة للكف المتبادل بين الأضداد .

ولو أخذنا بنظرية تحقيق الرغبة لزم أن هذا الحلم ما كان يتيسر لولا أن الأفكار المضادة الصادرة عن جنون العظمة (وهى أفكار كانت تقع تحت وطأة القمع من غير شك سوى أنها كانت ذات طابع لاذ) قد انبعثت إلى جانب الشعور بالاشمئزاز . فما هو أليم يجب ألا يصور فى الحلم ، وكل ما يؤلم من أفكارنا الحلمية لا ينفذ إلى الحلم إلا إذا هو أسلم فى الوقت نفسه قناعاً يتقنع به تحقيق رغبة ما .

وهناك بعد ذلك طريقة أخرى يستطيع بها عمل الحلم معالجة الحالات الوجدانية المتضمنة بين أفكار الحلم – إلى جانب تركها تشق طريقها أو سلبها كل حِدَّة، تلك هى : قلبها إلى ضدها .

فقد عرفنا من قبل [ص٣٤٩] تلك القاعدة التفسيرية : أن كل عنصر – من حيث تفسيره – قد يعرب عن ضده كما يعرب عن نفسه . ولسنا نستطيع أن نعلم مقدماً بأى الطرفين نأخذ ، وإنما الفصل للسياق ، ومن الواضح أن الشعور الشعبى قد أحس هذه الحقيقة ؛ فكتب الأحلام تنهج فى تفاسيرها وفق مبدأ الأضداد فى كثير من الأحايين . والذى يجعل هذا القلب إلى الضد شيئاً ممكناً هو هذه الرابطة الاستدعائية الباطنة التى تربط فى فكرنا بين فكرتنا عن شىء وبين ضدها . وهذا القلب – شأنه شأن أى نوع آخر من أنواع النقل – قد يخدم أغراض الرقابة ، ولكنه قد يكون أيضاً – فى أحيان كثيرة – وليد تحقيق الرغبة ؛ فما تحقيق الرغبة إلا أن تستبدل بشىء مستكره ضده . وإذا كانت أفكارنا المعربة عن الأشياء قد تظهر فى الحلم مقلوبة إلى ضدها ، فكذلك الحالات الوجدانية المرتبطة بأفكار الحلم ، والراجح – فيما يبدو – هو أن هذا القلب للحالة الوجدانية يجىء نتيجة لرقابة الحلم ، أو تلك هى القاعدة . ونحن فى الحياة الاجتماعية – تلك الحياة التى تزودنا بتشبيهنا المألوف لرقابة الحلم – نلجأ كذلك إلى قمع حالاتنا الوجدانية كما نلجأ إلى قلبها ، مستهدفين فى ذلك الاستخفاء أولا . فإذا كنت أحدث شخصاً تحملنى الضرورة على مداراته بينما رغبتى هى أن أرميه بكلمة عداء ، فإن إخفاء كل تعبير عن حالتى الوجدانية أمر يكاد يفوق فى أهميته وفى لزومه تخفيف العبارة اللغوية عن أفكارى ؛ فإنى إذا خاطبته بكلمات لا تجانب الأدب ولكنها تصطحب بنظرة أو بإشارة من الكراهية والاحتقار ، لم يختلف التأثير الذى أحدثه فى نفسه منه لو أننى رميته باحتقارى مجاهرة . وعلى ذلك كانت الرقابة تأمرنى أن أقمع حالاتى الوجدانية قبل كل شىء . فإن كنت معلماً فى فن الاستخفاء تلبست بالحالة المضادة : أبسم وأنا غاضب ، وأظهر الود ورغبتى الدمار .

ولقد مر بنا من قبل مثال ملحوظ على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية يقع فى الحلم نتيجة للرقابة . ففى حلم "عمى ذى اللحية الصفراء" [ص ١٦٢] أحسست أكبر الود نحو

صديقى ر . ، بينما كنت أدعوه فى أفكار الحلم مغفلا ، ولأننى كنت أدعوه كذلك . وقد كان من هذا المثال على قلب الحالة الوجدانية أننا خرجنا بأول إشارة إلى وجود رقابة الحلم . وهنا أيضاً ما من ضرورة تدعونا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يخلق مثل هذه الحالة الوجدانية من عدم ، بل القاعدة هى أنه يراها فى متناول يده بين أفكار الحلم ، كل الأمر أنه يزيدها شدة على شدة بالقوة النفسية التى لدافع الدفاع ، حتى تصير لها الغلبة فى تكوين الحلم . فالراجح فى حلم عمى الذى ذكرته هو أن الحالة الوجدانية المضادة — الحنان — قد انبعثت من مصدر طفلى (كما أوحاه الجزء الأخير من الحلم) ؛ لأن علاقة العم وابن الأخ قد صارت المنهل الذى ترد منه كل صداقاتى وعداواتى ، نتيجة للطابع الخاص الذى كان لأوائل خبراتى فى عهد الطفولة . [أنظر التحليل المساق فى ص ٤٢٤ وما بعدها .]

ونجد مثالا ملحوظاً على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية فى حلم رواه فرنتسى (١٩١٦) ، قال : « استيقظ سيد متقدم فى السن ذات ليلة ، أيقظته زوجه المذعورة ؛ لأنه كان يضحك فى نومه ضحكاً صاخباً مطلقاً . وقد ذكر الرجل بعد ذلك أنه كان يحلم الحلم الآتى : كنت راقد فى سريرى ثم دخل الغرفة سيد أعرفه ، حاولت أن أدير النور ولكننى لم أستطع . كررت المحاولة فلم تجد . عندئذ نهضت زوجتى لمعاونتى ، ولكنها عجزت هى الأخرى . تنزل فى النهاية عن محاولتها وتعود إلى فراشها لأنها كانت تشعر بالخجل أمام السيد لتجردها من الرداء بعض التجرد . وكان هذا كله شيئاً مضحكاً حتى لم أملك إلا أن أضحك ضحكاً مدوياً . وسألتنى زوجى : ولم تضحك ؟ لم تضحك ؟ ، ولكن ذلك لم يزدنى إلا ضحكاً حتى استيقظت . — وفى غداة هذا الحلم كان السيد يشعر باكتئاب وصداع ؛ فكل هذا الضحك قد كربه — أو هكذا ظن .

« إن هذا الحلم ليس بالحلم السار إلى المدى الذى يبدو ، لو بحثناه بحثاً تحليليا ؛ نفسيا ؛ لأن ' السيد المعروف ' الذى دخل الحجرة كان فى أفكار الحلم صورة للموت باعتباره ' المجهول الأكبر ' — وهى صورة طافت بخلده فى اليوم الذى سبق الحلم ؛ فقد وقع لهذا السيد المسن — وهو يشكو تصلب الشرايين — ما دعاه فى اليوم السابق إلى التفكير فى الموت . ولقد حل الضحك المطلق محل النحيب والبكاء لفكرة موته المحتوم ، ونور الحياة هو هذا الذى لم يعد يستطيع إدارته . ولعل هذه الفكرة المظلمة قد ارتبطت بمحاولات فى الجماع بذلها قبيل نومه دون أن يصيب توفيقاً وإن عاونته زوجه وهى متجردة ، فلحظ أنه قد أخذ فى الأفول . بيد أن الحلم أفلح فى تحويل هذه الفكرة المظلمة عن العنة

والموت إلى مشهد هزلى ، والنحيب حال إلى ضحك . »

وهناك طبقة من الأحلام تستحق بنوع خاص أن توصف بكونها أحلاماً " منافقة " ، ثم هى محك صعب لنظرية تحقيق الرغبة . ولقد اتجه انتباهى إلى هذه الأحلام حين أتت السيدة الطبيبة م. هيلفردينج بالحلم الآتى من أحلام روزجر [١] لمناقشته فى " جمعية ڤيينا للتحليل النفسى " .

يقول روزجر فى قصته " مطرود "[٢] : « إنى أنعم عادة بنوم عميق ، ومع هذا ما أكثر الليالى التى لم أذق فيها راحة ! — لأننى ، إلى جانب بدايتى المتواضعة طالباً وأديباً ظللت أجر معى سنوات طوالا ظل حياتى وأنا طرزى ، مثل شبح لا أستطيع الخلاص منه .

« ولا يعنى ذلك أننى فى خلال النهار ، كنت أشغل بأيامى الماضية انشغالا كثيراً أو كبيراً ؛ فمن نزع عن نفسه جلد الفلسطينى [٣] وراح يغزو الأرض والسماء يتجه بهمته إلى أمور أخرى . ولا كنت أكاد — وأنا فتى مرح مقدام — أفكر لحظة فيما يزورنى فى جنح الليل من الأحلام . ولكننى بعد ذلك ، حين اعتدت أن أفكر فى كل شىء ، أو حين أخذ الفلسطينى الكامن فى يختلج قليلا ، حينئذ فقط ساءلت نفسى : لم كنت ، إذا حلمت على الإطلاق ، رأيتنى طرزيا أجيراً ورأيتنى — وأنا كذلك — أقضى الساعات الطوال إلى جانب معلمى أعمل فى دكانه من غير أجر ؟ كنت أعلم حق العلم ، وأنا جالس إلى جانبه أخيط وأكوى ، أن مكانى الصحيح لم يعد هناك ، وأن أمامى — وأنا الحضرى — أمور أخرى أشغل بها . بيد أننى كنت دائماً فى إجازة ، وكان الوقت دائماً وقت إجازة الصيف . ولهذا كنت هناك بجانب معلمى أعاونه . وكان هذا الوقت المضيع الذى كان يسعنى أن أصنع فى أثنائه أموراً أخرى أكرم وأنفع ، كان يمضنى وكنت أتحسر عليه . وكنت بين الحين والحين ، إذا لم تجر الأمور على ما يرام ، أصغر كارهاً لملامة من معلمى ، وأما الأجر فما من كلمة عنه . ولكم عزمت وأنا جالس محنى

---

(١) [هو پيتر روزجر (١٨٤٣ — ١٩١٨) كاتب نمسوى معروف بلغ ذرى الشهرة بعد نشأة ريفية متواضعة .]

(٢) ["Fremd gemacht" "Waldheimat" ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٣ .

(٣) [Der Philister — لفظ كان الطلبة الألمان يطلقونه فى شىء من التحقير على كل من خرج عن الدوائر الجامعية وعلى التجار بنوع خاص ، على نحو ما يقول الفرنسيون أحيانا : " بورچوا " .]

الظهر فى الدكان المظلم على أن أترك العمل وأغادر المكان . لا ، بل إنى أقدمت على ذلك مرة . ولكن المعلم أخذ الأمر كأنه لم يكن ولم ألبث أن رأيتنى جالساً من جديد إلى جواره وأخيط .

« وكم كانت اليقظة حلوة بعد هذه الساعات الثقال . كنت أعقد العزم بعدها إذا عادنى هذا الحلم اللجوج إلا أن أطرحه طرح النواة وأن أصيح بأعلى صوتى : إن هذه إلا أضغاث أحلام ، إنى راقد فى سريرى أبتغى النوم . . ولكن تأتى الليلة التالية ، فإذا أنا جالس فى دكان الطرزى مرة أخرى .

« وهكذا دام الأمر سنوات فى اطراد يشيع العجب . ثم حدث مرة أننا كنا — معلمى وأنا — نعمل فى بيت ألپلهوفر (وهو الفلاح الذى اشتغلت فى داره حين عملت أجيرا للمرة الأولى) ، وأبدى معلمى استياء من عملى فوق استياءه المألوف ، فقال لى : أريد أن أعلم أين رأسك ! ، ثم نظر إلى نظرة مغبرة . وفكرت فى أن أصوب ما أستطيع صنعه هو أن أنهض واقفاً وأن أعلنه أننى لا أمكث معه إلا توخياً لمرضاته ثم أبرح . ولكننى لم أصنع شيئاً من ذلك . ولا أنا أبديت أقل اعتراض حين أخذ معلمى أجيراً آخر وأمرنى أن أترك له مقعدى ، بل انزويت فى الركن وأخذت أخيط . وفى هذا اليوم عينه ألحق المعلم بالعمل أجيراً آخر ، رجلا ذا ورع زائف ، هو الغجرى الذى عمل فى محلنا منذ تسعة عشرة عاماً ثم وقع مرة فى النهر وهو راجع من المنزل . فلما أجال الأجير الجديد بصره يلتمس مقعداً لم يكن فى المكان محل . ونظرت إلى معلمى أسأل فقال لى : إنك لا تصلح للخياطة ، لك أن ترحل ، أنت مطرود . — وعندئذ أحسست ذعراً طاغياً حتى أننى هببت مستيقظاً .

« كان ضوء المصباح الرمادى يلمع من خلال الستائر المسدلة نافذاً إلى غرفتى الأليفة ، وكانت روائع الفن تحف بى : ها هم أولاء فى صوان كتبى الأنيق هومير الخالد ودانته العملاق وشكسبير المنقطع النظير وجوته الماجد ، الخالدون العظام جميعهم . وفى الحجرة المجاورة ترن أصوات جلية طرية ، أصوات أبنائى الصغار وهم يستيقظون ويمازحون أمهم . لكأنى اكتشفت من جديد هذه الحياة الحلوة كعيش الرعاة ، الوادعة ، الشاعرة ، الروحية ، التى عرفت فيها السعادة الإنسانية التأملية وذقتها ذوقاً عميقاً . ومع هذا ، كان يغضبنى أننى لم أسبق معلمى فأتركه مختاراً ، بل شيعت مطروداً .

« ثم كم كان دهشى بعد ذلك : فمنذ الليلة التى طردنى فيها معلمى وأنا أنعم بالسلام ، لم أعد أحلم بأيام الطرزى المستكنة من ورائى فى الماضى السحيق ، تلك الأيام التى كانت — والحق يقال — أياماً هانئة فى خلوها من كل اقتضاء ولكنها ظلت تنشر فوق مستأنف سنواتى كل هذا الظل القاتم الممدود . »

إن من الصعب أن نتبين أين تحقيق الرغبة فى هذه السلسلة من الأحلام التى أتاها مؤلف كان فى صباه طرزيا أجيراً . فكل سعادة الحالم كائنة فى حياته التى يحياها بالنهار فى حين يصر الحلم على ملاحقته بشبح حياته الشقية التى لم يخرج منها إلا بشق النفس . ولكن أحلاماً لى تماثل هذه فى النوع قد مكنتنى من ألقى بعض الضوء على هذا الموضوع . ذلك أننى عملت زمناً طويلا — وأنا طبيب شاب — فى معهد كيميائى دون أن أبرز يوماً بموهبة من الموهبات التى يقتضيها هذا العلم . ولهذا كنت دائماً فى حياتى المستيقظة أصدف عن التفكير فى هذه الفترة العقيمة والمذلة بحق فى تاريخ تعلمى . بيد أننى — من جهة أخرى — كنت أحلم مراراً بأننى أعمل فى المعمل وأقوم بالتحليلات وأجرى مختلف التجارب. هذه الأحلام أحلام مستكرهة على نحو ما كانت أحلام الامتحان ثم هى لا تجىء متميزة أبداً . وكنت أفسر أحدها حين جذبت انتباهى كلمة " تحليل " التى أعطتنى المفتاح إلى فهمها . فمنذ هاته الأيام صرت « محللا » وإنى لأقوم اليوم بتحليلات تلقى تقديراً رفيعاً وإن تكن يقيناً تحليلات نفسية . وهكذا فهمت السر : إذا كنت أستشعر الفخر فى حياتى النهارية لأننى أنوم بتحليلات من هذا القبيل وأحس نزوعاً إلى أن أباهى نفسى بمدى ما صرت إليه من النجاح ، فإن أحلامى تذكرنى فى أثناء الليل بهاته التحليلات الأخرى المخفقة ، الخالية من كل وجه يدعو إلى الافتخار ؛ إنها أحلام عقاب تنزل بحديث النعمة مثل أحلام الطرزى الأجير الذى صار مؤلفاً ذائع الصيب . ولكن كيف يتسنى لحلم وسط هذا الصراع بين غرور حديث النعمة وبين نقده لنفسه أن ينحاز إلى جانب هذا النقد وأن يختار لمحتواه تحذيراً معقولا بدل التحقيق غير المشروع لرغبة من الرغبات ؟ لقد ذكرت من قبل أن الإجابة عن هذا السؤال تثير صعوبات شتى ولكننا نستطيع أن نستنتج أن أساس الحلم كان فى أول الأمر تخييلا طامحاً ، مغرقاً فى الطموح ، ثم نفذت إلى الحلم بدل ذلك أفكار مذلة جاءت فألقت ماء بارداً على هذا التخييل . فلا ننسى أن بالنفس دوافع ماسوشية قد تكون هى السبب فى مثل هذا القلب . ولست

أرى ما يمنع دون تمييز هذه الأحلام من أحلام " تحقيق الرغبة " تحت عنوان " أحلام العقاب " ؛ فما كنت لأرتأى فى هذه التفرقة قيداً يحد نظرية الحلم التى لم أزل أعرضها ، بل هى تنازل لفظى محض تجاه وجهة النظر التى ترى فى اجتماع الأضداد شيئاً عجيباً [١] . ثم إن إمعان النظر فى بعض الأحلام التى من هذه الطبقة يلقى الضوء على شىء آخر . فقد جاء فى هامش أحد أحلامى عن المعمل جزء غير متميز بدوت فيه وأنا فى هاته السن التى عرفت فيها على التحقيق أظلم سنوات حياتى الطبية وأقلها حظاً من النجاح : كنت لا أزال بغير وظيفة ، لا أعرف كيف أرتزق . ولكن تكشف لى فجاءة أننى كنت إذ ذاك لا أزال أملك الخيار بين أكثر من امرأة أستطيع التزوج بها ! أى أننى كنت شاباً من جديد ثم — قبل كل شىء — كانت أيضاً شابةً من جديد الزوجة التى شاركتنى كل هاته السنوات الصعاب . وهكذا تجلى أن الباعث اللاشعورى على الحلم كان رغبة من هذه الرغبات التى لا ينى عن أن يتلظى بها قلب الرجل الذى تتقدم به السن . فالصراع الناشب فى طبقات أخرى من النفس بين غرور الإنسان ونقده نفسه هو الذى حدد محتوى الحلم ، هذا صحيح . ولكن الرغبة فى الشباب — هذه الرغبة الأعمق جذوراً — هى وحدها التى مكنت لهذا الصراع سبل الظهور فى صورة الحلم . وإنا — بين الحين والحين — لنحدث أنفسنا قائلين : " كل شىء اليوم على أحسن ما يكون ، وزمان الصعاب قد انقضى ، ومع هذا كم كانت جميلة تلك الأيام ، كنت لم تزل شاباً فتيا . "

ووقعت لى طائفة أخرى من الأحلام عرفت فيها طابع النفاق [٢] ، يدور محتواها حول مصالحة أناس انقطعت أسباب الصداقة بين الحالم وبينهم منذ زمن بعيد : فى مثل هذه الحالات يكشف التحليل عادة عن دافع يحث المرء على أن يطرح البقية الباقية مما يكنه من الرعاية لهؤلاء الأصدقاء القدماء وعلى معاملتهم معاملة الغرباء والأعداء . ولكن الحلم يؤثر إلا أن يصور العلاقة المضادة .

ومن الحكمة حين نكون رأياً يتصل بأحلام رواها كاتب مبدع أن نفترض أنه

---

(١) منذ قسم التحليل النفسى الشخصية إلى أنا وأنا أعلى (فرويد ١٩١٢ ج [وأيضا ١٩٢٣ ب]) صار من السهل أن نعرف أن أحلام العقاب هذه تحقق رغبات الأنا الأعلى .

(١) [أضيفت هذه الفقرة عام ١٩١٩ ، والظاهر أنها أضيفت فى غير موضعها ؛ وربما كان موضعها الصحيح بعد الفقرتين التاليتين . ومن المؤكد أن فرويد يشير هنا إلى حلم يتصل بفايس بعد أن انقطعت أسباب الصداقة بينهما .]

قد حذف فى خلال روايته تفاصيل من محتوى الحلم لاحت له غير جوهرية أوقد تبدد الانتباه ، وفى هذه الحالة تثير أحلامه مشكلات قد كان يسهل حلها لو أنه أورد محتواها كاملا .

وقد نبهنى أوتورانك إلى أن قصة جريم عن الطرزى الصغير الجسور أو " سبعة فى ضربة واحدة " قد حوت حلماً مماثلا كل المماثلة يأتيه حديث نعمة : ففيها نرى الطرزى الذى أصبح بطلا وصهراً للملك يحلم ذات ليلة بحرفته القديمة و زوجه الأميرة راقدة إلى جواره . وترتاب هذه فى الأمر فتأتى بحراس مدججين توقفهم لكى يسترقوا السمع فى الليلة التالية ويلقوا القبض عليه . ولكن الطرزى الصغير يجد من يحذره فيعرف بعد ذلك كيف يصحح حلمه .

إن العمليات المعقدة التى تحول بوساطتها الحالات الوجدانية المتضمنة فى أفكار الحلم إلى تلك الظاهرة فيه — عمليات الاستبعاد والانتقاص والقلب — يمكن تأثرها على نحو مرض فى مؤلفات حلمية مناسبة سبق تحليلها تحليلا وافياً . وسأنتخب الآن بضعة أمثلة أخرى على الحالات الوجدانية فى الحلم ، أمثلة نرى فيها الإمكانيات التى أحصيتها وقد تحققت .

(٥)

إذا عدنا إلى حلم المهمة العجيبة التى كلفنى إياها بروكيه الشيخ — أن أُشَرِّحَ حوضى [ص٤٥١] — رأينا أننى قد افتقدت فى الحلم نفسه ما كان يتلائم ومثل هذه المهمة

من الشعور بالفظاعة . وأضيف الآن أن ذلك كان يحقق رغبة بأكثر من معنى . فالتشريح كان يعنى تحليلى النفسى الذى أقوم به كأنما كان ذلك من أجل نشر هذا الكتاب — وهو أمر كان يؤلمنى فى الحقيقة حتى أننى أجلت طبع المخطوط سنة أخرى بعد الفراغ منه . وهنا انبعثت الرغبة فى أن أتغلب على هذه الكراهية ؛ فلم أشعر فى الحلم بفظاعة ما . ولكننى أود كذلك لو أفلت من هذه الفظاعة ["Grauen"] بالمعنى الآخر للكلمة [وهو الشيب] ؛ فقد أخذ شعرى يضرب إلى المشيب ، وهذا الشيب يذكرنى كذلك بأن أكف عن الإرجاء . ونحن نعلم أن هذا الخاطر : أننى قد أضطر إلى أن أترك لأبنائى تحقيق الهدف الذى لم أبلغه من رحلتى الصعبة — قد نفذ إلى التصور عند خاتمة الحلم .

دعنا الآن نبحث الحلمين اللذين نقلا تعبير الرضا إلى اللحظة التى أعقبت اليقظة مباشرة . لقد نسب الرضا فى حالة إلى ما توقعته من كشف وشيك عن معنى « قد حلمت بذلك من قبل » بينما كان هذا الرضا يشير فى حقيقة الأمر إلى مولد أولادى الأوائل [ص ٤٤٥] ، ونسب الرضا فى الحالة الثانية إلى أن « وعدا » قد تحقق بينما كانت الإشارة الصحيحة فى هذا الحلم أشبه بها فى سابقه ، فلم يكن الرضا إلا هذا الذى هللت به لمولد ابنى الثانى [ص٤٤٦] . وهكذا نجد هنا أن الحالات الوجدانية المسيطرة فى أفكار الحلم قد بقيت فى الحلمين ، ولكن أكبر الظن أنه ما من حلم تجرى فيه الأمور على هذا النحو من البساطة . فلو أننا تعمقنا تحليل هذين الحلمين قليلا لعلمنا أن هذا الرضا الذى يفلت من الرقابة قد لقى تعزيزاً من مصدر آخر كان من شأنه أن يخشى الرقابة وما كانت الحالة الوجدانية المنبعثة منه لتلقى من غير شك سوى المعارضة ، لولا أنها استترت وراء حالة الرضا المماثلة ، المشروعة ، المستقاة من مصدر لا اعتراض عليه ، وبذا تسللت — إن جاز التعبير — تحت جناحها . ولست أستطيع لسوء الحظ أن أوضح ذلك فى صدد هذين الحلمين بالذات ، ولكن ها هوذا مثال مستمد من مجال آخر يوضح معناى : دعنا نفترض الموقف الآتى : هب بين معارفى شخصاً أضمر له الكراهية بحيث أحس نزوعاً قوياً إلى الاغتباط كلما خالفت الأمور مشتهاه ، ولكن الجانب الخلقى فى طبيعتى لا يفسح الطريق لمثل هذا الشعور فلا أجرؤ على أن أعرب عن رغبة فى أن يعثر حظه ، وإن أصابه مكروه غير مستحق تكلفت مظاهر الأسف وأفكاره — كل إنسان قد رأى نفسه فى هذا الموقف يوما ما . والآن هب أن هذا الشخص المكروه قد جر على نفسه ضراً مستحقاً لعثرة من جانبه : إن الذى يحدث عندئذ هو أننى أطلق العنان لرضاى عن كونه قد لقى عقاباً عادلا ، وإنى لأرانى متفقاً فى ذلك مع أناس غيرى كثيرين ، لا شبهة فى إنصافهم . بيد أننى قد ألحظ أن رضاى هذا يبدو أكثر شدة من رضا هؤلاء الآخرين ؛ فهو قد لقى تعزيزاً من مصدر الكراهية الذى ظل حتى ذلك الحين لا يجد سبيلا إلى إحداث أثره الوجدانى لضغط الرقابة الداخلية ، ولكنه — وقد تغيرت الملابسات — لم يعد يصادف مثل هذا الحائل . وذلك هو ما يحدث فى الحياة الاجتماعية عامة كلما جانب الحق أناس مستثقلون أو أفراد منتمون إلى أقلية مبغضة . فعقابهم لا يقابل فى العادة جرمهم ، بل جرمهم مضافاً إليه هذا القسط من

الضغن المكنون نحوهم والذى ظل من قبل لا يحدث أثراً . ولا شك فى أن من يوقعون عليهم القصاص يرتكبون فى ذلك جوراً ، ولكن يحول بينهم وبين إدراك جورهم هذا الرضا الناجم عن إزاحة القمع الذى ظلوا يتكلفونه زمناً طويلا . والحالة الوجدانية فى مثل هذه الأحوال حالة لها ما يبررها من حيث الكيف ولكنها ليست كذلك من حيث مقدارها. سوى أن نقد الإنسان نفسه إذ يهدأ من ناحية لا يستشعر كبير ميل إلى مراجعة الأخرى . وما أن تفتح باباً حتى يتسع اقتحامه لعدد من الناس أكبر ممن كنت تنتوى فى البدء تركهم يدخلون .

وعلى هذا النحو يجب أن نعلل سمة عجيبة فى طبع العصابيين — وذلك بقدر ما تسمح هذه السمة بأى تعليل نفسى على الإطلاق — وأعنى بها أن العلل القادرة على إطلاق حالة وجدانية معينة تحدث عندهم نتيجة لها مبررها من حيث الكيف ولكنها مفرطة من حيث الكم . ذلك أن الإفراط ينجم هنا عن منابع لا شعورية ، بقيت مقموعة حتى ذلك الحين ، ولكنها أفلحت فى أن تجد روابط استدعائية تصل ما بينها وبين المناسبة المدركة فى الواقع ، وبذلك فتح هذا المصدر الأخير المشروع الذى لا غبار عليه سبيل الانطلاق أمام الحالات الوجدانية المرتبطة بهاته المنابع . وفى ذلك ما ينبهنا إلى أننا حين ندرس العلاقة بين العاملين القامع والمقموع يجب ألا ننظر إلى هذه العلاقة كما لو كانت علاقة كف متبادل وحسب ، بل يجب أن نوجه قسطاً مساوياً من انتباهنا إلى الحالات التى يجتمع فيها كلا العاملين على إحداث نتيجة مَرَضية بأن يعملا جنباً إلى جنب وبأن يعزز كل منهما الآخر . ولنستخدم الآن هذه الملاحظات العابرة حول ميكانيكيات الحياة النفسية فى فهم التعبيرات الوجدانية فى الحلم : إذا عرضت فى الحلم حالة من الرضا وأمكن بالطبع أن نكشف على الفور عن مكانها بين أفكار الحلم ، فهذا الكشف وحده لا يغنى دائماً فى تعليل هذه الحالة تعليلا تاماً ، بل القاعدة هى أن يستلزم تعليلها التام البحث عن مصدر آخر لها ، واقع تحت ضغط الرقابة — مصدر كان من شأنه وهو تحت هذا الضغط ألا يجلب الرضا بل ضده ، لولا أن مجىء المصدر الحلمى الأول قد أتاح له الإفلات بالحالة الوجدانية الناجمة عن إرضائه من وطأة الكبت وأتاح له تركها تنطلق باعتبارها معززاً لحالة الرضا المنبعثة من المصدر الأول . وبذا يتبين أن الحالات الوجدانية فى الحلم ترد من عدة من المنابع المتلاقية وأنها كثيرة الحتم من حيث علاقتها بمادة أفكار

الحلم : فى خلال عمل الحلم تجتمع على إحداث حالة وجدانية معينة جميع المصادر القادرة على توليد هذه الحالة [١].

إننا نستطيع أن ننفذ ببصرنا قليلا فى هذه العلاقات المعقدة ، إذا حللنا هذا النموذج الحلمى البديع الذى كونت كلمتا "Non vixit" منطقته الرئيسة [ص٤٢١ وما بعدها] . فقد اجتمعت فى موضعين من المحتوى الظاهر لهذا الحلم تعبيرات وجدانية مختلفة الكيف . ففى الموضع الذى أعدمت فيه صديقى وخصمى بهاتين الكلمتين تراكمت فى نفسى مشاعر من العداء والألم جميعاً (" وليتنى انفعالات غريبة " — تلك كانت كلمات الحلم) . ثم عند نهاية الحلم يتولانى فرح عظيم وأذهب إلى تأييد تلك الإمكانية التى أعلم فى الحياة المستيقظة بطلانها : أن يكون ثمت عائدون يسهل محوهم برغبة ليس غير .

غير أننى لم أرو بعد مناسبة الحلم . وهى مع ذلك ذات أهمية جوهرية وتذهب بنا شوطاً بعيداً فى فهم الحلم : فقد كنت سمعت أن صديقى الذى يقطن برلين (والذى أشرت إليه بحرف ف . [أى فليس] كان مقبلا على عملية جراحية وأن أحد أقاربه القاطنين بڤيينا سوف يحمل إلى ما يجد من أنباء حالته الصحية . وكانت الأنباء الأولى بعد العملية غير مطمئنة ، فثار قلقى . وكنت أفضل لو أمكننى الذهاب إليه بنفسى ، ولكننى كنت فى ذلك الوقت بالذات فريسة لشكاة موجعة صارت معها كل حركة تصدر عنى عذاباً على . وإنى أعلم الآن من أفكار الحلم أنى كنت خائفاً على حياة صديقى ! فقد ماتت أخته التى لم أعرفها قط وهى — على ما علمت — فى باكورة الشباب ، بعد مرض قصير جداً (فى الحلم : يتحدث ف . عن أخته ويقول : إنها ماتت فى خمس وأربعين دقيقة) ولا بد أننى تخيلت أن بنية صديقى لا تزيد كثيراً من حيث قدرة الاحتمال على بنية أخته وأن الأنباء قد تسوء كثيراً فأضطر فى النهاية إلى السفر وأصل متأخراً ويكون ذلك شيئاً لا أكف مدى الحياة عن مؤاخذة نفسى عليه[٢] . ولقد صارت هذه المؤاخذة على التأخر فى الوصول هى النقطة الرئيسة فى الحلم ، إلا أنها صورت بوساطة المشهد الذى

---

(١) وعلى هذا النحو عللت الأثر اللاذ الخارق القوة الذى تحدثه النكات المغرضة [فرويد ١٩٠٥ ج ، فى نهاية الفصل الرابع .]

(٢) إن هذا التخييل الذى كان يكون جزءاً من أفكار الحلم اللاشعورية هو الذى كان يتطلب وضع "non vivit" بدل "non vixit" [" غير حى " بدل " لم يحى "] : " لقد جئت متأخراً ، إنه الآن غير حى . " وسبق أن وضحت فى صفحة ٤٢٤ أن محتوى الحلم الظاهر كان يتطلب أيضا "non vivit" .

رأيتنى فيه طالباً ورأيت أستاذى المبجل بروكه يصوب إلى اللوم بنظرة مروعة من عينيه الزرقاوين — ولن نلبث طويلا دون أن نرى ما الذى عرج بالموقف [المتخيل بإزاء فليس] هذا التعريج. ولم يكن من المستطاع أن يستحضر الحلم المشهد [الذى وقع مع بروكه] على الصورة التى عشته فيها ، فكان أن تركت العينين الزرقاوين للوجه الآخر [ب .] ولكن الإعدام وكل إلى — وهو قلب لا يخفى أنه قد جاء بفعل تحقيق الرغبة . فقلقى على صحة صديقى ومؤاخذتى نفسى على كونى لا أذهب إليه وخجلى من جراء ذلك — جاء إلى ثيينا (ليرانى) خلسة — ثم الحاجة إلى أن ينفع مرضى فى عذرى ، كل أولئك قد اجتمع على إحداث الزوبعة الانفعالية التى استشعرتها بجلاء فى خلال النوم والتى كانت تعصف فى هذه المنطقة من أفكار الحلم .

ولكن مناسبة الحلم قد تضمنت شيئاً آخر كان له فى نفسى أثر مخالف كل المخالفة . فالأخبار غير المطمئنة التى تلقيتها فى الأيام القليلة الأولى بعد العملية قد جاءت يصحبها تحذير من أن أحدث أحداً بشىء من هذا كله . ولقد ساورنى هذا التحذير لأنه كان ينم عن ارتياب فى أمانتى على السر لا داعى إليه . صحيح أننى كنت أعلم أن هذه التوصية لم تصدر عن صديقى بل مرجعها خلو الشخص الوسيط من اللباقة أو زيادة فى قلقه ، ومع هذا فقد آلمنى هذا اللوم المقنع ؛ لأنه لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات ، فلا تثير ثائرة المرء — على ما نعلم جميعاً — إلا الملامة التى تصيب منه " مطعناً " . وأنا إذ أقول ذلك لا ألمح — والحق يقال — إلى واقعة جرت مع هذا الصديق ، بل إلى بادرة بدرت منى وأنا أصغر كثيراً فى السن : فقد كان لى إذ ذاك صديقان ، كان كلاهما قد شرفنى بهذا الاسم ، فأخبرت أحدهما من غير داع بما قاله الآخر عنه . وكان اللوم الذى سمعته إذ ذاك لم يزل عالقاً كذلك بذاكرتى . وكان أحد هذين الصديقين هو أستاذى فلايشل ، وأستطيع أن أدعو الآخر باسمه الأول يوسف — وهو أيضاً الاسم الأول لصديقى وغريمى فى الحلم : ب .

هذه المؤاخذة على عجزى عن أن أكتم شيئاً فى نفسى يشهد عليها فى الحلم العنصر خلسة وسؤال ف . عن مدى ما أفضيت به من شؤونه إلى ب . وإن تدخل هذه الذكرى هو الذى عرج باللوم على التأخر فى الوصول من الوقت الحاضر إلى ذاك الوقت الذى

كنت أعمل أثناءه فى معمل بروكه[١] ، كما أننى إذ أحول الشخص الثانى فى مشهد الإعدام إلى يوسف لا أجعل هذا المشهد يصور مؤاخذتى على التأخر فى الوصول وحسب ، بل أجعله يصور كذلك ذاك اللوم المنكبت بكبت أشد كثيراً على أننى لا أكتم سراً . وهنا يبرز للعيان ما يقوم به الحلم من عمل التكثيف والنقل ، كما تبرز دوافعهما .

ثم إن غضبى الحاضر — وهو طفيف — لما حذرت به من ألا أفضى بشىء [عن مرض صديقى فليس] يلقى أمداداً تجيئه من أعماق النفس ، وبذا يتضخم حتى يصير تياراً من المشاعر العدائية نحو أشخاص أكن لهم فى الواقع كل حب . والمنبع الذى ترد منه هذه الأمداد هو الطفولة . فقد ذكرت من قبل [ص ٤٢٤ و٤٢٥] كيف ترجع كل مشاعرى المحتومة نحو معاصرى ، بالصداقة وبالعداوة ، إلى علاقتى فى زمن الطفولة بابن أخ كان يكبرنى بعام واحد ، كيف كان هذا القريب يفوقنى وكيف تعلمت الذود عن نفسى تجاهه منذ زمن مبكر ، كيف كنا صديقين لا نفترق وكنا — وإنا لكذلك — نتشاجر ويشكو كلانا الآخر ، على ما يرويه الأكبرون . إن جميع أصدقائى هم بمعنى من المعانى تقمصات لهذا الوجه الذى " تكشف منذ باكورة الزمن لنظرتى المضطربة "[٢] ، إنهم جميعاً عائدون [Revenants] . وقريبى نفسه قد عاد إلى الظهور فى صباى ، فلما عاد لعبنا سوياً قيصر وبروتوس ، وظل مطلباً لا تستغنى عنه حياتى الانفعالية أن يكون لى صديق حميم وعدو مقيت . وكان يسعنى دائماً أن أزود نفسى بكليهما المرة بعد المرة . ولم يكن من النادر أن يتكرر النموذج الطفلى بحذافيره حتى ليجتمع فى الشخص الواحد العدو والصديق — وإن لم يجتمعا بالطبع فى آن معاً أو فى ذبذبة دائمة كما كان العهد فى الطفولة الأولى .

---

(١) [لا بد للقارئ — لكى يتمكن من متابعة فرويد هنا وفى الصفحات القادمة — من الإلمام ببعض حقائق حياته : كان فرويد بين عامى ١٨٧٦ و ١٨٨٢ يعمل فى المعهد الفيزيولوجى . وكان يرأس المعهد بروكه (١٨١٩ — ١٨٩٢) يعاونه إرنست فلايشل فون ماركسوف (١٨٤٦ — ١٨٩١) وسيجموند إكستر (١٨٤٦ — ١٩٢٥) وكلاهما يكبر فرويد بعشر سنوات . ولقد مات فلايشل بعد مرض شديد نزل به فى السنوات الأخيرة من حياته . وفى هذا المعهد أيضا التقى فرويد بيوسف برويز (١٨٤٢ — ١٨٢٥) . وكان برويز يكبر فرويد كثيراً فى السن وفى الجاه ، كما كان له أثر معروف فى نشأة التحليل النفسى عند فرويد ، فقد تحدث به فرويد فى كثير من المواضع . وهو ثانى اليوسفين فى هذا التحليل ، هذا الذى أوقع فرويد بينه وبين فلايشل . فأما يوسف الأول الذى يظهر فى الحلم " صديق وغريمى پ . " فهو يوسف پانيت (١٨٥٧ — ١٨٩٠) الذى خلف فرويد فى منصبه بالمعهد .]

(٢) [جوته ، فاوست ، الإهداء ، السطر الثانى .]

ولست أرى أن أبحث فى هذا الموضع كيف يقع فى مثل هذه الملابسات أن ترتد مناسبة حديثة لإحدى الحالات الوجدانية إلى موقف قديم ثم يحل هذا الموقف القديم محلها فيما يتعلق بإحداث هذا الوجدان . فهذه المسألة جزء من سيكولوجية اللاشعور ، ولقد كانت تجد مكانها المناسب بين إيضاح سيكولوجى للأعصبة . دعنا نفترض — لأجل ما نستهدفه من تفسير الحلم — أن إحدى ذكريات الطفولة قد انبعثت أو أن المخيلة قد ركبتها ، وأن محتواها كان شيئاً شبيهاً بما يأتى : يتنازع الطفلان شيئاً ما (ونستطيع أن نترك جانباً السؤال عما هو هذا الشيء وإن كانت الذكرى أو الذكرى المكذوبة تلمح إلى شيء محدد تمام التحديد) ويدعى كلا الطفلين أنه كان الأسبق وأنه بناء على ذلك صاحب الحق الأول ، ثم تجيء اللكمات وتطغى القوة على الحق — وإذا صدقت إشارات الحلم فقد كنت أعلم حق العلم أنى كنت على خطأ (ألحظ خطأى) بيد أننى أقوى الطرفين فى هذه المرة ، فأظل سيداً على الميدان ، ويسرع الجانب المهزوم إلى جده — وهو والدى — ويشكونى إليه ، فأدافع عن نفسى بالكلمات التى أعلمها من رواية أبى : ضربته ؛ لأنه ضربنى . إن هذه الذكرى أو — على الأرجح — هذا التخييل الذى يرد على خاطرى وأنا أحلل الحلم — دون مزيد من الإيضاح ، لا أدرى أنا نفسى كيف — هو الذى يكون الجزء الرئيس بين أفكار الحلم ، الجزء الذى يجمع ما يشتعل بين هذه الأفكار من الانفعالات ، كما تجمع البئر الماء الذى يصب فيها . ومن هذه النقطة تنساب أفكار الحلم على النهج الذى يلى : لا تلومن إلا نفسك إذا ضطررت إلى أن تخلى الطريق أمامى ، ما الذى دفعك إلى أن تحاول إزاحتى من الطريق ؟ إنى لست بحاجة إليك وإنه لأمر هين أن أجد شخصاً آخر سواك يلعب معى بدلا منك ، إلخ . ثم بعد ذلك تسير هذه الأفكار فى المسارات التى تؤدى بها إلى التصور فى الحلم . فقد دعتنى الأسباب فى يوم من الأيام إلى أن ألوم صديقى يوسف [ب .] على مثل هذا المسلك ، مسلك : " قم وأنا أقعد مكانك[1] " . فهو قد جاء عقبى مدرباً فى معمل بروكه . وكانت الترقية هناك بطيئة عسيرة ، فما كانت بمعاونى بروكه كليهما أقل رغبة فى أن يتزحزحا من مكانيهما ، بينما صبر الشباب نافد . فكان صديقى الذى لم يكن يجهل أن أيامه معدودات ولم تكن تربط بينه وبين رئيسه

(١) ["ôte-toi que je m'y mette"]

المباشر أواصر وثيقة — كان يعرب أحياناً عن نفاد صبره إعراباً صريحاً . وإذ كان رئيسه هذا [فلا يشل] مصاباً بمرض خطير فقد أمكن رغبة ب . أن تحتمل معنى أقبح من من مجرد الأمل فى الترقية . وقد كان أمراً طبعياً أننى — قبل ذلك بسنوات — كنت قد أضمرت رغبة كانت أكثر بعد احتداماً فى ملء مكان شاغر ؛ فأينما وجدت الدرجة والترقية فى هذه الدنيا ، انفتحت الطريق أمام رغبات تتطلب القمع : أما عجز الأمير الشاكسبيرى هال عن أن يقاوم ما أغرته به النفس — وهو ما زال بجوار أبيه الراقد على فراش مرضه — من أن يجرب التاج لكى يرى بعينه كيف يلوح فوق رأسه ؟[1] ولكن الحلم — كما نتوقع — لا يعاقبنى أنا على هذه الرغبة الخبيثة ، بل يعاقب صديقى [2] .

" كان طموحاً ، فقتلته" . لم يستطع أن يتمهل حتى يخلى الآخر مكانه ، فأزيح هو نفسه . تلك كانت الخواطر التى دارت بخلدى بعد أن حضرت رفع الستار عن النصب التذكارى المقام فى الجامعة — لشخص آخر وليس له . وعلى ذلك كان بعض الرضا الذى استشعرته فى الحلم يعنى : جزاء عادل ، لا تلومن إلا نفسك .

ولقد حدث فى جنازة صديقى [ب.] أن أحد الشبان أتى بملاحظة لم تكن تناسب المقام ، كان مؤداها أن الطبيب الذى ألقى كلمة الرثاء قد تحدث كما لو كانت الدنيا مقبلة على نهايتها بعد أن فقدت هذا الرجل الفرد . نعم ، إن هذه الملاحظة كانت تعرب عن الرفض الذى يعتمل فى صدر رجل صادق أزعجت المبالغة حزنه ، إلا أنها اجتذبت إليها أفكار الحلم الآتية : نعم ، إن لمن الحق أنه ما من أحد لا يعوض ؛ فما أكثر من شيعت إلى القبر ، ومع هذا لم أزل حيا ، لقد عشت دونهم جميعاً وبقيت سيداً على الميدان . وإن فكرة من هذا القبيل فى اللحظة التى كنت أخشى فيها ألا أجد صديقى بين الأحياء حين أسافر إليه لا يمكن أن تقبل تفسيراً آخر سوى أننى كنت مسروراً لأنى سأثبت على البقاء مرة أخرى بعد شخص سواى ، لأنه هو الميت وليس إياى ، لأننى سيد الميدان من جديد — كما كنته فى المشهد المتخيل عن طفولتى . هذا الرضا الطفلى فى مصدره لبقائى سيداً على الميدان هو الذى يكون الجزء الأكبر من الحالة الوجدانية التى ظهرت فى الحلم : إنى أستشعر السرور لأننى باق حين يولى غيرى ، وأعرب عن هذا

(١) [هنرى الرابع ، الفصل الرابع ، المشهد الخامس.]

(٢) يلاحظ القارئ أن اسم يوسف يقوم بنصيب كبير فى أحلامى . ذلك أن من السهل على أنا أن يختبئ وراء هذا الاسم ؛ لأن يوسف كان أيضا اسم مفسر الأحلام المعروف فى التوراة .

السرور بكل الأنانية الساذجة التى تتكشف فى قصة الزوجين اللذين يقول أحدهما للآخر : إذا مات أحدنا فسأذهب إلى باريس . إلى هذا المدى كان يبدو لى أمراً بديهاً أن المائت لن يكون إياى .

إننا لا نستطيع أن ننكر أن تفسير الأحلام وروايتها عمل يتطلب ضبطاً شاقاً للنفس ؛ فالمرء لا يجد مناصاً من أن يتكشف فى صورة الوغد الأوحد وسط موكب الطبائع النبيلة ممن يشاطرونه الحياة . وهكذا بدا لى أمراً طبعياً جداً أن العائدين إنما يوجدون بقدر ما يود لهم المرء البقاء ، فإن شاء انمحوا . ولقد رأينا علام كان عقاب صديقى يوسف . غير أن العائدين هم التجسدات المتعاقبة لصديق طفولتى . وأنا إذن أستشعر الرضا كذلك لأننى استعطت دائماً أن أجد بدائل لهذا الوجه ولأننى لن ألبث طويلا قبل أن أعثر على بديل لهذا الصديق [فليبس] الذى كنت أوشك على فقده : ما من أحد لا يعوض

ولكن ماذا عن الرقابة ؟ لماذا لم تثر أقوى المعارضة فى وجه خواطر تتسم بمثل هذه الأثرة الوحشية فتقلب الرضا المرتبط بهذه الأفكار إلى ألم شديد ؟ السر فيما أعتقد هو أن أفكاراً أخرى لا اعتراض عليها ، متعلقة بهؤلاء الأشخاص أنفسهم ، قد لقيت فى ذات الوقت ما يرضيها ، فكان أن حجبت الحالة الوجدانية المقترنة بها تلك المنبعثة من المصدر الطفلى . ذلك أننى عند الاحتفال برفع الستار عن النصب التذكارى قد حدثت نفسى فى طبقة أخرى من الفكر بتلك التأملات : لكم فقدت من الأصدقاء الأعزاء ، أفقدنى الموت البعض والبعض الآخر أفقدنى إياه ما انفصم من عرى الصداقة ، لقد كان من حسن الحظ أننى وجدت من يعوضنى عنهم ، أننى اكتسبت صديقاً يعنى فى نفسى الشىء الكثير ، أكثر من كل ما استطاعه الآخرون ، وذلك فى زمن لا يسهل فيه على المرء أن يعقد صداقة جديدة ، لسوف أحتفظ بصداقته أبد الدهر . وهذا الرضى لكونى وجدت صديقاً يعوضنى عن الأصدقاء المضيعين لا يلاقى مانعاً يحول بينه وبين النفاذ إلى الحلم غير محرف فى شىء ، ولكن تسللت من ورائه حالة الرضا العدوانى المستمدة من المصدر الطفلى . نعم ، إن من المستيقن أن الحنان الذى انطوت عليه علاقة الطفولة قد أفاد فى تعزيز نظيره المعاصر المشروع ، ولكن كره الطفولة أيضاً قد أفلح فى أن يشق طريقه إلى التصوير .

ثم إن الحلم قد اشتمل – فوق ما سبق – على خيط فكرى آخر كان من شأنه أن يسلم إلى رضا مشروع : فقد حدث منذ زمن قريب أن صديقى [فليس] أعقب بنتاً بعد طول انتظار . وكنت أعلم كيف كان حزنه على أخته المتوفاة فى وقت مبكر ، فكتبت إليه أقول له : إننى واثق من أنه سوف ينقل الحب الذى يكنه لها إلى الطفلة الجديدة ،وأن الفتاة الصغيرة سوف تتيح له فى النهاية نسيان فقيدته التى لا تعوض .

وهكذا ترتبط هذه الطائفة من الأفكار بدورها بالفكرة المتوسطة فى محتوى الحلم الكامن [أنظر ص٤٨١ و٤٨٢] والتى تتشعب منها طرق التداعى فى اتجاهات متضاربة : " ما من أحد لا يعوض . أنظر ، ليس إلا عائدون ، كل الذين افتقدناهم يرجعون " . ثم بعد ذلك تأتى تلك الواقعة العارضة ، وأعنى بها أن ابنة صديقى قد حملت الاسم الذى كانت تحمله الفتاة الصغيرة التى اعتدت اللعب معها فى طفولتى – وكانت فى سنى وأختاً لأول عدو وصديق – تأتى هذه الواقعة فتحكم الروابط الاستدعائية بين المقومات المتناقضة لأفكار الحلم . فقد كنت شعرت بالرضا حين سمعت أن المولودة سوف تدعى « پولين » ، وعلى سبيل الإشارة إلى هذا الاتفاق وضعت أحد اليوسفين محل الآخر فى الحلم ، ووجدت استحالة فى كتمان التماثل بين الحرفين الأولين من اسمى " فلا يشل " و" ف ." [فليس] . ومن هنا اتجهت خواطرى إلى أسماء أطفالى . فقد أصررت على ألا تختار أسماءهم وفاقاً لبدع اليوم الجارية ، بل تذكيراً بمن أحببت . فأسماء الأطفال قد جعلت منهم – إذن – « عائدين » . ثم فى النهاية ، أليس إنجاب الأولاد هو السبيل الذى لا نملك جميعاً غيره إلى الخلود ؟

وههنا لا أجد ما أضيفه إلى موضوع الحالات الوجدانية فى الحلم سوى بضعة ملاحظات تصدر عن وجهة نظر مختلفة . ذلك أن نفس النائم قد تنطوى على نزوع وجدانى (ما نسميه مزاجاً) يكون هو العنصر المسيطر عليها ويكون له عندئذ نصيبه فى تحتيم الحلم . وقد ينشأ هذا المزاج من خبرات اليوم السابق وأفكاره وقد تكون مصادره جسمية ، وفى كلتا الحالتين يصطحب بالأفكار الملائمة له . ويستوى بعد ذلك من وجهة نظر تكوين الحلم أن يكون هذا المحتوى الذهنى لأفكار الحلم هو الأصل الأول الذى حتم ذلك المزاج ، كما يقع طوراً ، أو أن يكون هذا المحتوى ذاته قد نبه على نحو ثانوى بوساطة استعداد النائم الانفعالى الراجع فى النهاية إلى شروط جسمية ، كما يقع طوراً آخر ؛ فى كلتا الحالتين

يخضع تكوين الحلم لهذا الشرط : أنه لا يستطيع أن يصور إلا ما يحقق رغبة وأنه إنما يستمد دافعه النفسى من الرغبات . فالمزاج الحاضر الناشط يعامل كما يعامل إحساس نبه وصار حاضراً ناشطاً فى أثناء النوم (ص٢٥٣) ، أى أنه إما أن ينحى جانباً أو يلقى تفسيراً جديداً فى الاتجاه الذى يحقق رغبة . والحالات المزاجية المؤلمة تمسى قوة تدفع إلى الحلم ، وذلك من حيث تثير رغبات قوية يفترض فى الحلم العمل على تحقيقها. ولا تنقطع صياغة المادة المرتبطة بهذه الحالات حتى يمكن استخدامها فى الإعراب عن رغبة . وكلما اشتد نصيب المزاج المؤلم فى أفكار الحلم وسيطر ، زدنا يقينا من أن أشد الرغبات قمعاً سوف تنتهز الفرصة لكى يتحقق تصويرها به ؛ لأن الألم الذى ما كانت هذه الرغبات إلا لتحدثه ضرورة قد صار موجوداً فعلا وهى بهذا تجد الجانب الأكبر من عملها على بلوغ التصور فى الحلم وقد صار ممهداً أمامها . وبهذه المناقشات نتطرق مرة أخرى إلى مشكلة أحلام الهيلة التى سوف يتبين أنها الحالة التى يبلغ عندها نشاط الحلم حافته .

ط

المراجعة الثانوية

وأخيراً نتجه إلى رابع العوامل المشتركة فى تكوين الحلم .

إذا تابعنا دراستنا لمحتوى الحلم على النحو الذى بدأنا به ، أى بالمقارنة بين الأحداث الظاهرة فى محتوى الحلم وبين مصادرها فى أفكار الحلم ، عثرنا على عناصر يتطلب تعليلها فرضاً جديداً كل الجدة . وأنا إذ أقول ذلك أفكر فى حالات يشعر فيها المرء وهو يحلم بالعجب أو الضيق أو الاستنكار ، وكل أولئك بإزاء جزء من محتوى الحلم نفسه . إن غالبية هذه المشاعر النقدية التى تعرض فى الحلم لا تتجه فى الحقيقة — كما بينت فى عدد من الأمثلة — إلى محتوى الحلم فى ذاته ، بل يتبين أنها أجزاء من أفكار الحلم ، منها أخذت ثم استخدمت لغاية مناسبة . ولكن بعض هذه المادة لا يخضع لهذا التعليل ؛ فنحن لا نجد له مقابلا بين مادة أفكار الحلم . ما الذى تعنيه — مثلا — تلك الملاحظة النقدية التى يشيع ورودها فى الحلم : " ما هذا إلا حلم " ؟ إننا نجد ههنا نقداً فعلياً للحلم من قبيل ما قد آتيه فى حياة اليقظة . وإن لمن الشائع ألا يكون هذا النقد سوى مقدمة إلى اليقظة ، وأشيع منه أن يجىء مسبوقاً بشعور أليم تهدئ منه تلك المعرفة : أن الحالة حالة

نوم . ذلك أن فكرة " إن هذا إلا حلم " إنما تعرض فى الحلم لذات الغرض الذى من أجله ترد فوق خشبة المسرح على شفاه هيلينا الجميلة فى أوبرا أوفنباخ [الهزلية المعروفة بهذا الاسم[1]] : إنها ترمى إلى التهوين من شأن الحدث الذى لم يكد المرأ يفرغ من خبرته وتهيئة السبيل إلى التسامح فيما قد يعقبه ، إنها تفيد فى تسكين عامل نفسى معين حتى يتمكن من متابعة نومه ، وما كان لولا ذلك إلا لينشط ثائراً ويحول دون استمرار الحلم — أو المشهد الذى فى الأوبرا . فالأهون — مهما يكن من أمر — هو المضى فى النوم والمغفرة للحلم ؛ لأنه — أولا وآخراً — " حلم ليس إلا " . فهذا الحكم النقدى المهون : " إن هذا إلا حلم " إنما يظهر فى الحلم — على حسب نظرتى — كلما أحست الرقابة التى لا تنام أبداً كل النوم أنها قد أخذت على غرة بحلم فتحت له أبواب الولوج فولج وفات أوان قمعه ولم يبق أمام الرقابة سوى اللجوء إلى هذه الكلمات لكى تواجه بها ما قد أثير من الهيلة . أى أن هذه الجملة شاهد على " بطء البديهة "[2] من جانب الرقابة النفسية .

هذا المثال يزودنا — إذن — بدليل مقنع على أن كل ما يحتويه الحلم ليس مستمداً من أفكار الحلم ، بل قد يكون بعض محتوى الحلم راجعاً إلى وظيفة نفسية لا تتميز من فكرنا المستيقظ . وسؤالنا الآن هو : هلى يحدث ذلك فى حالات استثنائية وحسب أم أن القاعدة هى أن يأخذ هذا العامل النفسى الذى لا يعمل فيما عدا ذلك إلا من حيث هو رقابة بنصيب فى تكوين الحلم ؟

لا مجال للتردد فى القطع بصحة الاحتمال الثانى . ما من شك فى أن العامل المراقب الذى لم نعرف أثره حتى الآن إلا فيما يدخله على الحلم من التقييد والحذف سبب كذلك فى حواش وإضافات . فأما الحواشى فيسورة معرفتها ؛ فروايتها تصطحب بالتردد ، يقدم لها الراوى بقومه : " كما لو " ، ثم هى لا تتسم فى ذاتها بشدة حسية خاصة ، وتدخل دائماً فى الموضع التى تستطيع أن تعمل فيها عمل الروابط بين فقرتين فى محتوى الحلم أو فى وصل المسافة بين جزءين من الحلم . والذاكرة فى العادة أقل حفظاً لها منها للمشتقات الصادقة ، الصادرة عن مادة أفكار الحلم . فإن نسى الحلم كانت هى أول ما يختفى من أجزائه ، وأغلب ظنى أن شكوانا المألوفة من كوننا نحلم بالشىء الكثير ثم ننسى

---

(١) [الفصل الثانى ، فى مشهد المناجاة بين هيلينا وباريس عندما يفاجئهما فى نهايته مينيلاوس زوج هيلينا .]

(٢) ["esprit d'escalier"]

معظمه ترجع إلى مسارعة هذه الأفكار الرابطة إلى الاختفاء . وإذا حللنا حلماً ما تحليلا كاملا ، نم عن هذه الحواشى أننا لا نجد مادة ما ترتبط بها فى أفكار الحلم . ولكن البحث المستيقن يدعونى إلى الاعتقاد بأن تلك هى الحالة الأقل شيوعاً . فالقاعدة هى أن الأفكار الروابط ترجع بنا مع ذلك إلى مادة قائمة فى أفكار الحلم ، ولكنها مادة لم تكن تستطيع وحدها أن تجد حقا يؤهلها لأن تقبل فى الحلم ؛ فلا هى بالهامة فى ذاتها ولا هى بالكثيرة الحتم . ولا تخلق الوظيفة النفسية التى نحن الآن فى صددها خلقاً جديداً إلا فى حالات متطرفة — على ما يبدو . إنها — كلما أمكن ذلك — تستخدم كل ما تراه مناسباً بين مادة أفكار الحلم .

إن الشىء الذى يميز هذا الجزء من عمل الحلم وينم عنه فى الوقت نفسه هو غايته . فهذه الوظيفة تسلك على النحو الذى ينسبه الشاعر الماكر إلى الفلاسفة : أى أنها تملأ ما فى الحلم من الثغرات بخرق وسمال[1] ونتيجة جهودها هى أن الحلم يفقد مظهره اللامعقول ويفقد تفككه ويقارب نمط الخبرة المعقولة . ولكن جهودها لا تتوج دائماً بالنجاح . فهناك أحلام قد تبدو للنظرة السطحية خالية من كل مجافاة للمنطق ، معقولة ؛ فهى تبدأ من موقف ممكن تصوره ثم تمرره بسلسلة من التغييرات المتناسقة إلى أن تنتهى به — وإن ندر ذلك — إلى خاتمة ليس فيها ما يدعو إلى العجب . فأمثال هذه الأحلام قد خضعت لمراجعة بعيدة المدى من جانب هذه الوظيفة النفسية القريبة من فكرنا المستيقظ . إنها تبدو حاصلة على بعض المعنى ، ولكن هذا المعنى بعيد غاية البعد عن مغزاها الحقيقى . ولو أننا أخذنا فى تحليلها لرأينا أن تلك على التحديد هى الأحلام التى استباحت فيها المراجعة الثانوية لنفسها حرية اللعب بمادة أفكار الحلم أعظم الاستباحة ولم تبق على العلاقات القائمة فى هذه المادة إلا بأقل نصيب . إنها أحلام نستطيع أن نقول عنها : إنها تجىء وقد فسرت بالفعل مرة قبل أن نأخذ نحن فى إخضاعها لتفسيرنا المستيقظ . وهناك أحلام أخرى لم تصادف فيها هذه المراجعة المغرضة إلا نجاحاً جزئياً ؛ فالمعقولية تبدو غالبة عليها شوطاً ما ، ولكن الحلم ينقلب فإذا هو خال من المعنى ، مختلط ، ثم قد يعود فى لاحق سياقه فيكتسى ثانية بمظهر المعقولية . وهناك بعد أحلام أخرى تخفق فيها

---

(١) [إشارة إلى أبيات لهاينه استشهد بها فرويد بعد ذلك فى آخر محاضرة من " محاضرات تمهيدية جديدة " (فرويد ١٩٢٣ أ) : بقلنسواته الليلية وبأطراف من عباءة الغرفة يسد ثقوب البناء الكونى .]

المراجعة إخفاقاً كاملا ؛ فنرانا نواجه من غير حول ركاماً لا معنى له من مادة متقطعة .

ولست أريد أن أنكر إنكاراً قاطعاً أن هذه القوة الرابعة فى تكوين الحلم التى سنرى سريعاً أن لنا بها معرفة قديمة — فهى فى الحقيقة ، بين القوى الأربع ، الوحيدة التى لنا بها خبرة مألوفة فى غير مجال الحلم — لست أريد أن أنكر أن هذه القوة تملك القدرة على أن تخلق جديداً فى الحلم . سوى أن من المؤكد أنها — كالأخريات — تمارس فعلها أولا من طريق التفضيل والاختيار بين المادة النفسية المتكونة من قبل فى أفكار الحلم . وإن ثمت حالة تُجَنَّبُ فيها هذه القوة إلى مدى بعيد عناء العمل على تكوين واجهة للحلم — إن جاز التعبير . تلك هى الحالة التى نرى فيها بناء أو تركيباً من هذا النوع وقد وجد من قبل بين مادة أفكار الحلم ، مهيئاً للاستخدام . والبناء الذى أعنيه بقولى هذا عنصر اعتدت أن أسميه " تخييلا "[1] ، ولعلى أتجنب سوء الفهم إذا أشرت إلى حلم اليقظة[2] من حيث هو عدله فى الحياة المستيقظة . إن النصيب الذى يرجع إلى هذا العنصر فى حياتنا النفسية أمر لم يعرفه بعد أطباء النفس تمام المعرفة ولم يكشفوا عنه ، وإن يكن م. بنديكت قد أتى فى هذا الاتجاه ببداءة يبدو لى أنها تعد بالشىء الكثير . بيد أن أهمية أحلام اليقظة لم تخف على ما للفنانين من حدس لا يخيب ، وكلنا يعرف وصف دوديه لأحلام اليقظة التى كانت تراود أحد الأشخاص الثانويين فى رواية « النابات » . وتنتهى بنا دراسة الأعصبة إلى نتيجة تبعث على الدهش ، تلك هى : أن هذه التخييلات أو أحلام اليقظة هى النذر التى تسبق الأعراض الهستيرية — أو على الأقل عدداً كبيراً منها — سبقاً مباشراً ، فالأعراض الهستيرية لا ترتبط بذكريات حقيقية ، بل بتخييلات تشيد على أساس هذه الذكريات . وشيوع تخييلات اليقظة الشعورية هو ما يقرب من معرفتنا هذه الأبنية أو التراكيب ، ولكن إذا كانت ثمت تخييلات شعورية من هذا النوع ، فإن ثمت أيضاً عدد وفير لا شعورى ، مرغم على البقاء كذلك بسبب محتواه ولانبعاثه من مادة مكبوتة . وإن التعمق فى بحث خصائص هذه التراكيب يرينا كم نحن محقون حين نطلق عليها ذات الاسم الذى نطلقه على مخلفات فكرنا الليلى ، اسم الأحلام . فهى تشارك أحلام

---

(١) ["Phantasie" كلمة كانت تستخدم قبل فرويد بمعنى " المخيلة " ، فلو أن فرويد تابع لغة العصر لقال : "Phantasiebildung" أى " نتاجا المخيلة ". ومن وجهة نظر علم الأمراض النفسية فإن "التخييل" كان يقال بمعنى " حلم اليقظة " أى تفكير اجترارى لا موضوعية له أو لا يرعى الواقع . ولكن فرويد قد مده إلى " فكرنا الليلى" كما هو واضح من هذه الفقره .]

(٢) Rêve, petit roman - day dream, story

الليل فى عدد كبير من خصائصها ، ولعلنا لو كنا بدأنا ببحثها لكان ذلك أقصر طريق وأفضله إلى فهم أحلام الليل .

فهى كالأحلام تحقق رغبات ، وكالأحلام تنهض إلى مدى بعيد على انطباعات من خبرة الطفولة ، وكالأحلام تنتفع من تراخى الرقابة بعض التراخى . ولو فحصنا تركيبها لرأينا كيف يمزج الهدف المرغوب الناشط فى إحداثها المادة التى تدخل فى بنائها ويعيد ترتيبها ويصوغها فى كل جديد . فبينها وبين ذكريات الطفولة التى منها اشتقاقها علاقة كالتى بين بعض القصور ذات الطراز الباروكى فى روما وبين الأنقاض القديمة التى من أرصفتها وأعمدتها انتزعت المادة المستخدمة فى تشييد هذه الصور المعمارية الأحدث عهداً .

فنحن فى هذه " المراجعة الثانوية " التى عزوناها إلى رابع عواملنا المشتركة فى تكوين الحلم نجد هذا النوع من النشاط الذى يتجلى فى خلق أحلام اليقظة حرا من كل قيد يرجع إلى تأثير غريب . وقد كان يسعنا القول من غير مزيد من التعقيد : إن عاملنا الرابع هذا يسعى إلى تشكيل ما يعرض له من المواد تشكيلا يخرج منها شيئاً شبيهاً بحلم من أحلام اليقظة . فإن كان مثل هذا الحلم قد تكون من قبل بين دائرة أفكار الحلم ، آثر هذا العامل الرابع من عوامل عمل الحلم أن يستولى على حلم اليقظة المتكون بالفعل وحاول إدخاله فى محتوى الحلم . وهناك أحلام لا تعدو أن تكون تكراراً لتخييل طرأ أثناء النهار ولعله كان تخييلا لاشعوريا ، مثال ذلك حلم الصبى الذى رأى أنه يقود عربة من عربات الحرب مع أبطال طروادة [ص١٥٦] . وحلم « أوتو ديداسكر » [ص٣١١] قد كان جزءه الثانى على الأقل إعادة أمينة لتخييل نهارى ، برىء فى ذاته ، حول محادثة أجريها مع الأستاذ ن . بيد أنه إذ كانت الشرائط التى يجب على الحلم إرضاءها قبل أن يظهر إلى الوجود معقدة إلى المدى الذى نعرفه ، فالأكثر وقوعاً هو أن التخييل النهارى لا يكون سوى جزء من الحلم أو أن الحلم لا ينفذ إليه سوى جزء من التخييل ثم بعد ذلك يعامل التخييل بوجه عام كما يعامل أى جزء آخر من المادة الكامنة ، وإن بقى مع ذلك فى أحيان كثيرة متميزاً ككل فى الحلم . فكثيراً ما ترد فى أحلامى أجزاء تبرز دون غيرها لما تحدثه من أثر مختلف : فهى تبدو لى أكثر سلاسة وترابطاً من سائر أجزاء الحلم ثم فى الوقت عينه أسرع تقضياً . هذه أعلم أنها تخييلات لا شعورية اندست فى نسيج الحلم ، ولكننى

لم أفلح فى رصد تخييل من هذا القبيل . ثم إن هذا التخييلات — شأنها شأن أى مقوم آخر من مقومات الحلم — تضغط وتكثف ويطبع بعضها فوق بعض ، إلى غير ذلك . إلا أن هناك حالات متدرجة بين تلك التى تكون فيها هذه التخييلات — غير محرفة — محتوى الحلم أو على الأقل واجهته وبين الطرف النقيض حين لا تتمثل هذه التخييلات فى محتوى الحلم إلا بعنصر فرد من عناصرها أو بإشارة قصية . ومن الواضح أخيراً أن المصير الذى تنتهى إليه التخييلات المحتواة فى أفكار الحلم يتوقف كذلك على ما تشتمل عليه هذه التخييلات من مزايا توافق مقتضيات الرقابة ومقتضيات الحاجة القاهرة إلى التكثيف .

لقد كنت — وأنا أختار الأمثلة على تفسير الحلم — أتجنب حتى الساعة تلك الأحلام التى تأخذ فيها التخييلات اللاشعورية بأى نصيب يعتد به ؛ لأن إدخال هذا العنصر النفسى من شأنه أن يتطلب مناقشات طويلة فى سيكولوجية التفكير اللاشعورى . بيد أننى لا أستطيع فى هذا المقام أن أتجنب موضوع « التخييلات » كل التجنب ؛ فهى تنفذ إلى الحلم كاملة فى كثير من الأحيان ، وأكثر من ذلك أن تترك وراءها لمحات بينة نستطيع رؤيتها خلف الحلم . وعلى ذلك أضيف إلى ما سبق حلماً آخر يبدو متكوناً من تخييلين مختلفين ، متعارضين ، يتلاقيان فى قلة من المواضع ، أحدهما سطحى فى حين أن آخرهما بمثابة تفسير للأول[1] .

كان هذا الحلم — وهو الحلم الوحيد الذى لم أبد كبير عناية فى تدوينه — كان يجرى بوجه الإجمال على هذا النحو : يجلس الحالم — وهو شاب أعزب — فى المطعم الذى اعتاد أن يتناول فيه طعامه والذى صور فى الحلم تصويراً واقعياً . يقبل أناس كثيرون يبتغون البحث عنه ويريد أحدهم أن يلقى القبض عليه . يقول الحالم لأحد رفاقه الجالسين : سأدفع فيما بعد ، إنى راجع . ولكنهم يصيحون قائلين وبسمات السخرية تعلو شفاههم : نحن أدرى ، هذا ما يقوله كل واحد . يصيح من ورائه أحد الضيوف قائلا : ها هو ذا

---

(١) فى " طرف من تحليل حالة هستريا " (فرويد ، ١٩٠٥ هـ [الجزء الثانى]) حللت نموذجاً بديعاً من حلم من هذا النوع تركب من تخييلات طبع بعضها فوق بعض . هذا ، وقد ظللت لا أقدر نصيب التخييلات فى تكوين الحلم حق قدره طالما كنت أشتغل بتحليل أحلامى أنا أولا — وهى أحلام تنبئ فى العادة على مناقشات وأصرعة فكرية ولا تضم أحلام يقظة إلا فيما ندر ، بالنسبة إلى غيرها . فأما الآخرون فكثيراً ما يكون من السهل أن نثبت عندهم التماثل التام بين أحلام الليل وأحلام النهار . ومن الممكن فى أحيان كثيرة عند الهستريين أن يحل حلم محل نوبة هستيرية ، وعندئذ يستطيع المرء أن يقتنع فى غير عناء بأن النذير المباشر لكلا هذين التركيبين النفسيين كان تخييلا جاء فى صورة حلم يقظة .

واحد آخر يذهب . ويساق الحالم بعد ذلك إلى غرفة ضيقة يرى فيها شخص امرأة تحمل طفلا ويقول أحد الذين يصحبونه : هذا هو الهر موللر . هناك مفتش من رجال الشرطة أو رجل له مثل هذه الوظيفة . إنه يقلب حزمة من البطاقات أو الأوراق وهو يردد فى هذه هذه الأثناء قوله : موللر ، موللر ، موللر . وأخيراً يسأل الرجل سؤالا ما فيجيب الحالم بقوله : « قبلت » . ثم يستدير ليرى شخص المرأة ، فيلحظ أن لحية كبيرة قد نبتت لهـــا .

إن من السهل أن نفصل ههنا بين التخييلين اللذين تكون منهما هذا الحلم . فعلى السطح تخييل مداره إلقاء القبض على الحالم ، يبدو أن الحالم قد استحدثه ، ولكن من وراء ذلك يظهر تخييل الزواج كمادة لم يغير عمل الحلم من شكلها إلا تغييراً طفيفاً ، كما برزت فى وضوح خاص السمات المشتركة بين كلا التخييلين ، على نحو مايقع فى صورة من صور جالتون المركبة . فما يعد به الشاب (الذى كان إلى ذلك الحين أعزب) من العودة إلى رفاقه الجلوس والانضمام إليهم ، والشك الذى يستجيب به خلانه هؤلاء (الذين جعلتهم الخبرة أدرى) ، ثم صيحة أحدهم : ها هو ذا واحد آخر يذهب (لكى يتزوج) — كل أولئك سمات يسهل أيضاً فهمها فى ضوء التفسير الآخر . والأمر كذلك فى « قبلت » التى أجاب بها الحالم سؤال الموظف . فأما تقليب حزمة الأوراق مع تكرار ذات الاسم تكراراً مستمراً فيقابل سمة ثانوية ولكنها بينة من سمات حفلات العرس ، وأعنى بها قراءة برقيات التهنئة التى تصل كلها إلى ذات العنوان حاملة اسما واحداً . ولا شك فى أن تخييل الزواج قد أحرز نصراً صريحاً على تخييل إلقاء القبض حين ظهرت العروس بشخصها فى الحلم . وقد أمكننى بعد استفسار — فهذا الحلم لم أحلله — أن أكتشف لم نبتت للعروس لحية فى آخر الحلم : ذلك أن الحالم فى اليوم الذى سبق حلمه كان يسير فى الطريق مع صديق من أصدقائه ، عدو للزواج مثله ، فلفت الحالم صديقه هذا إلى حسناء حالكة الشعر مرت بهما ، فأجابه الصديق : نعم ، لو أن هؤلاء النسوة لم تنبت لهن على مر الأيام لحى كآبائهن !

وطبعى ألا يفتقر هذا الحلم إلى عناصر يذهب فيها تشويه الحلم إلى أبعد من هذا المدى ؛ فمن الجائز مثلا أن يكون قوله : « سأدفع فيما بعد » منطوياً على إشارة تومئ إلى ما كان يخشاه من موقف حميه المنتظر فى مسألة المهر . كما أن من الجلى أن مخاوف من كل نوع كانت تقعد هذا الحالم عن أن يسلم نفسه فى بشر لتخييل الزواج ، ولقد تجسمت

إحدى هذه المخاوف — وهى مخافة أن يفقده الزواج حريته — فى تحويل الأمر إلى مشهد قبض يلقى عليه .

فإذا عدنا إلى ما كنا فيه من أن عمل الحلم يقبل طواعية على استخدام تخييل متكون من قبل بدل أن يبنى تخييلا جديداً من مادة أفكار الحلم ، فقد يصبح فى مستطاعنا أن نحل لغزا من أكثر ألغاز الحلم إثارة للاهتمام . فقد ذكرت فى صفحة ٦٤ القصة المأثورة عن مورى : كيف سقطت قطعة من الخشب على قفاه وهو نائم ، فاستيقظ من حلم طويل كان شبيهاً بقصة مكتملة جرت أحداثها فى أيام الثورة الفرنسية . وإذ كان هذا الحلم متسق الأجزاء — على حسب روايته — وكان كأنما جعل ليكون تفسيراً للمنبه الذى أيقظ النائم والذى لم يكن من المستطاع التنبؤ به ، فالفرض الوحيد الممكن — فيما يبدو — هو أن هذا الحلم المحكم قد ألف جميعه وانقضى فى الفترة القصيرة الواقعة بين سقوط العارض الخشبى على فقارات مورى العنقية وبين ما أعقب من استيقاظه . ولسنا نستطيع على الإطلاق أن ننسب مثل هذه السرعة إلى نشاطنا الفكرى فى الحياة المستيقظة ، وعلى ذلك لا يكون مفر من أن نخلص إلى أن عمل الحلم يملك ميزة إعجال عملياتنا الفكرية إلى درجة تدعو إلى العجب .

بيد أن هذه النظرية التى لم تلبث أن لاقت ذيوعاً سريعاً قد وجهت إليها اعتراضات قوية من جانب بعض الكتاب الأحدث عهداً (لولوران وايجير وغيرهما) . فهم — من جهة — يتشككون فى دقة رواية مورى لحلمه ، ومن جهة أخرى يحاولون أن يبينوا أن سرعة عمليات أفكارنا المستيقظة لا تقل عنها فى هذا الحلم إذا حذفنا منه المبالغات . ولقد أثارت المناقشة مسائل تتعلق بالمبدأ لا يبدو لى أننا نستطيع حلها حلا مباشراً . بيد أنى أعترف بأن الحجج التى ساقها هؤلاء المؤلفون (مثل ايجير) على حلم المقصلة الذى رواه مورى بخاصة قد تركتنى دون أن تقنعنى . وأفضل من جانبى أن أقترح التعليل الآتى : أهو فرض مستبعد كل الاستبعاد أن يكون حلم مورى قد صور تخييلا اختزن منذ سنوات فى ذاكرته ثم نُبه — وأحرى بى أن أقول : أشير إليه — فى اللحظة التى شعر فيها مورى بالمنبه الذى أيقظه ؟ إذا كان الأمر كذلك اختفت كل الصعوبة التى نواجهها حين نسأل كيف ألفت مثل هذه القصة الطويلة فى الفترة الزمنية البالغة القصر التى كانت فى متناول الحالم ؟ ذلك أن القصة — على حسب الفرض — كانت مؤلفة من قبل . ولو أن العارض

أصاب عنق موری وهو مستيقظ ، لكان هناك محل لمثل ذلك الخاطر : لكأنها المقصلة ! وأما والعارض يصيبه وهو نائم فإن عمل الحلم يبادر إلى استغلال هذا التنبيه غير المتوقع بما يحقق رغبة ، كأنما قد خطرت له تلك الفكرة (ومن الواجب أن يأخذ قولى هذا مأخذا استعارياً محضاً) : « ها هى ذى فرصة طيبة لتحقيق تخييل مشبع بالرغبة كونته فى هذا الوقت أو ذاك، أثناء مطالعاتى . » ولا منازعة — على ما أعتقد — فى أن قصة الحلم من النوع الذى ينزع إلى تخيله شاب تعمل فى نفسه انطباعات شديدة الإثارة ، ومن ذا الذى لم يخفق قلبه — ودع عنك رجلا فرنسياً ودارساً لتاريخ الحضارة — وهو يسمع قصص عهد الإرهاب أيام كان النبلاء رجالا ونساء ، زهرة الشعب ، يظهرون للملأ كيف يستطيع الإنسان أن يذهب إلى الموت بنفس مقبلة وحين كانوا يستمسكون بتوقد قريحتهم وأناقة مسلكهم حتى لحظة النداء الذى ينفذ بعده قضاءهم ؟ وأى إغراء فى أن يتصور المرء نفسه وسط هذا كله ، شاباً بين أولئك الشبان الذين يودع كل منهم سيدته بقبلة يطبعها على يدها ثم يصعد بعدها إلى المقصلة فى غير ما وجل ؟ فإن كان الطموح هو الدافع الرئيس إلى التخييل ، فأى إغراء فى أن يضع المرء نفسه فى موضع أحد هؤلاء الأفراد الأفذاذ الذين كانوا بقوة أفكارهم وفصاحتهم الملتهبة — ليس غير — يحكمون المدينة التى كان قلب العالم يخفق فيها إذ ذاك خفقاً تشنجياً ، أولئك الذين قادتهم معتقداتهم إلى أن يرسلوا آلاف الرجال إلى حتفهم والذين كانوا يمهدون الطريق لتغيير وجه أوروبا بينا كانت رؤوسهم أنفسهم غير آمنة مقدراً لها أن تسقط يوماً تحت المقصلة ، كأنما المتخيل أحد الجيرونديين أو دانتون البطل ؟ والحق أن ذكرى موری لحلمه قد تضمنت سمة تبدو شاهداً على أن تخييله كان من النوع الطموح ، وأعنى بها ما جاء من كونه « يساق إلى المقصلة وقد أحاط به حشد غفير » .

ثم إنه لا حاجة إلى أن يكون النائم قد مر فى خلال نومه بكل هذا التخييل المهيأ منذ زمن طويل ؛ بل يكفى أن يقف الأمر عند حد « لمسه » . والذى أعنيه هو هذا : إذا عُزفت الأقدار الأولى من مقطوعة موسيقية ثم عقب البعض — كما فى « دون چوان » — قائلا : هذا النغم من « زواج فيجارو » لموزار ، كان ذلك كافياً لأن يحرك دفعة واحدة عددا من الذكريات ما كانت تستطيع إحداها أن تلج الشعور منفردة فى اللحظة الأولى . فالنغم المفتاح كان بمثابة منفذ ينفسح فإذا التنبيه يشمل الكل فى آن معاً . ويكفى أن

تكون الحال كذلك فيما يتصل بتفكيرنا اللاشعورى : يأتى المنبه فيثير المنفذ النفسى الذى منه ينفسح الطريق لتخييل المقصلة كله ، ولكن النائم لا يذرع هذا التخييل جميعه فى خلال نومه وإنما فى ذاكرته بعد أن يستيقظ . فهو بعد أن يستيقظ يذكر كل تفاصيل هذا التخييل الذى أثير من حيث هو كل . وفى مقدورنا أن نطبق هذا التعليل ذاته — وأعنى به أن المسألة مسألة تخييل معد من قبل تم إثارته بوساطة المنبه — على غير ذلك من الأحلام التى تتبلور حول منبه مثير ، مثل حلم الموقعة الذى أتاه نابليون قبيل انفجار اللغم [ص٢٥١ و ص ٦٤] . وإن بين الأحلام التى جمعتها چوستين تو بوڤولسكا فى رسالتها عن الديمومة الظاهرة للزمن فى الأحلام — حلماً يبدو لى أشد أحلام المجموعة دلالة ، هو هذا الذى رواه ماكازيو (١٨٥٧) عن مؤلف مسرحى يدعى كازيمير بونجور[1] فقد حدث ذات مساء أن رغب بونجور فى حضور العرض الأول لإحدى مسرحياته ، غير أنه كان مجهداً حتى أن النعاس أطبق جفنيه وهو جالس خلف المشاهد بينما كان يرفع الستار ، فإذا هو — فى خلال نومه — يرى فصول الرواية الخمس جميعاً ويلاحظ ما يبديه جمهور المتفرجين فى خلال المواقف المتتالية من مختلف أمارات الانفعال . وانتهى العرض وامتلأت نفسه سروراً إذ سمع الجمهور يتصايح باسمه مصحوباً بأشد التصفيق . عندئذ استيقظ فجأة فلم يكد يصدق من نفسه عيناً ولا أذناً ؛ فما جاوز العرض السطور الأولى من المشهد الأول ولا طال نومه بحال من الأحوال عن الدقيقتين . ومن المؤكد أننا لا نركب شططاً إذ نفترض فى حالة هذا الحلم أن مرور الحالم بالفصول الخمسة للرواية وملاحظته استجابة الجمهور لمختلف مواقفها لم يصدرا بالضرورة عن خلق جديد لكل هذه المادة ، بل لعلهما إنما استعادا أثراً سبق أن أتمه النشاط التخييلى بالمعنى الذى بينت . وإن تو بوڤولسكا لتؤكد — شأن غيرها من الكتاب — أن الأحلام التى تنقضى فيها الأفكار انقضاء معجلا تحمل تلك الخاصة المشتركة ، وهى أنها تبدو فريدة فى اتساقها ، مخالفة فى ذلك سائر الأحلام كل المخالفة ، وأن ذكراها تكون موجزة أكثر منها مفصلة . ولكن تلك على التحقيق هى الخاصة التى يجب أن تكون لأمثال هذه التخييلات المعدة من قبل والتى لمسها عمل الحلم — وهى نتيجة قصر عن استنباطها سائر المؤلفين . غير أنى لا أؤكد مع ذلك أن كل حلم يجئ عقب منبه موقظ يقبل هذا التعليل ، ولا أننا

---

(١) تو بوڤولسكا ، ص ٣٥ .

نتخلص جملة بهذه الطريقة من مشكلة انقضاء الأفكار فى الحلم انقضاء معجلا .

وههنا يستحيل علينا أن نتجنب النظر فى العلاقة بين هذه المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم وبين سائر عوامل عمل الحلم . أنفترض أن الذى يقع هو أن العوامل المشتركة فى تكوين الحلم — وأعنى بها النزوع إلى التكثيف ثم ضرورة الإفلات من الرقابة ثم اعتبار قابلية التصوير بالوسائل النفسية الميسرة للحلم — تقوم فى بادئ الأمر بتكوين محتوى حلمى موقوت من المادة المتوفرة ، ثم بعد ذلك يرتب هذا المحتوى ترتيباً جديداً بحيث يتفق بقدر الإمكان ومطالب عامل آخر (هو المراجعة الثانوية) ؟ ذلك فرض لا يكاد يلقى أقل حظ من الرجوح ، بل أحرى بنا أن نفترض أن مطالب هذا العامل الآخر هى منذ البدء إحدى الشرائط التى يتحتم على الحلم إرضاؤها وأن هذا الشرط — كغيره مما يقتضيه التكثيف والرقابة وليدة المقاومة وقابلية التصوير — يزاول فى ذات الآن عمله فى مجموع المادة الحاضرة فى أفكار الحلم ، مختاراً بينها ، آخذاً هذا مانعاً ذاك . بيد أن العامل الذى جئنا إلى معرفته آخرا هو — بين شرائط تكوين الحلم — هذا الذى تبدو مطالبه أقل الجميع إكراهاً للحلم . فأما أن هذه الوظيفة النفسية التى وصفناها باسم المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم يجب أن تعد شيئاً واحداً ونشاط فكرنا المستيقظ ، فذلك ما يرجحه الاعتبار الآتى كل الترجيح : إن تفكيرنا المستيقظ (قبل الشعورى) ينهج إزاء أية مادة مدركة يصادفها على ذات النهج الذى تسلكه هذه الوظيفة التى نحن بصددها إزاء محتوى الحلم فمن طبيعة فكرنا المستيقظ أن يقر النظام فى مثل هذه المادة وأن ينشىء العلائق فيما بينها وأن يجعلها تطابق ما نتوقعه من كل معقول . والحق أننا نغلو بعض الغلو فى هذا الاتجاه ؛ فإنما تخدعنا حيل المشعوذة لأنها تستغل عاداتنا العقلية هذه . فنحن فى محاولاتنا أن نسوى ما نتلقاه من الانطباعات الحسية على نمط معقول نرتكب فى أحيان كثيرة أشد الأخطاء غرابة ولقد نزيف الحقيقة فيما يتصل بالمادة الماثلة أمامنا . والشواهد على ذلك من الأمور المعلومة للجميع — وهو ما يعفينا من الإلحاح عليها . فنحن حين نقرأ نغض الظرف عن الأخطاء المطبعية التى تبطل المعنى ونتوهم أن ما نقرأه صحيح . وقد قيل إن ناشراً لإحدى المجلات الفرنسية الذائعة قد راهن على أن يجعل الطابع يدس كلمتى « أماما » و « خلفا » فى كل جملة من جمل مقال طويل دون أن ينتبه إلى ذلك قارئ واحد ، فكان أن كسب الرهان . وقرأت منذ سنوات فى إحدى الصحف مثالا

مضحكاً من أمثلة الربط الزائف . ذلك أن أحد الفوضويين ألقى قنبلة فى مجلس النواب الفرنسى أثناء انعقاده وأخذ ديبوى الذعر الذى أعقب بصيحته الشجاعة : الجلسة مستمرة[٢] . وطُلب إلى الزائرين ممن كانوا فى الأروقة أن يصفوا مشاعرهم كشهود للاعتداء وكان بين هؤلاء رجلان من الريف ، فقال أحدهما : إنه قد سمع الطلق حقيقة لكنه ظنها عادة برلمانية أن يرسل طلق كلما جلس خطيب وأما الثانى — وكان فى الراجح قد استمع إلى خطب متعددة قبل ذلك — فقد خطرت له هذه الفكرة أيضاً ، سوى أنه ظن أن الطلق تكريم لا يعقب إلا الخطب التى تبز غيرها فى نجاحها .

وما من شك — إذن — فى أن تفكيرنا السوى هو العامل النفسى الذى يتقدم إلى محتوى الحلم مطالباً إياه بأن يكون معقولا ، وهو الذى يخضعه لتفسير أول ، وبذا يسبب خطأ كاملا فى فهمه . ولهذا كان من القواعد الجوهرية فى تفسيرنا ألا نلتفت فى أيه حالة إلى الاتصال الظاهر فى الحلم معتبرين إياه ذا أصل مشكوك فيه ، وأن نتأثر ذات الطريق راجعين إلى مادة أفكار الحلم ، سواء أواضحا كان الحلم أم مختلطاً .

غير أننا نلمح بذلك علام يتوقف ما تحدثنا عنه فى ص ٣٤٠ من التدرج الكيفى للحلم بين الاختلاط والوضوح . فأجزاء الحلم الواضحة هى تلك التى استطاعت المراجعة الثانوية أن تحدث فيها أثرها ، فأما تلك التى لا تفلح فيها جهود هذه المراجعة فمختلطة . وإذ كانت أجزاء الحلم المختلطة فى أحيان كثيرة هى فى الوقت نفسه أقل أجزائه من حيث الشدة الحسية ، جاز أن نستنتج أن المراجعة الثانوية سبب كذلك فى تفاوت هذة الشدة بين مختلف عناصر الحلم .

فإذا بحثت الآن عن شىء أقارن به الصورة الأخيرة التى يتخذها الحلم بعد أن يدلى تفكيرنا السوى بدلوه ، لم أجد أحسن من هذه النقوش المعماة التى سلت بها « الصحائف الطائرة » قراءها زمناً طويلا . لقد كان الهدف منها أن تدخل فى روع القارئ أن هذه الجملة أو تلك — ويفضل من أجل المفارقة أن تكون الجملة عامية مضحكة قدر الإمكان — إنما هى نقش لا تين . ولهذا تنزع الحروف من تراكيبها المقطعية وترتب على نسق جديد ، فتظهر هنا وهناك كلمة لاتينية حقيقية ، وقد نتعامى بعد ذلك فى مواضع أخرى من النقش عن خلو الحروف المنعزلة من كل معنى فنتوهم أن فى النقش أجزاء انمحت أو ثغرات .

---

(١) [La séance continue.]

فإذا كنا نريد ألا تغرر بنا المزحة ، وجب أن ندع جانباً كل ما من شأنه أن يجعل الجملة تبدو مثل النقش وأن نصوب إلى الأحرف نظرة ثابتة غير ملقين انتباها إلى ترتيبها الظاهر ، وبذلك نركبها فى كلمات من لغتنا نحن .

وقد كانت المراجعة الثانوية — بين عوامل عمل الحلم — هى العامل الذى لحظته غالبية الكتاب فى الموضوع وقدرت له أهميته . ويأتى هافلوك إليس (١٩١١ ، ١٠) بوصف طريف لمسلكها ، فيقول :

« ولنا أن نتصور أن الأمور تجرى بالفعل على هذا النحو : يحدث الشعور النائم نفسه قائلا : ها هو ذا سيدنا مقبل ، ها هو ذا الشعور المستيقظ الذى يعلق كل هذه الأهمية الغالبة على العقل والمنطق وما إليهما . أسرع ! اجمع الأمور ونظمها — وأى نظام يكفى — قبل أن يدخل هو لكى يضع يده . »

ولقد أكد دولاكروا العينية بين هذا المنهج فى العمل وبين منهج التفكير المستيقظ توكيداً فريدا فى وضوحه ، فقال (١٩٠٤ ، ٢٥٦) :

« هذه الوظيفة المفسرة ليست بالخاصة القاصرة على الحلم فهى لا تختلف من عمل الربط المنطقى الذى نجربه على إحساساتنا ونحن أيقاظ . »[١]

ويرى جيمس سوللى هذا الرأى أيضاً . وكذلك توبوڤولسكا ، إذ تقول :

« هذه الهلاوس المتعاقبة فى غير اتساق يجهد الذهن لكن يجرى عليها ذات العمل الذى يؤديه فى اليقظة بإزاء إحساساتنا ، وأعنى به ربطها فيما بينها برباط منطقى ؛ فهو يصل كل هذه الصور المتقطعة برباط موهوم ويسد ما كان بينها من ثغرات مفرطة الاتساع . »[٢] (ص ٩٣) .

وفى رأى بعض الكتاب أن هذه العملية ، عملية الترتيب والتفسير ، تبدأ فى خلال الحلم وتواصل عملها بعد اليقظة ، فهكذا يقول پولان (ص ٥٤٧) :

« ومع هذا فقد فكرت فى كثير من الأحايين فى أن صورة الحلم قد تلقى فى ذاكرتنا

---

(١) ["Cette fonction d'interprétation n'est pas particulière au rêve; c'est le même travail de coordination logique que nous faisons sur nos sensations pendant la veille."]

(٢) "Sur ces suecessions incohérentes d'hallucinations, l'esprit s'efforce de faire le même travail de coordination logique qu'il fait pendant la veille sur les sensations. Il relie entre elles par un lien imaginaire toutes ces images décousues et bouche les écarts trop grands qui se trouvaient entre elles.]

تحريفاً أو بالأحرى تصاغ صوغاً جديداً . . . فنزوع مخيلتنا إلى التنسيق مستطيع ولا شك أن يتم فى اليقظة ما قد بدأه أثناء النوم وهكذا تبدو السرعة الحقيقية لفكرنا وقد زادت زيادة مظهرية بفعل التنقيحات التى تدخلها المخيلة المستيقظة . »(١)

ويقول لوروا وتو بوڤولسكا (ص ٥٩٢) :

« فأما فى حالة الحلم فالتفسير والربط لا يتمان بالاستعانه بمعطيات الحلم وحدها ، بل تعين عليهما معطيات اليقظة كذلك . . . »(٢)

ولم يكن بعد ذلك محيد عن أن نرى هذا العامل الذى عرف وحده دون سائر عوامل تكوين الحلم وقد لاقى تقديراً لأهميته يتسم بالمغالاة حتى نسب إليه البعض كل وظيفة خلق الحلم . فى رأى جوبلو — وفوكو بخاصة — أن هذا الخلق يتم فى لحظة اليقظة ، أى أن هذين المؤلفين يضيفان إلى الفكر المستيقظ القدرة على تكوين الحلم من الأفكار المنبعثة فى أثناء النوم .

ويقول لوروا وتوبوڤولسكا فى صدد هذه النظرية : « لقد ظن البعض أن من الممكن جعل مكان الحلم فى لحظة اليقظة ، وأضافوا إلى الفكر المستيقظ وظيفة تكوين الحلم بالصور الحاضرة فى فكر النائم . »(٣)

وبهذه المناقشة فى أمر المراجعة الثانوية أردف بحث عامل آخر فى عمل الحلم ، ألقت عليه الضوء أخيراً ملاحظات دقيقة لهربرت سيلبرير . فقد ذكرت من قبل (ص٣٥٣) أن سيلبرير قد اقتنص — إن جاز هذا التعبير — عملية تحويل الأفكار

---

(١) ["Cependant j'ai souvent pensé qu'il pouvait y avoir une certaine déformation, ou plutôt reformation du rêve dans le souvenir ... La tendance systématisante de l'imagination pourrait fort bien achever après le réveil ce qu'elle a ébauché pendant le sommeil. De la sorte la rapidité réelle de la pensée serait augmenteé en apparence par ces perfectionnements dus à l'imagination eveillée."]

(٢) ["Dans le rêve, au coutraire, l'interprétation et la coordination se font non seulement à l'aide des données du rêve, mais encore à l'aide de celles de la veille ..."]

(٣) ["On a cru pouvoir placer le rêve au moment du réveil et ils ont attribués à la pensée de la veille la fonction de construire le rêve avec les images presentes dans la pensée du sommeil."]

إلى صور ، واقتنصها على التحديد وهى آخذة فى التمام . وكان ذلك بأن كان يتكلف ضروباً من ضروب النشاط العقلى وهو فى حالة من التعب أو النعاس . فى مثل هذه اللحظات كانت تختفى الفكرة التى يعالجها وتحل محلها رؤية لا يلبث أن يتضح أنها بديل لما لم يكن فى العادة سوى أفكار مجردة (أنظر الأمثلة على ذلك فى الصفحة المذكورة). والذى يهمنا الآن هو أنه يحدث أحياناً أن الصورة المنبعثة — والتى تصح مقارنتها بعنصر من عناصر الحلم — كانت تمثل أحياناً شيئاً آخر غير الفكرة المعالجة ، ألا وهو التعب نفسه أو المشقة المتضمنة فى العمل أو الضيق به ، أى أنها كانت تمثل الحالة الذاتية لمن يتكلف الجهد وتمثل وضعه وهو يمارس وظائفه بدل أن تمثل موضوع هذا الجهد . ولقد أطلق سيلبرير على أمثال هذه الصور التى كان يشيع ورودها عنده إلى مدى بعيد اسم « الظاهرة الوظيفية » تفريقاً بينها وبين « الظاهرة المادية » التى كنا نتوقعها .

« مثال : كنت فى عصر يوم راقدا على أريكتى وأنا أشعر بنعاس شديد ، ومع هذا حملت نفسى على التفكير فى مشكلة فلسفية ، كنت أريد المقارنة بين آراء كانْت فى الزمن وآراء شوبنهاور . غير أننى — وبى من النعاس ما بى — لم أكن قادراً على الإمساك بقضايا كلا الفيلسوفين فى وقت واحد ، على ما تقتضيه المقارنة . وبعد عدد من المحاولات غير المجدية أشربت ذهنى بالاستنباط الكانتى مرة ثانية ، باذلا فى ذلك كل ما تملك إرادتى من القوة ، حتى أتمكن من تطبيقه على قضية شوبنهاور فى المشكلة . ثم بعد ذلك تحولت إلى هذه القضية ، ولكننى حين أردت العودة إلى كانت رأيت أن براهينه قد أفلتت منى مرة ثانية ، وعبثا حاولت استرجاعها . هذا الجهد المضيع فى فتح درج كانْت الذى كان مختزنا فى جهة ما من رأسى لم يلبث أن تمثل نصب عينى فى رمز عيانى متشكل ، كأنه صورة من حلم : أسأل موظفاً عبوساً جلس محنياً على مكتبه بعض المعلومات ، ولكنه لا يلقى بالا إلى مطلبى الذى ألح فيه ثم يستقيم فى جلسته نصف استقامة ويرسل إلى نظرة رفض غاضبة . » (سيلبرير ١٩٠٩ ، ٥١٣)

وهاهى ذى أمثلة أخرى تتعلق بالتردد بين حالتى النوم واليقظة :

« مثال رقم ٢ — الملابسات : فى الصباح ، عند الاستيقاظ . يذهب خاطرى وأنا نائم بعض النوم (أى وأنا فى حالة شفقية) إلى حلم جاءنى وأتابع الحلم به على نحو من

الأنحاء . وبينما أنا كذلك أحسست أننى أقترب من حالة اليقظة شيئاً فشيئاً ولكننى أريد البقاء فى الحالة الشفقية .

« المنظر : أقدم رجلا لأعبر مجرى ماء ولكننى أعود فأؤخرها عازماً على البقاء حيث أنا . » (سيلبرير ١٩١١ ، ٦٢٥)

« مثال رقم ٦ — الملابسات : كما فى المثال رقم ٤ (حيث كان يريد المضى فى النعاس قليلا دون أن يفوته الوقت.) أود لو واصلت النعاس برهة .

« المنظر : أودع البعض وأدبر معه (أو معها) لقاء قريباً . » [ذات المرجع ، ص ٦٢٧ .]

لقد لاحظ سيلبرير الظاهرة « الوظيفية » التى هى « تصوير لوضع ذاتى وليس لموضوع » فى خلال حالتى الشروع فى النوم والاستيقاظ منه ، قبل كل حالة أخرى . ومن الواضح أن تفسير الحلم إنما يعنى بالحالة الثانية . ومن هذه الناحية نجد أن سيلبرير قد أتى بأمثلة مقنعة تدل على أن الأجزاء الأخيرة من المحتوى الظاهر لكثير من الأحلام — وهى الأجزاء التى تأتى قبيل اليقظة مباشرة — لا تصور فى كثير من الأحيان سوى نية الاستيقاظ أو فعل الاستيقاظ نفسه . وقد يجئ هذا التصوير فى صور من قبيل اجتياز إحدى العتبات (رمزية العتبة) أو مغادرة حجرة أو دخول أخرى أو الرحيل أو العودة إلى الوطن أو الافتراق عن رفيق أو الغطس فى الماء ، إلى آخره . بيد أننى لا أستطيع إلا أن ألاحظ أننى لم أصادف عناصر حلمية يمكن ردها إلى رمزية العتبة — سواء أكان ذلك فى أحلامى أم فى أحلام الآخرين — اللهم إلا فى حالات تقل كثيراً عما تهيئه لنا روايات سيلبرير .

وليس من الممتنع على التصور ولا هو بالشىء المستبعد أن يكون فى «رمزية العتبة » هذه ما يلقى ضوءاً على بعض العناصر التى تجئ وسط سياق الحلم ، فى مواضع يتعلق فيها الأمر بذبذبة فى مستوى عمق النوم ونزوع إلى إنهاء الحلم مثلا . ومع هذا فما أتى أحد بأمثلة مستيقنة على ذلك . وإنما الأكثر وقوعاً — فيما يبدو — هو حالات الحلم المضاعف التى نرى فيها إحدى فقرات الحلم المستمد محتواها من جعبة أفكار الحلم وقد استخدمت فوق ذلك فى تصوير إحدى حالات النشاط النفسى .

وقد كانت ظاهرة سيلبرير الوظيفية هذه — وهى ظاهرة جد خليقة بالاهتمام — سبباً فى الشىء الكثير من سوء الاستغلال ، دون أن تكون لصاحبها جريرة فى ذلك . ذلك أن البعض

قد رأى فيها سنداً يدعم النزوع القديم إلى أن نخلع على الأحلام تفسيرات مجردة، رمزية . ومن الناس من يذهبون شوطاً بعيداً فى إيثار « المقولة الوظيفية » حتى أنهم ليتحدثون عن الظاهرة الوظيفية كلما عرضت فى الحلم وجوه من النشاط العقلى أو من العمليات الانفعالية ، مع أن هذه المادة لا تملك من حق الدخول فى الحلم — باعتبارها مخلفات من اليوم السابق — إلا ما يملكه سواها ، لا أكثر ولا أقل .

إننا نسلم طواعية بأن فى ظاهرة سيلبرير مشاركة ثانية يشارك بها الفكر المستيقظ فى تكوين الحلم ، وإن تكن تقل عن الأولى — تلك التى أدخلناها من قبل تحت اسم « المراجعة الثانوية » — من حيث اطراد الوقوع ومن حيث القيمة والخطر . فقد تبين لنا أن جزءاً من الانتباه الذى لا ينى عن العمل أثناء النهار يستمر أيضاً فى خلال حالة النوم متجهاً حينئذ إلى الأحلام ، فيكبح جماحها وينقدها ويحتفظ لنفسه بالحق فى أن يضع لها حداً . وكان من الطبعى أن نرى فى هذا العامل النفسى الباقى على يقظته المراقبَ الذى عزونا إليه مثل هذا التأثير التقييدى الشديد فى تشكيل الحلم . والذى تضيفه ملاحظات سيلبرير هو تلك الحقيقة : إن ضرباً من الملاحظة الذاتية يشترك عندئذ فى العمل تحت ملابسات معينة ويكون له أثره فى محتوى الحلم . فأما العلاقة المحتملة بين هذا العامل الذى يقوم بالملاحظة الذاتية والذى قد يبرز عند أصحاب العقول الفلسفية بنوع خاص وبين الإدراك الباطنى وهجاس الملاحظة والشعور ومراقبة الحلم ، فذلك ما تنبغى معالجته فى موضع آخر[1] .

والآن أخلص هذا البحث المطول فى عمل الحلم . لقد وجدنا أنفسنا نواجه ذلك السؤال : أتستخدم النفس كل قواها فى تكوين الحلم دون أن تدخر منها شيئاً ، أم تستخدم جزءاً منها مكفوف النشاط ليس غير ؟ وأدت بنا أبحاثنا إلى أن نطرح مثل هذه الصياغة للسؤال لأنها لا تكافئ الأوضاع . فإن حُتمت علينا الإجابة مع البقاء فى المجال الذى ترسمه حدود السؤال ، لم يكن مفر من الرد بالإيجاب على كلا الاحتمالين — وإن بدا أن كليهما يمنع الآخر منع الضد للضد . فالعمل النفسى الذى يبذل عند تكوين الحلم ينقسم قسمين : إحداث أفكار الحلم ثم تحويلها إلى محتوى الحلم . فأما أفكار الحلم فصحيحة كل الصحة وفى تكوينها تبذل كل الطاقة النفسية التى نحن مستطيعونها ،

---

(١) " فى النرجسية " (فرويد ١٩١٤ ج) .

إنها ترجع إلى فكرنا الذى لم يصبح بعد فكراً شعورياً والذى منه تنشأ أفكارنا الشعورية أيضاً بعد تعديل خاص . ومهما ارتبط بها — أعنى بأفكار الحلم — من أسئلة جديرة بالاهتمام ، معماة ، فهذه الأسئلة لا تحمل صلة خاصة بالحلم ولا تقتضى علاجها بين مسائله[1]. فأما الجزء الثانى من العمل وهو هذا الذى يحول الأفكار اللاشعورية إلى محتوى الحلم فقصر على الحياة الحالمة وخاصة تميزها . هذا الجزء هو عمل الحلم بالمعنى الصحيح للكلمة ، وهو يبعد عن مثال الفكر المستيقظ بعدا يزيد على ما كان يظنه حتى أعند المنتقصين للنشاط النفسى فى تكوين الحلم : فهو — أعنى عمل الحلم — لا يختلف فقط من تفكير اليقظة فى كونه أكثر إهمالا وفساداً وأكثر نسياناً ونقصاً ، بل هو يختلف من هذا التفكير اختلافاً كيفيا مطلقاً ، ولهذا لم تجز المقارنة المباشرة بينهما . إنه لا يفكر على الإطلاق ولا يحسب أو يحكم ، بل يقصر نفسه على صب كل أولئك فى صورة جديدة ، ونحن نستغرق وصفه حتى نعدد الشروط التى يجب عليه إرضاؤها وهو يحدث نتاجه . هذا النتاج — وهو الحلم — يجب قبل كل شىء أن يفلت من الرقابة ، ومن أجل هذا الغرض يلجأ عمل الحلم إلى نقل الشدات النفسية حتى وليحدث تغييراً كاملا فى جميع القيم النفسية . ثم إن الأفكار يجب أن تستحضر — على نحو مانع أو غالب — فى مادة من الآثار الذكروية البصرية والسمعية ، وهو اقتضاء يفرض على عمل الحلم اعتبارات تتعلق بقابلية التصوير يواجهها عمل الحلم بأن يجرى نقلات جديدة . ولا بد (على الراجح) من إحداث شدات نفسية تفوق ما يكون لأفكار الحلم ليلا ، وهو غرض يتم بوساطة التكثيف الواسع النطاق الذى يشمل مقومات الحلم . فأما العلاقات المنطقية بين الأفكار فلا تنال سوى القليل من الانتباه ، وهى فى نهاية الأمر تلقى تصويراً

---

(١) لقد كنت فى وقت من الأوقات أجد صعوبة قصوى فى جعل القراء يألفون التفرقة بين المحتوى الظاهر للحلم وبين أفكاره الكامنة ، وكنت لا أفتأ أسمع اعتراضات وحججا مستخرجة من حلم لم يفسر ، أخذ كما أبقت عليه الذاكرة دون التفات إلى ضرورة تفسيره . وأما اليوم وقد رضى المحللون على الأقل بإحلال تفسير الحلم محل محتواه الظاهر ، فإن الكثيرين منهم يرتكبون نوعا من الخطأ يصرون عليه إصرار سابقيهم على خطئهم : ذلك أنهم يبحثون عن جوهر الحلم فى محتواه الكامن ، وبذا يغضون الطرف عن التفرقة بين أفكار الحلم وعمل الحلم . إن الحلم فى جوهره ليس سوى صورة خاصة من صور التفكير صارت ممكنة بفعل شروط حالة النوم . وعمل الحلم هو الذى يخلق هذه الصورة ، وفيه وحده تقوم ماهية الحلم ، إنه هو الذى يفسر طبيعة الحلم الخاصة . وإنى أقول ذلك لكى نقدر تقديرا صحيحا ما يتحدث به الكثيرون من " ميل الحلم إلى الاهتمام بالمستقبل " ؛ فلأن يشغل الحلم بالتماس حلول للمشكلات التى تواجه حياتنا النفسية ليس بأعجب من اشتغال حياتنا المستيقظة الشعورية بهذه المشكلات ، ولا يدل بعد ذلك إلا على أن هذا العمل يمكن وقوعه فى ما قبل الشعور كذلك — وهو أمر نعرفه من قبل .

مقنعاً فى بعض الخصائص الصورية للحلم . وأما الحالات الوجدانية المتصلة بأفكار الحلم فيصيبها تغيير يقل عن الذى يتناول المحتوى الذهنى لهذه الأفكار ، والقاعدة هى أن تقمع أمثال هذه الحالات ، فإن أبقى عليها انتزعت مما ترتبط به من الأفكار وضم ما تجانس منها . جزء واحد من عمل الحلم — وأعنى به ما يأتيه الفكر المستيقظ استيقاظا جزئياً من مراجعة متفاوتة المدى — هو الذى يتفق بعض الاتفاق والنظرة التى أراد المؤلفون تطبيقها على فعل تكوين الحلم فى مجموعه .